





الجمهورية العربية السورية
وزارة التعليم

الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي

تأليف
محمود مصطفى

قدم له

الدكتور شوقي ضيف

الناشر

دار الكتاب العربي للطباعة والنشر
بدمشق

١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م

الأدب العربي في مصر
من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي

المكتبة العربية

تقدمها

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية



الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي

تأليف
محمود مصطفى

قدم له
الدكتور شوقي ضيف

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

(١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م)

المحتوي

صفحة

١٣	تقديم : بقلم الأستاذ الدكتور شوقي ضيف
١٧	مدخل : عصور تاريخ الأدب العربي بمصر
٢١	الفصل الأول : الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى ابتداء الدولة الأموية :
٢٣	— تمهيد :
٢٣	١ — العرب بمصر منذ الفتح الإسلامي إلى ابتداء الدولة الأموية
٢٤	٢ — وصف مقام للعربي بمصر إلى آخر الدولة الأموية
٢٦	٣ — توزيع العرب بأرض مصر
٢٨	٤ — انتشار العربية بمصر
٣٣	— مظاهر الأدب العربي بمصر في مدة الخلفاء الراشدين
٣٤	— أولاً : الخطابة :
٣٤	١ — خطبة عمرو بن العاص في جيشه
٣٦	٢ — خطبة قيس بن سعد لما ولي مصر
٣٦	٣ — خطبة محمد بن أبي بكر لما ولاه على أمر مصر
٣٧	— ثانياً : الكتابة :
٣٨	نماذج من الرسائل
٤١	الفصل الثاني : الأدب العربي في مصر في عهد الولاة الأمويين :
٤٣	— تمهيد :
٤٣	قدرة الولاة الأمويين بمصر على إنعاش الأدب
٤٥	— الشعراء :
٤٥	١ — جميل بن معمر العذري
٤٦	٢ — كثير عزة
٤٦	٣ — نصيب بن رباح
٤٨	٤ — أيمن بن خريم الأسدي
٤٩	٥ — عبد الله بن الحجاج

صفحة

- ٥١ - مظاهر الأدب بمصر أيام الولاة الأمويين :
- ٥٢ - نماذج من الأدب في هذه الفترة
- ٥٢ ١ - خطبة لمحمد بن أبي بكر
- ٥٢ ٢ - خطبة لعنتبة بن أبي سفيان
- ٥٣ ٣ - وصية عتبة المؤدب ولده
- ٥٣ ٤ - كتاب عبد العزيز بن مروان إلى أخيه الخليفة عبد الملك
- ٥٤ ٥ - شعر لابن أبي زمزومة الخشني
- ٥٤ ٦ - شعر لزهير بن قيس
- ٥٤ ٧ - وصف
- ٥٤ ٨ - رثاء عبد العزيز بن مروان وابنه
- ٥٥ ٩ - تشاؤم من عبد الله بن عبد الملك وإلى مصر
- ٥٥ ١٠ - وصف لصنم
- ٥٦ ١١ - افتتاح بكاسر المدى
- ٥٦ ١٢ - إحراق دار آل مروان المذهبة

الفصل الثالث : الأدب العربي في مصر في عهد الولاة العباسيين ٥٧

- ٥٩ - تمهيد :
- ٥٩ قدرة الولاة العباسيين بمصر على إنعاش الأدب
- ٦١ - الشعراء الطارئون على مصر في عهد الولاة العباسيين
- ٦١ ١ - ربيعة الرقي
- ٦٢ ٢ - دعبل الخزاعي
- ٦٥ ٣ - عوف بن محم الخزاعي
- ٦٧ ٤ - محمد بن يزيد الحصني
- ٦٨ ٥ - أبو نواس
- ٧٠ ٦ - أبو تمام الطائي
- ٧٣ - مظاهر الأدب بمصر أيام ولاة العباسيين
- ٧٥ أمثلة من أقوال الشعراء المصريين في حوادث السياسة ببلادهم
- ٧٥ ١ - موسى بن مصعب وثورة العرب ضده
- ٧٥ ٢ - إذعان أهل الخوف ليحيى بن معاذ
- ٧٥ ٣ - وفاء كوفاء السموه
- ٧٦ ٤ - سليمان بن غالب والسرى بن الحكم

صفحة

٥ -	رثاء ميمون بن السرى...	٧٦
٦ -	عبيد الله بن السرى وعبد الله بن طاهر...	٧٦
٧ -	خروج عبد الله بن السرى إلى بغداد...	٧٧
٨ -	مقتل عمر بن الوليد...	٧٧
الفصل الرابع : الحركة العلمية بمصر منذ الفتح الإسلامى إلى انتهاء عصر الولاة العباسيين		
٧٩	من سنة ٢٠ إلى سنة ٢٥٤ هـ	٧٩
٨١	تمهيد	٨١
٨٥	أولاً : علم القراءات...	٨٥
٨٦	ثانياً : علم الحديث...	٨٦
٨٧	ثالثاً : المذاهب الفقهية	٨٧
٨٧	١ - مذهب الإمام مالك ..	٨٧
٨٧	تعريف بأصحاب الإمام مالك :	٨٧
٨٨-٨٧	ابن القاسم - أشهب - ابن وهب - عبد الله بن عبد الحكم - الليث بن سعد .	٨٨-٨٧
٨٩	٢ - مذهب الإمام الشافعى	٨٩
٩٠	شئ من أخبار الشافعى ورحلته إلى مصر ..	٩٠
٩٢	تعريف ببعض أصحاب الإمام الشافعى	٩٢
الربيع بن سليمان المرادى - الربيع الجيزى - حرمة التجبى - يونس بن عبد الأعلى		
٩٥-٩٢	الصدقى - إسماعيل المزنى - يوسف البويطى - محمد بن عبد الله بن عبد الحكم	٩٥-٩٢
٩٦	٣ - مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان .	٩٦
٩٧	تعريف بالقاضى بكار بن قتيبة المصرى	٩٧
٩٨	٤ - مذهب الإمام أحمد بن حنبل ..	٩٨
٩٩	رابعاً : النحو والتاريخ	٩٩
١٠١	خامساً : العلوم العقلية والدينية	١٠١
الفصل الخامس : الأدب العربى فى مصر فى عصر الدولة الطولونية من سنة		
١٠٥	٢٥٤ إلى سنة ٢٩٢ هـ	١٠٥
١٠٧	نبد تاريخى عن الدولة الطولونية...	١٠٧
١١١	شأن الأدب فى الدولة الطولونية...	١١١
١١٩	مظاهر الشعر فى الدولة الطولونية	١١٩
١١٩	١ - رثاء الآثار	١١٩
١٢٠	٢ - الشعر السياسى .	١٢٠

صفحة	
١٢٠	نماذج من الشعر السياسي
١٢٤	٣ - وصف مجالس اللهو
١٢٦-١٢٥	دير القصير - دير مارحنا - دير هُنيا - دير طمويه
١٢٧	- تراجم بعض شعراء الدولة الطولونية
١٢٧	مبلغ شعراء هذه الدولة
١٢٩	١ - الجمل الأكبر
١٣٠	٢ - الناشي الأكبر
١٣٢	٣ - ابن الحداد
١٣٢	٤ - المرمي
١٣٣	- الكتابة الإنشائية في عهد الدولة الطولونية
١٣٦	أحمد بن يوسف المصري . كتاب المكافأة
١٤١	خواص الكتابة في العهد الطولوني
١٤٣	نماذج من كتابة الإنشاء في العهد الطولوني
١٤٣	١ - كتاب إلى خارج عن الطاعة
١٤٧	٢ - من رسائل ابن عبد كان الإخوانية
١٤٧	٣ - من كتاب المكافأة إلى أحمد بن طولون
١٥٠	- العلم في الدولة الطولونية
١٥٠	- أسباب تقدم العلم
١٥٢	- أنواع العلوم
١٥٢	١ - الحديث
١٥٢	٢ - الفقه
١٥٢	٣ - التاريخ
١٥٣	٤ - النحو
١٥٣	تعريف ببعض نجاة هذه الدولة
	ولاد - محمد بن حسان - أحمد بن جعفر الديتوري - محمد بن ولاد - الملطي -
	يموت بن المزروع - الأخفش الأصغر - محمد بن موسى الواسطي - محمد
	ابن إسحق .
١٥٥	ثالثاً : تراجع بعض العلماء
١٥٥	١ - أبو عبد الرحمن النسائي
١٥٦	٢ - منصور التميمي

صفحة

١٥٧	٣ - الطحاوى
	الفصل السادس : الأدب العربى فى مصر فى عهد الدولة الإخشيدية من سنة ٣٢٤ إلى
١٥٩	سنة ٣٥٧ هـ
١٦١	- نبذ تاريخى عن الدولة الإخشيدية
١٦٣	- أسباب انتعاش الأدب فى الدولة الإخشيدية... ..
١٦٨	- الشعر فى الدولة الإخشيدية
١٦٨	أولاً : المتنبى فى مصر
١٦٨	١ - المتنبى مع كافور
١٧١	٢ - المتنبى مع أبى شجاع فاتك
١٧٢	ثانياً : شعراء الدولة الإخشيدية
١٧٤	ثالثاً : تراجم بعض شعراء الدولة الإخشيدية... ..
١٧٤	١ - أحمد بن طباطبا
١٧٦	٢ - صالح بن مؤنس
١٧٩	٣ - الحسن بن على الأسدى
١٨٠	٤ - الحسن بن محمد الوزير الحافظ
١٨١	٥ - سعيد قاضى البقر
١٨١	٦ - صالح بن رشدين
١٨٣	٧ - ابن أبى النعمان
١٨٤	رابعاً : وصف الشعر فى الدولة الإخشيدية
١٨٧	خامساً : الشعراء الطارئون على مصر فى عهد الدولة الإخشيدية
١٩٠	- الكتابة فى عهد الدولة الإخشيدية
١٩١	- نماذج من الكتابة الإنشائية فى عهد الدولة الإخشيدية
١٩٤	- العلوم فى عهد الدولة الإخشيدية... ..
١٩٦	قطعة من كتاب «فضائل مصر المحروسة»... ..
١٩٧	تراجم بعض العلماء:
١٩٧	١ - ابن الحداد
١٩٨	٢ - عبد الرحمن الصرغى
١٩٨	٣ - ابن ولاد
١٩٩	٤ - المسعودى المؤرخ
٢٠٠	٥ - سيبويه المصرى

صفحة

الفصل السابع :	الأدب العربى فى مصر فى عهد الدولة الفاطمية من سنة ٣٥٨ إلى	
سنة ٥٦٦ هـ	...	٢٠٣
- نبذة تاريخية عن الدولة الفاطمية	...	٢٠٥
أسباب انتعاش الأدب فى عهد الدولة الفاطمية	...	٢٠٨
١ - غنى الدولة	...	٢٠٨
٢ - فصاحة الفاطميين وجودهم	...	٢١١
٣ - استقرار الأحوال	...	٢١٣
- شأن الشعر المستتر فى عهد الدولة الفاطمية	...	٢١٩
أولاً :	شعراء الدولة الفاطمية	٢٢٢
ثانياً :	تراجم بعض الشعراء فى الدولة الفاطمية	٢٢٥
١ - تميم بن مسعود	...	٢٢٥
٢ - أبو الرقعمق	...	٢٢٧
٣ - أبو الصلت أمية	...	٢٢٩
٤ - ظافر الحداد	...	٢٢٩
٥ - الرشيد بن الزبير	...	٢٣٠
٦ - ابن قلاقس	...	٢٣٢
ثالثاً :	وصف الشعر فى الدولة الفاطمية	٢٣٤
- الكتابة فى عهد الدولة الفاطمية	...	٢٣٧
رسوم كتاباتهم فى البدء والختام	...	٢٣٩
أغراض كتابية خاصة بمصر أو بالفاطميين وحدهم	...	٢٤٠
نماذج من الكتابة الإنشائية فى عهد الفاطميين	...	٢٤٢
١ - نسخة ما كتب به العزيز بالله الفاطمى إلى عامله بمصر	...	٢٤٢
٢ - نسخة كتاب بالبشارة بوفاء النيل	...	٢٤٤
٣ - نسخة كتاب بالبشارة بالسلامة فى الركوب	...	٢٤٥
موازنة بين الكتابة فى مصر وبغداد	...	٢٤٥
- العلوم فى عصر الدولة الفاطمية	...	٢٤٧
المكاتب	...	٢٤٩
١ - خزانة الكتب	...	٢٤٩
٢ - دار الحكمة	...	٢٥٠

صفحة	
٢٥١	أنواع العلوم أيام الدولة الفاطمية
٢٥٣	علماء الدولة الفاطمية
٢٥٣	١ - الأطباء
٢٥٤	٢ - المهندسون والمنجمون
٢٥٥	٣ - النحاة واللغويون والمؤرخون
٢٥٧	٤ - الفقهاء والمحدثون
٢٥٨	معاهد العلم أيام الفاطميين
	الفصل الثامن : الأدب العربي في مصر في عصر الدولة الأيوبية من سنة ٥٦٧ إلى
٢٦١	سنة ٦٤٨ هـ
٢٦٣	- نبذة تاريخية عن الدولة الأيوبية
٢٦٦	- أسباب انتعاش الأدب في عهد الدولة الأيوبية
٢٦٦	١ - رعاية الدولة الأيوبية بالأدب والعلم ، أمثلة من هذه العناية
٢٧٢	٢ - حدوث عهد المدارس بمصر
٢٧٤	- الشعر في عهد الدولة الأيوبية
٢٧٤	١ - بواعثه
٢٧٨	٢ - مجالس الشعراء
٢٨١	- شعراء الدولة الأيوبية بمصر
٢٨٤	- أصحاب الدواوين الباقية
٢٨٥	١ - ديوان ابن النبيه
٢٨٧	٢ - ديوان ابن الفارض
٢٩٠	٣ - ديوان ابن مطروح
٢٩١	٤ - ديوان بهاء الدين زهير
٢٩٣	٥ - ديوان القاضي الفاضل
٢٩٦	٦ - ديوان ابن الساعاتي «مقطعات النيل»
٢٩٩	٧ - ديوان ابن سناء الملك
٣٠٣	٨ - دار الطراز
٣٠٤	- الكتابة في عهد الدولة الأيوبية
٣٠٦	الكتابة الإغوانية
٣٠٧	كتابة الإنشاء

صفحة

٣٠٧	...	١ - فخر الدولة الأسواني
٣٠٧	...	٢ - ابن يرى .
٣٠٧	...	٣ - القاضي الفاضل
٣٠٨	...	٤ - عماد الدين الأصبهاني .
٣٠٨	...	٥ - ابن عماني .
٣٠٨	...	٦ - ابن سناء الملك .
٣٠٨	...	٧ - ابن بصافة
٣٠٨	...	٨ - بهاء الدين زهير
٣٠٩	...	نماذج من كتابة الإنشاء
٣١٣	...	طريقة القاضي الفاضل
٣١٥	...	- العلوم في عهد الدولة الأيوبية
٣١٧	...	علماء الدولة الأيوبية .
٣٢٢	...	تراجم بعض دلماء الدولة الأيوبية
٣٢٢	...	١ - الخبوشاني .
٣٢٣	...	٢ - الشاطي - إمام القراء
٣٢٤	...	٣ - الحسن الخطير النعاني .
٣٢٥	...	٤ - ابن الحاجب
٣٢٦	...	٥ - شرف الدين النحوي

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور شوقي ضيف
أستاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة

هذه دراسة جادة خصبة للأدب العربي وتاريخه في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي نهض بها المرحوم الأستاذ العالم الجليل محمود مصطفى على بصيرة وهدى . وليس البحث في الأدب العربي المصرى في تلك الحقب شيئا هينا يسيرا ، بل هو عمل مرهق عسير ، لأن كثيرا من معالمه يحفه الغموض وكثيرا من آثاره لم ينشر نشرًا علميا دقيقا ، ولا تزال نصوص وفيرة منه مخطوطة لم تمتد إليها أيدي المحققين لتزيل منها الصعاب التي تفسد قراءتها والانتفاع بها على الوجه الصحيح .

وقد أقدم المرحوم الأستاذ محمود مصطفى على دراسة هذا الأدب في عصوره الأولى ، غير حافل بما سيكلفه ذلك من عناء ويحشمه من مشقة ، بل لعله لذلك استحب العمل فيه ، حتى يظهره لقراءه كأوضح ما يكون ، متخذًا كل ما استطاع من أدوات البحث والدرس ، لاندفعه عن غايته عقبة مهما تكن شديدة العسر والالتواء .

وأول ما يظهرنا عليه في كتابه فتح العرب لمصر ونزولهم بها وتوزع قبائلهم فيها وامتزاجهم بأهلها في السكنى مما هيأ من جهة لدخول كلمات قبطية في العربية ومن جهة ثانية لتعريب مصر وانتشار الفصحى بها . وأخذ بعد ذلك يصور مظاهر الأدب العربي فيها لعهد الخلفاء الراشدين ثم لعهد الأمويين متتبعا من نزل بها من شعراء الحجاز ونجد والعراق وما نظمه فصحاؤها من أشعار وما ديجّه ولاتها من خطب ورسائل . وتحدث عن إنعاش الولاة العباسيين للحركة الأدبية بها ومن ألم بها من شعراء العراق والشام . وجلّى حياتها العلمية المبكرة ، سواء ما اتصل منها بالعلوم الإسلامية أو اللغوية أو الطبية وغير الطبية .

ومضى يبسط القول في عصر الدولة الطولونية ومدى نهضة الشعر به مترجما لغير شاعر ، وتحدث عن نهضة النثر الديوانى وغير الديوانى وعن الآماد العلمية التي حققتها

مصر حينئذ في مختلف فروع الثقافة العربية الإسلامية . وخرج إلى عصر الدولة الإخشيدية ، فألقى عليه من الأضواء ما كشفه خير كشف سواء فيما يتعلق بشعراء مصر المستقرين بها أو فيما يتعلق بمن طرءوا عليها من الشعراء مثل المتنبي وغير المتنبي ، أو فيما يتعلق بكتابها وآثارهم المختلفة ، أو فيما يتعلق بعلمائها النابهين .

وتحول إلى عصر الدولة الفاطمية ، فصور ازدهار الحياة الأدبية فيه والعوامل التي أعدت لهذا الازدهار ونشاط الشعر بمصر وتكاثر الشعراء بها حينئذ ، وترجم لطائفة منهم ترجمات جيدة . وتحدث عن عناية الفاطميين بديوان الإنشاء ورسوم الكتابة الديوانية لعهدهم وتنوع أغراضها مقارنا بينها وبين الكتابة الديوانية في بغداد مقارنات طريفة . ودرس الحياة العلمية لهذا العصر درساً مفصلاً تحدث فيه عن خزائن الكتب وجمع الفاطميين لكتوبها النفيسة ، وعرض في دقة العلماء المختلفين من أطباء ومهندسين ومنجمين ونحاة ولغويين ومؤرخين وفقهاء ومحدثين كما عرض معاهد العلم ودوره .

وانتقل إلى العصر الأيوبي ، وأخذ يتحدث عن رعاية الأيوبيين للآداب والعلوم وتشجيعهم للمدارس والمؤسسات وإنفاقهم الأموال الطائلة على الحركتين العلمية والأدبية ، مما أتاح لهما نهضة عظيمة وأفاض في الكلام عن ازدهار الشعر حينئذ ، وترجم لأصحاب الدواوين المطبوعة أعهد وأتبعهم بطائفة من أصحاب الدواوين التي لم تطبع في أيامه ، راسماً خصائصهم الفنية جميعاً . وعرض في وضوح وجلاء نشاط الكتابة في عهد الأيوبيين ، سواء الكتابة الإخوانية أو الديوانية ، وصور طريقة القاضي الفاضل الإنشائية ، وفصل الحديث عن الحركة العلمية مترجماً لنفر من العلماء البارزين وبذلك كله استقصى المرحوم الأستاذ محمود مصطفى حقائق الأدب العربي بمصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي استقصاء بذل فيه كل ما استطاع من جهد وكل ما أمكنه من دقة ، جزاه الله عن أمته وأعماله العلمية خير الجزاء .

الأدب العربي في عصره
من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي

مَدْحِل

عصور تاريخ الأدب العربي بمصر

مصر في حياتها السياسية ظلت منذ الفتح الإسلامي إلى اليوم خاضعة لأحوال ومؤثرات غير ماخضعت له الأمة العربية في غيرها من الأقطار ، فتبع ذلك أن يكون لتاريخ اللغة العربية بها عصور ثلاث هذه المؤثرات السياسية وتختلف بها أحوالها من : ضعف وقوة ، وانحطاط وارتقاء ، وخمود وانتعاش ، على حسب تقلب السياسة بها واتجاه مجراها فيها ، وليس ينكر أحدا ما للسياسة من تأثير واضح في اللغة وآدابها .

ظلت مصر من بعد الفتح الإسلامي سنة ٢٠ هـ إلى قيام الدولة الطولونية بها سنة ٢٥٤ هـ ولاية تابعة للدولة يقوم بالحكم فيها وال يعين تعييناً ويتوقع العزل لو شاية تصل إلى الخليفة ، أو تخضع رغبة منه في التبديل والتغيير للولاة ، حتى لا ترسخ أقدامهم في ولاياتهم فيفكروا في الاستبداد بها ، والوالى مع كل ذلك لا يتصرف فيما يتولاه إلا بأمر هذا الغائب عنه ، فلا رأى له غالباً في التدبير الذى يحضره إلا بالرأى يأتية في كتاب الخليفة أو الوزير منقولاً على البريد المتردد بين عواصم الملك وولايات الدولة ، وتلك حال لا تسمح لذى الأمر أن يقضى بما تمليه الحوادث وتقتضيه المناسبات . ثم هو مغلول اليد في المال الذى بين يديه محاسب على درهمه قبل ديناره ، مطالب بأن يرسل ذلك إلى خزنة الخليفة يقضى به حاجات نفسه قبل حاجات الناس ويسد به مطامع قواده وجنده قبل أن يصلح به أحوال البلاد التى انتزع ذلك المال من أهلها انتزاعاً .

هذه الحال تأبى على البلاد أن تتقدم في مرافقها الحيوية كما تأبى عليها أن تنبعث همم رجالها في أدب أو علم خصوصاً الدينوى منه ، بل إن كل نابغ في شىء من هذا تضيق به بلاده فيلجأ إلى عاصمة الخلافة حيث تتجمع سيول الخراج والجبايات وتنطلق فيها إرادة الخليفة وحده فيبذلها عن سخاء : جائزة لشاعر ، أو مكافأة لعالم ، أو أجرأ لطبيب ، أو ثمناً لكتاب مترجم ، أو نحو ذلك .

كانت الأحوال متقاربة الشبه بين حكم الولاة من بنى أمية وبنى العباس ، ولم تشأ

الأيام إلا أن تتعادل المؤثرات في العهدين إلا في القليل من الأمور ، فافتضى ذلك أن تكون هذه المدة كلها في مصر عصرًا واحدًا نسميه عصر الولاة ويكون هو العصر الأول من عصور اللغة والعلم بهذه البلاد .

ثم نشأت حالة جديدة لا عهد لمصر بها ، وتلك هي أن يستقل بالأمر في مصر عاهل ينفذ عن كاهليه نير العبودية المطلقة للخليفة ، وتسمو همته الى ما لم تسم إليه همة أمير قبله بمصر ، فينشئ ثاني مسجد بها ويبني أفخم القصور لنفسه ويخطط لجنده وأتباعه مدينة عظيمة مساحتها ميل في ميل (١) ثم يكون الأمر في مصر من بعده لأبنائه وورثة لا ينازعهم في ذلك منازع ، فيعمل ابنه مثل عمل أبيه في العمارة والتجديد وتكثيف الجند والإغراب في معداتهم ، وترتقى همته فيصاهر الخليفة بتزويجه ابنته ، بل يتزلف إليه هؤلاء الخلفاء فيمنحه بعضهم ولاية مصر ثلاثين عاماً له ولأبنائه .

في عهد هذه الدولة صار لمصر شأن غير شأنها الأول : زادت عمارتها فزادت جبايتها فأرسلوا الخليفة ببعض المال وانطلقت أيديهم في سائرته وهو كثير فكان منهم ما سيمر بك من بلذخ وسخاء وترفيه على الناس ومناقسة لدار الخلافة في كل مظهر من مظاهر العظمة .

فهذا شأن جديد في البلاد استلزم أن ينشأ فيها لتاريخ اللغة عصر جديد شجعت فيه الآداب ، وارتفع للشعر من أهل البلاد صوت ، وصار فيها للكتابة شأن حتى حسدت بغداد مصر على بعض كتابها (٢) .

فهذا هو العصر الثاني الذي حكم فيه آل طولون ، ودام من سنة ٢٥٤ هـ إلى سنة ٢٩٣ هـ ويسمى عصر الدولة الطولونية .

ثم يعود عهد الولاة مرة ثانية في الفترة من سنة ٢٩٣ هـ إلى ٣٢٤ هـ فيقف تقدم البلاد ويتبعه وقوف العلوم والآداب ثم تقوم على أثره دولة تشبه الدولة الطولونية في الحكم ولكنها لا تكون لها سيطرتها ولا سطوتها ولا همتها في التجديد والأحداث ولا مقدار بلدها في سبيل العلم والآداب ، ولكنها على كل حال دولة لها شأنها قد حضر في أيامها إلى مصر أكبر شاعر في عصره وهو المتنبي طامعاً في جود المسيطر على الأمر

(١) كانت القطائع ميلا في ميل : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ١٧ .

فيها ، فراجت للأدب سوق ، وكان لمجالسه انتعاش وتميزت أيام هذه الدولة عما قبلها وما بعدها فصيح أن نجعل عهدها عصرًا ثالثًا نسميه عصر الدولة الإخشيدية .

ثم تيجىء دولة قوية كان لها قبل مصر ملك وجيوش جرارة وغنى واسع فتضيف مصر إلى رقعتها وتعظم بها سطوتها وهي الدولة الفاطمية التي نافست الخلافة العباسية ببغداد منافسة حقة ، بل عارضتها معارضة شديدة بل دخلت جيوشها ببغداد نفسها فخطب على منابرهم للخلفاء الفاطميين أربعون خطبة وقد كان شأن هذه الدولة عجباً في تشجيع العلماء والأدباء مما سنّفصله في الكلام عنها ، فكان عصرها جديراً بحق أن يكون عصرًا جديداً لأدب اللغة دام قرنين ونيفاً من سنة ٣٥٨ هـ إلى سنة ٥٦٧ هـ وهو العصر الرابع الذي نسميه عصر الدولة الفاطمية .

ثم قامت على أثرها دولة أخرى كان لها شأنها في نشر العدالة بين الناس وصيانة البلاد من عدوان المعتدين وخدمتها للدين وعنايتها بأهلها ، فأحبها الناس حبا جما وتبارى الشعراء في مدح رجالها وظهرت للأدب في عصرها مزايا جعلته جديراً بأن يكون عصرًا جديداً . وقد دام من سنة ٥٦٧ هـ إلى سنة ٦٤٨ هـ وهو العصر الخامس المسمى عصر الدولة الأيوبية .

وعلى هذا النمط كان العصر الذي يليه وحكم البلاد فيه أولئك المماليك الذين لا يحسنون لغة أهلها ، ولكنهم أخلصوا الاخلاص كله لسيادة البلاد ولدينها وعلومها وإن كان قد قصروا في حق الآداب فلم يشجعوها ، فكان ذلك عصرًا جديداً وهو العصر السادس الذي نسميه عصر دولتي المماليك ، وقد دام من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ .

ثم كان عصر الحكم العثماني الذي صارت البلاد فيه ولاية ، فعادت إلى شأنها الأول بعد أن جردها هؤلاء الفاتحون من خيرة رجالها في العلم والصناعة ، وولوا عليها من حقروا لغة البلاد فلم يحاولوا تعلمها ولا تعرفوا عاميتها ، فبعدت الهوة بين الحاكم والمحكوم . وهذا هو العصر السابع الذي نسميه عصر الحكم العثماني وقد دام من سنة ٩٢٣ هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ .

الفصل الأول

الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى ابتداء الدولة الأموية

- تمهيد
- الخطابة
- الكتابة

الأدب العربي في مصر

من الفتح الإسلامي إلى ابتداء الدولة الأموية

تمهيد

١ - العرب بمصر منذ الفتح الإسلامي إلى ابتداء الدولة الأموية :

لا بد لمن يبحث في الأدب العربي في هذه الديار ويتتبع خطاه منذ الفتح الإسلامي ، أن يمهّد لذلك ببسط الحالة التي كان عليها العرب في تلك البلاد : من حيث العدد ، وطريقة الإقامة ، وتمكن السلطان ، وما كانت عليه البلاد من يسر وعسر ، وما نال الأدب فيها من عناية أو إهمال ، فإن كل ذلك أسباب تهيئ للحكم على اللغة وتعرف أحوالها : من اتساع وانقباض ، ونشاط أو كسل ، ورواج أو كساد .

نعرف أن العرب فتحوا مصر على يد عمرو بن العاص في أيام الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ من الهجرة ، وأنه قدم إليها في أربعة آلاف مقاتل كانوا جميعاً كما يقول المؤرخون من قبيلة « عك بن عدنان » (١) ، وأنه بعد دخوله مصر أمده الخليفة بأربعة آلاف آخرين (٢) ثم بغيرهم وغيرهم حتى كان جميع من قدم إلى مصر في فترة الفتح ستة عشر ألفاً ، مات منهم كثير أيام الفتح .

ذكر يزيد بن حبيب أن عدد الجيش الذي كان مع عمرو خمسة عشر ألفاً وخمسمائة ، وذكر عبد الرحمن بن سعيد أن الذين جرت رماحهم في الحصن من المسلمين كانوا اثني عشر ألفاً وثلثمائة بعد من أصيب منهم في الحصار (٣) .

فتح العرب حصن بابلينون ثم قصصوا إلى الإسكندرية ففتحوها ثم عادوا بعد ذلك إلى حيث فسطاط قائدهم وتجمعوا حوله . قال : انضمت القبائل بعضها إلى بعض

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ .

(٢) المرجع ذاته ص ٦٤ .

(٣) المرجع ذاته ص ٧٨ .

وتنافسوا في المواضع ، فولى عمرو على الخطط معاوية بن خديج التجيبي ، وشريك ابن سمي القطيفي من مراد ، وعمرو بن مخزوم الخولاني وجبريل بن ناشرة المعافري ، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك في سنة إحدى وعشرين هجرية (١)

هذا ما كان من أمر جمهور العرب ، وقد بقي منهم بالإسكندرية الزبير بن العوام ومن معه ولم يكن بها خطط ، وإنما كانت أخائند ، من أخذ منزلا نزل فيه هو وبنو أبيه .

واختطت همدان ومن والاهما الجليزة لأنها استجبتها وأرادها عمرو على النزول بجواره في القسطاط فأبى فبنى لها حصناً يقيها الأعداء كما أشار عليه أمير المؤمنين عمر (٢) ، وكان لكل بطن منهم خطة وبين كل خطة والتي تليها فضاء ، فلما قدمت الأمداد في زمن عثمان ثم في زمن معاوية ومن بعده وكثر الناس ووسع كل قوم لبني أبيهم كثر البنيان والتأمت الخطط .

٢ - وصف مقام العرب بمصر إلى آخر الدولة الأموية :

كان عمرو بن العاص يجمع الجند حوله في القسطاط ، فإذا خرجوا لقتال عادوا إلى خططهم ، حتى إذا حضر أوان الارتباع سمح لهم عمرو بالانصراف إلى المرافق ووصاهم بجيادهم قائلا : لا أعلمن ما جاء رجل قد أسمن نفسه وأهزل فرسه ، فإذا حمض اللبن وكثر الذباب وقوى العود فارجعوا إلى قير وانكم . وكان يوصيهم خيرا بمن يبرون بهم من أهل البلاد فيقول : واستوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيرا ، ويروى لهم حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم منهم صبها وذمة ، وكان يقول لهم واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى دياركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة (٣) .

هذه هي السياسة التي سار عليها عمرو بمصر : يجمع القبائل حوله طول العام حتى

(١) المرجع ذاته ص ٧٩ .

(٢) المرجع ذاته ص ٨١ .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٩٢ .

إذا حل الربيع أباح لهم الإرتباع وشرط عليهم العناية بنخيلهم ووصاهم بحسن الجوار للأقباط في أريافهم ، حتى إذا عادوا إليه أقاموا إلى الربيع القادم متأهبين للحرب وصد الغارة ، وقد حرم عليهم عمرو اتخاذ المزارع بأمر عمر بن الخطاب الذي أخرج مناديه إلى أمراء الأجناد يأمرهم أن يتقدموا إلى الرعية بأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل فلا يزرعون .

وقد أتى شريك بن سمي القطيفي إلى عمرو بن العاص يستأذنه في الزرع فقال له عمرو : ما أقدر على ذلك ، فزرع شريك من غير إذن عمرو فشكاه إلى عمر فاستقدمه إليه ، ولكنه تاب على يديه فعفا عنه (١) .

وما اتخذ عمر هذه السياسة ولا وصى بها عماله إلا ليجعل العرب في رباط دائم ليكونوا على استعداد لعدوهم .

ولا بد أن نؤمن بأن هذا العدد الذي دخل مصر في أول فتحها قد زاد بالتوالي وتتابع الهجرة التي كان من أسبابها حلول القحط في بلاد العرب في بعض الأعوام ، وقد كانت مصر والشام ملجأ العرب حين حلوله حتى في أيام الجاهلية ، وكانوا يسمون هذه الأعوام أعوام الجلاء .

ولما فتحت مصر وشاع خبر خصبتها كانت مقصد كل طامع في الرخاء واليسر ، يقدم إليها آنسا بمن فيها من بنى أعمامه وأخواله من الفاتحين .

وقد استلزمت سياسة العصبية القبلية أن يستكر الوالى حوله من أهل قبيلته حيث يكون ليكونوا ظهوره وعونه على أعدائه من القبائل الأخرى ، وكذلك كان الخلفاء يحرسون على أن يكون لهم بكل مصر جمهور من أنصارهم ليؤمنوا الثورة على ولايتهم تخلع طاعتهم في تلك الأمصار .

ومن ذلك أن هشام بن عبد الملك كان يقرب قبيلة العدنانية لأنهم نصره وأبدوا سياسته ولم يكن منهم بمصر إلا بعض البطون فأمر بإلحاق ثلاثة آلاف منهم بمصر وتحويل ديوانهم إليها (٢) ، فأنزّلوا بالحوف الشرقى (الشرقية والدقهلية) ، أمرهم بالزرع ثم تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا .

(١) المرجع ذاته ج ١ ص ٩٢ .

(٢) خطط المقرئى ج ١ ص ٨ .

أن وطبيعي سياسة عمر بن الخطاب حيال جند العرب لاستمرار نافذة محترمة ، فإن للأيام والسياسات تغيراً لا يثبت معه شيء ، فهؤلاء العرب الذين جعلهم عمر وعمره في الرباط قد استكانوا واستناموا إلى الراحة وسكنوا الدور واتخذوا السراري من بنات الأقباط والروم كما ألفوا الريف لا يربعمونه . وقد رأيت أن هشاماً أمر قيساً أن تزور وقد كان هذا محرماً على أيام عمر .

ولكن الذي ينبغي ألا ننساه أن العرب بقوا إلى آخر الدولة الأموية قلة إلى جانب الأمة المصرية منازين وحدهم لموضع العصبية فيهم ولأنفسهم من الاختلاط ، لذلك بقي أهل الريف من القبط يتكلمون بالقبطية ولا يعتنقون الإسلام حتى أظلت القوم الدولة العباسية (١) .

٣ - توزيع العرب بأرض مصر :

من الفائدة للباحث في اللهجات المختلفة التي نسمعها الآن بمصر وتمت إلى العربية بسبب أن يتوسع في معرفة القبائل التي نزلت بمصر منذ الفتح الإسلامي إلى أن انقطعت الرحلة واستقر كل قوم في أماكنهم من البلاد المفتوحة .

وفائدة هذا التوسع أن الباحث في تلك اللهجات يستطيع أن ينسب ما يسمعه منها إلى القبائل التي أقامت جمهرتها حيث تسمع الآن تلك اللهجات ، فبدلاً مما يمكنه أن يفصل القول في لهجات العرب ويحكم لكل قبيلة بما كانت تمتاز به من غيرها . وقد فات المتقدمين التوسع في هذا البحث فلم يدونه إلا نتفا قليلة .

ولقد حاول المرحوم محمد حنفى ناصف تلك المحاولة في كتابه «مميزات لغة العرب» وهو البحث الذي تقدم به إلى مؤتمر المستشرقين في فيينا سنة ١٨٨٦ م فإنه رحمه الله حكم بأنه لا بد من صلة بين ما تسمعه الآن من لهجات السكان بجهة من الجهات بمصر وبين لهجة العرب الذين نزلوا تلك الجهة وكثروا بها ، وهو حكم صادق لأن القوم إذا اسقروا بمكان وكانوا كثرة غالبية فيه بقيت لغتهم ولهجتهم ماثلة على الأيام إن دام لهم الاستقرار وضمنت لهم الغلبة في عددهم على الطائفتين عليهما في موطنهم . على أنه

(١) محاضرات المرحوم الخضرى عن الدولة العباسية ص ٤٤ .

(٢) مميزات لغات العرب ص ١٣ ، ص ١٤ .

مهما طرأت عليهم الطوارئ فلا بد من بقاء مسحة من لغتهم ماثلة في اللغة التي انتهت إليها التغلب على ذلك الإقليم .

ويحسن أن نستطرد إلى بعض ما استنبطه حنفى ناصف من ذلك قال :

(١) حمير تبدل لام التعريف ميا فيقولون (طاب امهواء وصفا ايجو) أى طاب الهواء وصفا الجوى ، وقد نطق رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغتهم فقال مخاطب بعض الحميريين : (ليس امبر امصبيام فى امسفر) . ويسمى هذا الابدال طمطمانيه حمير . ويمكن أن يخرج عليه قول العوام فى الديار المصرية كلها إلا أهل مديرية الشرقية (امبارح) يعنون البارحة وهى أقرب ليلة مضت وأهل الشرقية يقولون البارح كما يقول جمهور العرب من غير قلب . (١)

(٢) من تميم من يقلب ألف المقصور همزة فى الوقف فيقول فى الهدى الهدأ ، وعلى ذلك قول عوام المصريين فى لا (لأ) (٢)

(٣) ومن لغة طيئ القطعة وهى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون : (يا أبا الحك) يريدون يا أبا الحكم ويقولون لم يسم يريدون لم يسمع . قال والقطعة هى لغة كثير من أهل البلاد المصرية الآن كالمحلة وما حوها وجزيرة بنى نصر وأبيار وكثير من مدبريتى الجيزة وبنى سويف ، ويقولون النهار طل أى طلع والنور ظهر أى ظهر (٣) وهلم جرا .

لو أن المؤرخين توسعوا توسعا تاما فى بيان منازل القبائل النازحة إلى مصر بعد الفتح ، ففصلوا القول فى ذلك وعنوا دائما ببيان عددهم وتتبعوا ما كان من استقرارهم بمكانهم الأول ، ونزوحهم عنه ، ثم لم يكن قد كثر من هؤلاء العرب تغيير لمنازلهم الأولى لكان حكمنا على ما نسمع من اللهجات اليوم حكما صادقا على لهجات تلك القبائل فى عقر بلادها ، ولكن ذلك أمل لا يتحقق للباحث كاملا كما يريد .

وسندكر لك بعض ما ورد فى كتب التاريخ عن نزوح القبائل العربية إلى مصر

(١) ميزات لغات العرب ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٣١ .

ومواطنها لتلك البلاد ففي ذلك ما يؤنسك في الحكم على ما نسمع من لهجات ونسبتها إلى أهلها من القبائل في جزيرة العرب .

قالوا : من القبائل التي اختطت بالفسطاط وأقامت بها مهرة وتجبب ونخم وغسان وغافق ومن بني غافق بطن يعرفون ببني قراقة سكنوا سفح المقطم ثم تركوا أماكنهم وتفرقوا في البلاد المصرية .

وبعد أن تم فتح مصر سير عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبيلة بلى من قضاة إلى مصر فانتشروا في البلاد ولا سيما حول اخميم ثم تصالحت مع جبهة على أن يكون لها من الشرق من عقبة إلى عيذاب (القصير) .

وفي إمارة الوليد بن رفاعه على مصر سنة ١٠٩ نزل بنو سليم (وهم من قيس) بأرض مصر وكانوا ثلاثة آلاف فأنزلهم الوليد الحوف الشرقى . وسكن بنو عقبة وهم من جذام ما بين أيله (١) والحوف ، كما سكن قوم من جذام أيضا ومن نخم بالإسكندرية .

وجاء في كتاب (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الإعراب) للمقريزي :

وفي بلاد الاشمونيين قريش ، وفي معظم بلاد بهنسة لواته ، ومنهم طوائف بالجزيرة والمنوفية ، وبلاد الفيوم بنو كلاب .

وفي كتاب « قلائد الجمان في التعريف بعرب الزمان » للقلقشندي : وفي بلاد الصعيد (بمنفلوط) قوم من كلب . وبنو كنانة بالدقهلية والمرتاحية .

وبه أيضا : ومن فزاره (وهم من قيس عيلان) بنو مازن ومساكنهم بلاد القليوبية وأولاد عمهم بنو بدر ومن هؤلاء أسرة القلقشندي . وبنو هلال (من عامر بن صعصعة من قيس عيلان) لهم بلاد أسوان من الديار المصرية . وكانوا أهل الصعيد كله إلى عيذاب .

هذه صورة من كلام القوم عن القبائل التي نزلت بمصر وقد تجلى فيها ما قلناه من عدم استقرار القوم بالأماكن التي يتزلونها أولا كما بان عدم الدقة التي كانت تستوجب ذكر الغالب والمغلوب من القبائل التي اشتركت في جهة واحدة .

٤ — انتشار العربية بمصر (١) :

كانت اللغة اليونانية منتشرة بمصر من أيام البطالسة وظلت أيام حكم الرومان حتى

(١) هذا الفصل ملخص عن كتاب الأستاذ محمد كامل حسين مع زيادات .

إن الوالى الرومانى كان يصدر منشوراته إلى المصريين باليونانية ، وبلغ من ذبوع تلك اللغة أن كانت بعض صلوات الكنائس المصرية ترتل بها ، على حين كان مرتلوها إنما يتكلمون فيما بينهم بالقبطية . وكان من أثر اليونانية أن كتبت القبطية بحروف يونانية كما امتلأت بالدخيل من ألفاظ تلك اللغة . ولكن الغلبة لليونانية إنما كانت بالأمصار حيث تعلم اليونانية بالمدارس ، أما فى الأرياف وبلاد الصعيد خاصة فكانت الغلبة للقبطية .

وفى القرن السادس الميلادى لما ازداد شعور المصريين بالاضطهاد وكرهوا كل ما هو أجنبى حاربوا اللغة اليونانية فى الكنائس وأحلوا القبطية محلها فى الأدعية والصلوات فضعف شأن اليونانية ولكن ذلك لم يمنع أن ظلت اليونانية مستعملة بمصر إلى ما بعد الفتح الإسلامى ، فقد حفظت أوراق من البردى يرجع تاريخها إلى عهد الوليد بن عبد الملك ، كتبت باليونانية والعربية ، وهى وثائق من الوالى نفسه ، وأخرى كتبت باليونانية وحدها . ولا يوجد من الأوراق ما كتب بالقبطية فمما ذكره مؤرخو العرب من كون الدواوين بمصر كانت بالقبطية ثم نسخت بالعربية لا يؤيده شىء من الآثار المحفوظة ، وقد يكون الحاصل للعرب على هذا الزعم أنهم لما رأوا عمال الدواوين بمصر من الأقباط ظنوا أن عملهم فيها كان بالقبطية ، ولكن يبعد هذا الزعم ما عرفته أنفا من عناية المصريين باليونانية حتى إنهم كانوا يتعلمونها بالمدارس ، وحتى كانت هى اللغة الرسمية فى حكم الرومان والعرب من بعدهم .

أما النص العربى الذى كان مصدر هذا الزعم فهو ما قاله الكندى فى كتابه «الولاية والقضاة» قال : (.. حتى كانت ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عبد الله اشناس عن الدواوين وجعل عليها ابن يربوع الغزاوى من أهل حمص وذلك سنة سبع وثمانين هجرية » (١)

★ ★ ★

على أثر الفتح الإسلامى لمصر بدأت العربية تراحم القبطية واليونانية ، وكان للمجاورة بين العرب والأقباط أثر فى ذلك لحاجة هؤلاء إلى مخاطبة جيرانهم فى كل ما يتصل فيه المحكوم بحاكمه ، وكذلك كان لتبديل لغة الدواوين وجعلها بالعربية أثر

آخر ، وكان من نتائج ذلك أن القسيس بنيامين أجاد تعلم العربية حتى إنه شرح بها الإنجيل للإصبع بن عبد العزيز بن مروان . وكان كل من أسلم من القبط إما اقتناعا بفضل الإسلام أو هربا من الجزية مضطرا أن يتعلم العربية ليقرأ بها القرآن وحديث رسول الله وليفهم الدين من أفواه رجاله . وما زالت العربية تراحم القبطية حتى ان القديس شنودة كتب مؤلفاته بالقبطية ثم اضطر أن يترجمها إلى العربية ليتسنى للأقباط أن يقرأوها .

وقد ذكروا عن مراسيم الكنيسة القبطية أنها كانت قديما تكتب باليونانية وتشرح للناس بالقبطية ثم صارت تكتب بالقبطية . وتشرح بالعربية ، وما زال الزمن يتقدم والعربية تنتشر حتى كان المصرى المثقف فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) يفتخر بأنه يعرف القبطية . وحدث أن الأقباط رأوا لغتهم تتقهقر أمام العربية فأرادوا أن يعملوا على إحيائها فلم تنجح حركتهم وكان ذلك فى القرن الحادى عشر الميلادى لأن العربية كانت قد ثبتت حتى لا يستطيع زحزحتها ثم بلغ من جهل الأقباط للغتهم أن المسعودى حين زار مصر سأل الأقباط عن معنى كلمة فرعون فلم يظفر بجواب وقال فى ذلك فى الجزء الأول من كتابه مروج الذهب ص ٢١١ . « وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر من أهل الخبرة عن تفسير «فرعون» فلم يجبروني عن معنى ذلك » .

وأخيرا كانت القبطية لا تستعمل إلا فى الأديرة وعلى ألسنة النصارى من أهل الصعيد، كما ذكروا أن قرية «درنكة» بجوار أسيوط يعرف أهلها من النصارى اللغة القبطية ويتكلم بها صغيرهم وكبيرهم ويفسرونها بالعربية .

وبحكم التمازج بين العنصرين القبطى والعربى تكلم بعض العرب بالقبطية . فقد قيل إن البطريق توما لما حوكم سنة ٨٥٠ م خاطب أهل ملته بالقبطية بحضور جماعة من العرب ففهموا كلامه وأنهوه إلى القاضى .

وكان من نتيجة التمازج أيضا أن وجدنا كلمات فى اللغة التى يتخاطب بها المصريون وهى قبطية الأصل نقلت إليك هنا بعضها من مصدرين لم نطلع على غيرهما ولعله لا يوجد بأيدى الناس إلا هما .

(١) فأولها محاضرة ألقاها الدكتور جورجى أصبحى ألقاها بقاعة يورت التذكارية من الجامعة الأمريكية وقد ذكر فيها هذه الألفاظ :

ميس : ما يوضع أمام الكرة فإذا اصطدمت به عد اللاعب غالبا .
سنو : اثنين . كحكو % (ينحنى) وكلاهما اصطلاح فى لعب الكرة أيضا
ماجور : وعاء

بشكور : ما يجذب به الخبز من القرن .

عا : زجر للحمار وحث له على السير .

وهروط : معصرة سميت بها بلدة كان بها معصرة .

سندبيس : اسم بلدة من بيسا اسم اله . ومعناها أسس بيا .

طيا : هيكل طوم .

طيحا : هيكل الأرض .

صفت : اسم بلدة من اسم الإله (سبت)

(٢) وثانيهما : كتاب مجموع الألفاظ القبطية المتداولة باللهجة العربية العامة ، تأليف

اقلديوس ي لبيب . والجزء الذى اطلعنا عليه من هذا الكتاب هو الرسالة الأولى

وبها ١٥٥ كلمة . منها ما يلى :

حالم : جبن (جبنه)

ياما : كثير . أخ — أه : كلمة توجع تقول أخ ياذا أو آه يانا .

ها : نعم . يقول الأب أنت يابنت تقول البت : هايا بوى أى نعم

باش : لان . بشبش : لين وطرى

بعيع : عفريت مصرى استعمل واتخذ لتخويف الأولاد .

بك : أسقط ومنه ضربه حتى بك الدم من عينه .

أردب المكيال المعروف وأصله أرطبة وكذلك ويه وهى سدس الاردب .

تليس : زكية .

طياب : ريح الشمال . مريس : ريح الجنوب

نوى : حذاء : يقول الناس آه يابن النوى .

با : لما يقولون خذ ده با ده .

يم — يام : بحر

كوش : استولى ومنه كوش على كل حاجة .

كانى ، ومانى : سمن ، عسل تفسران فى كل موضع بمعنى (بكل سهولة)

ليلى : فرح وانشرح ومنه قولهم فى الغناء ليلى ياعينى

يقف : جلد النعجة أو أى حيوان ومنه قولهم روح يا بقف وهى تقال للاحتقار الزائد .

تارالى : قليل الفهم أو مخرف ومنه قولهم عقله تارالى .

سهراية : حرارة الشمس واصلمها شاهرى

شأشأ : طلع ومنه قولهم النور شأشأ .

حاتا باتا : لا شىء عندى وحاتا معناها جلد ، وباتا عظم أى جلدى على عظمى

حتتك بتتك : أخذ كل شىء والأصل أكل الجلد والعظم .

هبوش : لعبة غير محسوبة .

هوب هوب يازرع النوب : معناها الشغل الشغل يازرع الذهب أى الذى يكسب

الذهب .

جأى : النجدة من قولهم يا أولاد جأى فهى كلمة استغاثة .

والذى تلاحظه أنهم يعدون من القبطية كلمات هى لا شك عربية مثل تل . ونكبة

ومشط . وشنشن بمعنى طن وغير ذلك وحضرات الباحثين الذين عدوا هذه الكلمات

قبطية معذورون لأنهم وجدوها فى معاجم اللغة القبطية ، ولكنها عربية الأصل استعمالها

إخواننا الأقباط قديما فعدت من لغتهم وتصرفوا فيها بالاشتقاق وغيره فصار الذين بعد

عنهم العهد بدخولها إلى لغتهم يعتقدون أنها أصلية فيها .

مظاهر الأدب العربي بمصر في مدة الخلفاء الراشدين

هذه المظاهر هي مظاهر هذا الأدب في كل البلاد التي فتحها العرب ولم يكونوا بعد قد توثقت علاقاتهم بأهل البلاد المفتوحة ، ولا سوا عاداتهم القديمة ولا تأثرت لغتهم بعجمة تلك الأمم فكانت مظاهر هذا الأدب هي الإفصاح الذي لا تشوبه شائبة - في مجالس سمرهم ، وفي أسواق معاملاتهم ، وفي خطب ولائهم ، وفي الكتب المتبادلة بينهم وبين الخلفاء في شئون الدولة وتدبير أمر هذه الأقاليم ، كما كان لهم الشعر الذي عرف في هذه الأمة بالكثرة التي لا حد لها حتى كاد يكون كل قائل منهم شاعرا ، ولكنه ظل كما كان شعر الفطرة الذي عرف لعرب الجاهلية أولا والإسلام ثانيا لا زخرف فيه ولا زينة ولا ملق ولا دهان ، فهو شعر النفس المرسلة يقوله الرجل في مفاخر آبائه وفي الاعتزاز بدينه كما يقوله في الحكمة التي أفادهم الإسلام كنهها ، وأشعرهم جلالها .

وسيكون همنا أن نمثل لكل هذه المظاهر بأدب مصرى تحركت به ألسنة العرب في مصر حتى لا نخرج عن الجادة التي رسمناها لأنفسنا في هذا الكتاب .

أولا - الخطابة

هى زاد القوم فى مثل هذه الأحوال التى كانت للمسلمين يوم ذاك ، يحتاجون إليها للحث على القتال ونشر الدين ، كما يحتاجون إليها فى إعلان رأى فى السياسة بدا لهم أن يطلعوا الناس عليه وهم مدفوعون إليها لأنها قد وجبت بالإسلام فى كل أسبوع مرة ، والقوم بعد يملكون أداتها من اللسن وحضور البديهة فلم يكن يدفعهم عنها عجز ولا يقصر بهم عن مواقفها عائق . كان الخليفة يخطب فى البعث يرسله ، وفى الأمداد يسعف بها قواده ، وكان الولى يقوم بها فى كل جمعة وفى كل مناسبة مذكرا بالله حاثا على تقواه حاملا جنده على الصبر فى القتال أو البقاء فى الرباط ، ناصحا لهم بما ينبغى أن يكونوا عليه من حسن الجوار لمن يخالطوهم من أهل البلاد المفتوحة .

وقد كان العرب يقومون بالخطابة فى مصر قائلين فى هذه الأغراض السابقة ، مثلهم فى ذلك مثل إخوانهم فى جميع الأقطار . فمن ذلك :

١ - خطبة عمرو بن العاص فى جيشه (١)

رواها صاحب أشهر مشاهير الإسلام من تاريخ ابن عساكر قال :

أقام المؤذن الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر فإذا رجل قصير القامة أدعج أبلج عليه ثياب موشية كأنها العيقان تتألق عليه وعليه عمامة وجبة فحمد الله وأثنى عليه حمدا موجزا وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم وحض على الزكاة وصلة الرحم ونهى عن الفضول وكثرة العيال وقال فى ذلك :

يامعشر الناس : إياى وخللا أربعا فأنتما تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة وإلى الذلة بعد العز . إياى وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال والقييل والقال فى غير درك ولا نوال . ثم إنه لا بد من فراغ يثول المرء إليه فى توديع

(١) أشهر مشاهير الإسلام - ص ٣٠٠ .

جسمه والتدبر نشأته وتخليته بين نفسه وبين شهواتها . فمن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الاقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب نفسه من العلم فيكون من الخير عاطلا وعن حلال الله وحرامه عادلا .

يامعشر الناس : قد تدلت الجوزاء وركبت الشعرى وأقلعت السماء وارتفع الوفاء (١) وطاب المرعى ووضعت الحوامل ودرجت السخائل (٢) وعلى الراعى حسن النظر ، فحى بكم على بركة الله على ريفكم فتناولوا من خير له ولبنه ومرافقه وصيده وأريعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فلإنها جنتكم من عدوكم وبها تنالون مغائكم وأنقالكم .

واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيرا . وإياي والمومسات المفسدات فلإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم منهم صهرا وذمة « فكفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم ، فلا أعلمن ما أتاني رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك .

واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة . حدثني عمر أمين المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض) فقال له أبو بكر ولم ذاك يا رسول الله .. قال لأنهم في رباط إلى يوم القيامة . فاحمدوا ربكم معشر الناس على ما أولاكم وأقيموا في ريفكم ما بدا لكم فإذا يبس العود وتحقق العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد فحى على فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدم من أحد منكم على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرتة أه .

(١) يريد وفاء النيل أى زيادته .

(٢) السخائل جمع سخلة وهى ولد الضأن ما كان وجميعها كما فى القاموس المحيط سخال وسخل وسخلة وسخلان ولكنه أتى بها على سخائل ليزاوج بينها وبين الحوامل .

٢ - خطبة قيس بن سعد لما بعثه أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، أميراً على مصر (١)
 دخل قيس في سبعة من أصحابه فصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب أمير
 المؤمنين فقريء على أهل مصر بولايته وبأمرهم بمبايعته ومساعدته وإعانتته على الحق .
 ثم قام قيس خطيباً فقال : الحمد لله الذي جاء بالحق وأما الباطل وكبت الظالمين .
 أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا أيها الناس فبايعوه على كتاب
 الله وسنة رسوله فإن نحن لم نعلم لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم .
 فقام الناس فبايعوا واستقامت مصر .

٣ - خطبة محمد بن أبي بكر لما ولاه على أمر مصر وعزل به قيس بن سعد . لا قدم
 محمد مصر قرأ كتاب على عليّ أهل مصر ثم قام فقال : (٢)
 الحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق ، وبصرني وإياكم كثيراً
 مما كان عمي عنه الجاهلون . إلا أن أمير المؤمنين ولاني أمركم وعهد إلى ما سمعتم .
 وما توفيتي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، فإن يكن ما ترون من إمارتي وأعمالي
 طاعة لله فأحمدوا الله على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادي له . وإن رأيتم عاملاً على عمل
 بغير الحق فارفعوه إلى عاتبوني فيه فإني بذلك أسعد وأنتم جديرون . وفقنا الله وإياكم
 لصالح الأعمال برحمته .

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ١٠٨ .

الكتابة

تمثلت كتابة هذا العصر في تلك الرسائل السياسية التي تبودلت بين الخلفاء وولايتهم في شئون الحكم ومقتضيات الرياسة ، وكان لها أيضا مظهر ناشط في كتب كانت بين الزعماء ورؤساء الأجناد يدعونهم إلى حزبهم ويزينون لهم مذاهبهم ويطعمونهم في الخير من وراء متابعتهم .

وقد كان من هذه الكتب كثير وجه إلى مصر وصدر عنها خصوصا ما يتصل بالزعامة ويدعو إلى الانتصار لفريق على آخر ، لأن لمصر مكانتها بين الولايات في قوة جيشها ومناعة موقعها والتعويل على رأيها في السياسة القائمة ..

وسرى مما نرويه لك من هذه الآثار أمثلة شاهدة بالصراحة في القول ، والحرص على مصالح المسلمين والرعاية لعهود أهل الدمة ، كما ترى جنوح السياسة والمبالغة في تزيين الرأي ، والإطماع والتأميل مكافأة على شد الأزر ونصرة المذهب .

وإن كنا نرى كل ذلك محاطا بسياج من تقوى الله ، وأن أحدهم إن حرص على مكانة أو سعى لولاية فإنما يرجو من وراء ذلك تحقيق النفع الخالص لعباد الله وحسن القيام على أوامر الدين ونواهيها فأما المتعة المادية وحياسة الدنيا والشهوة للانتقام من الخصوم فذلك غير داخل في حساب هؤلاء الذين تشرفوا بصحبة رسول الله وتأدبوا بأدبه .

- وهذه صورة من الكتب نسوقها إليك ممثلة لكل ما ذكرنا من غرض ، ناطقة بما قدمنا من انطباع كلام القوم على الفطرة والبعد عن التكلف والزينة اللفظية ، ماثلا كل ذلك في بدسهم وختامهم إذ كانوا يبدعونها غالبا بعد البسملة بذكر المرسل ويثنون بذكر المرسل إليه أيا كان أحدهما ، فيقول الخليفة : من عبد الله فلان إلى فلان الوالى ، ويقول الوالى من عبد الله فلان إلى عبد الله الخليفة . ثم يقول أحدهم : سلام ثم يفصل بأما بعد بين ذلك وبين غرضه الذى يكتب فيه . ثم يختتم بقوله (والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

وكانوا يوجزون حتى يكاد الكتاب في الشأن الذى لاشأن مثله يكون سطرأ أو

بعض سطر ، كما كانوا يطيلون إذا اقتضى الأمر الإطالة في ذكر شروط صلح أو بيان نظام حكم أو غير ذلك مما نكتني بالإشارة إليه .

نماذج من الرسائل

١ - لما تم لعمر بن العاص افتتاح مصر وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بذلك كتب إليه الخليفة كتابا يشكره فيه ويقول له : أن صف لي حال مصر ، فكتب عمرو مانصه (١) .

ورد إلى كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر : أعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تربة غبراء وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر . يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ، ميمون الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان يدر حلاله ويكثر عجاجه ، وتعظم أمواجه ، فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن في المخابل ورق الأصائل .

فلذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ في جريته وطمى في رده ، فعند ذلك تخرج ملة محفورة وذمة مخفورة يحرثون بطون الأرض ويبذلون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب فلذا أحرق الزرع وأشرق (٢) سقاه الندى وغذاه من تحتته الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، فإذا هي هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة زرقاء . فتبارك الخالق لما يشاء . والذي يصلح هذه البلاد ويقر قاطنيتها فيها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ولا يستأدى خراج ثمره إلا في أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها فإذا تقرر الحال مع العمال على هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال والله يوفق إلى أحسن حال .

٢ - أصاب الناس بالمدينة جهد شديد على أيام عمر بن الخطاب حتى سمي العام عام الرمادة لهلاك الناس والأموال فيه ، فكتب عمر إلى عمرو يقول له : (٣)

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص : سلام ، أما بعد فلعمري

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢ .

(٢) أحرق : أعطش . أشرق : طال .

(٣) أشهر مشاهير الاسلام ج ٣ ص ٦٠٥ .

يا عمرو ما تبالي إذا شبت أنت ومن معك من أهلك أن أهلك أنا ومن معي . فيا غوثاه
ثم يا غوثاه .

فكتب إليه عمرو : (١)

من عبد الله عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين . أما بعد ، يا لبيك ثم يا لبيك . قد
بعثت إليك ببعير أولها عندك وآخرها عندي . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

٣ — لما خاف معاوية أمر على بالعراق وأمر قيس بن سعد بمصر ، وخشى أن
يسير على من العراق وقيس من مصر فيقع هو بينهما كتب إلى قيس يستميله إليه ويطمعه :
سلام عليك ، أما بعد فإنكم نقيم على عمان ضربة بسوط أو شتمة رجل أو تسير
آخر أو استعمال . فتي وقد علمت أن دمه لا يحل لكم فقد ركبتم عظيمًا وجئتم أمرا إذا
فتب إلى الله يا قيس فإنك من المجليين على عمان ، فأما صاحبك فإننا استيقنا أنه الذي
أغرى الناس وحملهم حتى قتلوه وأنه لم يسلم من دمه عظم قومك . فإن اسنطعت يا قيس
أن تكون من يطالب بدم عمان فافعل وتابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقيين إذا ظهرت
ما بقيت ولمن أحببت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان وسلي ما شئت فإني
أعطيك واكتب إلى برأيك .

فلما جاءه الكتاب أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمره ولا يتعجل بحرية . فكتب
إليه : (٢)

أما بعد فقد فهمت ما ذكرته من قتلة عثمان فذلك شيء لم أقاربه ، وذكرت أن
صاحبني هو الذي أغرى به حتى قتلوه وهذا مما لم أطلع عليه . وذكرت أن عظم عشيرتي
لم تسلم ، فأول الناس كان فيه قياسا عشيرتي . وأما ما عرضته من متابعتك فهذا أمر لي
فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يسرع إليه ، وأنا كاف عنك وليس يأتيك من ناحيتي
شيء تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله تعالى .

فلما قرأ معاوية الكتاب رآه مقاربا مباعدا فكتب إليه :

أما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلما ولا متباعدا فأعدك حربا
وليس مثلي يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام .

(١) المرجع السابق ص ٦٠٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ١٠٧ . وفي نفس الصفحة كتاب معاوية الاول والثاني .

٤ - فلما قرأ قيس الكتاب ورأى أنه لا يفيد معه المدافعة والمماطلة أظهر له ما في نفسه فكتب إليه : (١) أما بعد فالعجب من اغترارك بي وطمعك في واستسقاطك إياي ، أتسوئني الخروج عن طاعة أولى الناس بالإمارة وأقولهم بالحق وأهداهم سبيلا وأقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة ، وتأمرني بالدخول في طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقوهم بالزور وأضلهم سبيلا وأبعدهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة ، ولد ضالين مضلين طاغوت من طواغيت إبليس أما قولك أني مالىء عليك مصر خيلا ورجالا فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهم إليك إنك لذو جد والسلام .

(١) المرجع السابق ذاته .

الفصل الثاني

الأدب العربي في مصر

في عهد الولاة الأمويين

- تمهيد
- الشعراء
- مظاهر الأدب
- نماذج من الأدب

الأدب العربي في مصر

في عهد الولاة الأمويين

تمهيد

قدرة الولاة الأمويين بمصر على إنعاش الأدب

لقد رأينا الولاة في كل قطر من أقطار الأمة الإسلامية لا يستطيعون أن ينشئوا الأدب ولا أن يكون منهم بعض ذلك الذي نراه في الخلفاء .

ذلك أن الولاة في تلك العهود المطلقة لا يرى نفسه إلا موظفاً يخشى العزل بين ساعة وأخرى ، فهو يجعل همه ادخار المال من رزقه المحدود الذي فرضه له الخليفة ، فإذا أضاف إلى ذلك شيئاً من مال اختلسه أو رشى به جعل كل ذلك ذخيره لأيام عزله التي يراها ماثلة أمامه كل حين ، على أنه إن أمن على نفسه العزل فليس يستطيع أن يكون عيناً ثرة وسحابة مدرارة هؤلاء الشعراء الذين لا يشبع منهم إلا أن تمتلئ حقائبهم مالا وثياباً وأن تحشى أفواههم درا . وتلك حال لا يقوى عليها رجل مراقب من رؤسائه مطالب أمامهم بمال يؤديه وضمان يقوم بسداده . وأين هو من ذلك الخليفة الذي تلتقى بخزائنه أموال الأقطار وهو غير مستول فيم أنفق ذلك ولا لمن أعطاه ، هؤلاء الخلفاء وحدهم هم الذين ينتظر منهم أن ينشئوا الأدب ويرطبوا ألسنة رجاله ، على النحو الذي عرفته من أخبارهم ودهشت لمبلغ الإسراف فيه .

على أن عادة البذل للشعراء لم تكن محض مكافأة على ما ينشئون من قول في تمجيد الممدوحين بل كانت سياسة عليا يتولاها الخلفاء بأنفسهم لأنهم بها يستطيعون جمع القلوب حولهم وضم العشائر إليهم ، والإغداق على أنصارهم وحرمان من لا يوالونهم . وكل ذلك من سياسات الملوك دون غيرهم . وربما فعل كبار الولاة أمثال زياد

والحججاج لأن لولاياتهم مكانة خاصة وكانت أيديهم مطلقة بعض الإطلاق فيما يحبونه من أموال الدولة وأعطياتهم فعلوا كثيراً على غيرهم من الولاة ، وهم مع كل هذا لم يكونوا قادرين على مساجلة الخلفاء في هذا الميدان بل كانوا يجولون فيه جولات محدودة .
فهذا الحججاج لم ير بذله كافياً لإرضاء جرير فوجهه إلى عبد الملك مع ابنه محمد لينال من جود الخليفة ما يحقق آماله .

ونجد مصداق قولنا هذا فيمن ذكر المؤرخون من الشعراء الذين ارتفع لهم صوت بمصر أيام الدولة الأموية فهم كما ذكر هؤلاء المؤرخون .

الشعراء

١ — جميل بن معمر العذري :

صاحب بثينة من بني عذرة ، قدم على عبد العزيز بن مروان ممتدحاً له فأذن له في الإنشاء وأحسن جائزته وسأله عن حبه لبثينة فذكر له وجداً كثيراً ، فوعده في أمرها وأمره بالمقام وأمر له بمنزل وبما يصلحه ، فما أقام إلا قليلاً حتى مات بمصر سنة ٨٢ .

وذكر صاحب الأغاني عن الأصمعي قال : (١) حدثني رجل شهد جميلاً لما حضرته الوفاة بمصر أنه دعا به وقال له : إذا أنا مت فخذ حلتي هذه واعزلها جانباً وكل شيء سواها فهو لك وارحل إلى رهط بثينة فإذا صرت إليهم فارحل ناقي هذه واركبها ثم البس حلتي هذه واشقفها ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات :

صرخ النعي وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير فقول
ولقد أجز البرد في وادي القرى نشوان بين مزارع ونجـيل
قومي بثينة فاندبى بعويل وابكى خليلك دون كل خليل

قال ففعلت ما أمرني به جميل فما استتمت الأبيات حتى برزت بثينة كأنها بدر قد بدا في دجنته وهي تنثني في مرطها حتى أتتني فقالت : يا هذا إن كنت صادقاً فقد قتلتني وإن كنت كاذباً فقد فضحتني فقلت والله ما أنا إلا صادقاً وأخرجت حلته فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحى يبكين معها ويندبنه حتى صعبت فمكثت مغشياً عليها ساعة ثم قامت وهي تقول :

وإن سلوى عن جميل لساعة^١ من الدهر ماحانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر إذا مت بأساء الحياة ولينها

قال الرجل فما رأيت أكثر باكية ولا باكية من يومئذ.

(١) ج ٧ ص ١٠٤ .

٢ - كثير عزة :

تردد على مصر كثيرا بمدح واليها عبد العزيز بن مروان . ولقى مرة من مرات
خروجه إلى مصر عزة وقومها في طريقهم إليها فحادثها طويلا ثم افترقا . فقدمت
هي مصر وسافر هو إلى الحجاز على أن يعود فيأحق بها . وفي عودته إلى مصر ليلقاها
نزل بمنزل قريب من مصر فإذا هو بغراب على شجرة بان ينتف ريشه ويتعب ، فتشأم
وأسرع بالحضور إلى مصر فقابلته في بعض الطريق رجل من نهد فرآه كاسف البال
فسأله عن حاله فحكى له ما رأى في الطريق فقال له إنك تطلب حاجة لا تتركها ،
فقدم مصر والناس منصرفون من جنازة عزة فقال : (١)

رأيت غرابا ساقطا فوق بانه ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقلت ولو أني أشاء زجرته بنفسى للتهدى هل أنت زاجره
فقال غراب لا غراب من النوى وفي البان بين من حبيب نجاوره
فما أعيف النهدي لا در دره وأزجره للطير لاعز ناصره

ثم أتى قبر عزة فأناح به ساعة ثم رحل وهو يقول :

أقول ونضوى واقف عند رأسها عليك سلام الله والعين تسفح
فهذا فراق الحق لا أن تزيروني بلادك فتلاء الذراعين صيدح
وقد كنت أبكى من فراقك حية وأنت لعمرى اليوم أنأى وأنزح

دخل كثير على علي عبد العزيز بن مروان بمصر يعوده في مرضه وأهله يتمنون أن
يضحك فلما وقف عليه قال : لو أن سرورك لا يتم إلا بأن تسلم وأسقم لدعوت ربي
أن يصرف ما بك إلى ، ولكني أسأل الله تعالى لك العافية ولى في كنفك النعمة ،
فضحك عبد العزيز ، وأنشد كثير (٢)

ونعود سيدنا وسيد غيرنا ليت التشكى كان بالعواد
لو كان يقبل فدية لفديته بالمصطفى من طارفي وتلاذى

ومات كثيره ص ١٠٥ هـ .

٣ - نصيب بن رباح :

يذكرون في سبب اتصاله بعبد العزيز بن مروان وإلى مصر روايات كثيرة . منها

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٦٩ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٣٤ .

أنه كان مولاه ، اشراه من بى كنانة ، وقيل إن نصيباً رأى فى نفسه مقدرة على الشعر فحدثته نفسه أن يقدم مصر على عبد العزيز بن مروان فقدمها ، وقيل إنه كان يرعى إبلا لمواليه فأضل بعيرا له فخرج يبحث عنه حتى أتى القسقاط فطمع أن يدخل على الوالى يسمعه شعره ، ولكن رثاء حاله وجهامة شكله حالا دون وصوله إلى الأمير لولا أنه استشفع بأحد الداخلين إليه فلما استوثق الرجل من مقدرته فى الشعر شفع له فى الدخول فنال حظوة الأمير واتصل به حتى لقب بمولى عبد العزيز ويقولون: أنه أنشده أول ما أنشده قوله :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم نعم غامره
فيا بك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنس بالمعتفين من الأم بابتها الزائرة
وكفك حين ترى السائلين أندى من الليلة الماطرة

وفى الأغاني (١) : كان نصيب يرحل إلى عبد العزيز بن مروان فى كل عام مستميا فيجيزه ويحسن صلته ، فقال له نصيب وقد ذكر فى أبياته هذه النيل

يقول فيحسن القول ابن ليلي ويفعل فوق أحسن ما يقول
ففى لا يرزأ الخلان إلا مودتهم ويرزؤه الخليل
فبشر أهل مصر فقد أتاهم مع النيل الذى فى مصر نيل

وفى الأغاني أيضا (٢) : وقع الطاعون بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان فخرج هاربا منه فترل بقرية من الصعيد يقال لها سُكَّر ، فقدم عليه حين نزلها رسول من عبد الملك فقال له عبد العزيز ما اسمك ؟ قال : طالب فقال : أوه . ما أراى راجعا إلى القسقاط أبدا ومات بتلك القرية فقال نصيب يرثيه :

أصبت يوم الصعيد من سكر مصيبة ليس لى بها قبل
نالله أنسى مصيبتى أبدا ما اسمعتنى حيننها الإبل
ولا التبكى عليه أعوله كل المصيبات بعده جلل
لم يعلم النعش ما عليه من الع عرف ولا الحاملون ماحملوا
حتى أجنوه فى ضريحهمو حين انتهى من خليله الأمل

(١) ج ١ ص ٣٥٢ طبعة دار الكتب .

(٢) ج ١ ص ٣٦٠ .

٤ - أيمن بن خريم الأسدي :

جاء إلى مصر للمدح عبد العزيز بن مروان فأقام في كنف الوالي مدة طويلة ومدحه بمدائح كثيرة حتى زاحمه نصيب فغلبه على مكانته عند عبد العزيز ، فخرج من مصر مغاضباً للأمير وقصد إلى أخيه بشر بن مروان وإلى العراق ، ومدحه معرضاً بعبد العزيز في قوله :

ركبت من المقطم في جمادى	إلى بشر بن مروان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف	رأى حقاً عليه أن يزيـدا
أمير المؤمنين أقم ببشر	عمود الحق إن له عمودا
ودع بشراً يقومهم ويحدث	لأهل الزينغ إسلاماً جديدا
كأن التاج تاج بني هرقل	جلوه لأعظم الأيام عيدا
على ديباج خدى وجه بشر	إذا الألوان خالفت الحدودا

وهو يعرض في هذا البيت بعبد العزيز وكان بوجهه تمش

وقد روى الأغاني (١) ما وقع بين عبد العزيز بن مروان وأيمن من المغاضبة بسبب

نصيب قال :

« أول من نوه باسم نصيب وقدم به على عبد العزيز بن مروان ، عبد الله بن أبي فردة قدم به عليه فقال : أصلح الله الأمير جئتك بوصيف نوبى يقول الشعر فأدخله عليه فأعجب بشعره وكان معه أيمن بن خريم الأسدي فقال عبد العزيز : إذا دعوت بالغداء فأدخله على في جبة صوف محترماً بعقال فإذا قلت قوموه فقوموه وأخرجوه ثم رده في جبة وشى ورداء وشى . فلما جلس للغداء ومعه أيمن بن خريم أدخل نصيب في جبة صوف محترماً بعقال فقال قوموا هذا الغلام فقالوا : عشرة . عشرون . ثلاثون ديناراً فقال رده فأخرجوه ثم رده في جبة وشى ورداء وشى فقال أنشدنا فأنشدهم فقال قوموه فقال : ألف دينار . فقال أيمن والله ما كان أقل في عيني قط منه الآن وانه لنعم راعى الخاض فقال له فكيف شعره قال هو أشعر أهل جلدته فقال عبد العزيز هو والله أشعر منك . قال أمنى أيها الأمير قال نعم فقال أيمن : إنك للملول طرف فقال له والله ما أنا بملول وأنا أناز عك الطعام منذ كذا وكذا تضع يدك حيث أضعها وتلتقي يدك مع يدي

(١) طبعة دار الكتب ج ١ ص ٣٢٨ .

على مائدة . كل ذلك أحتملك . وكان بأيمن بياض فقال له أيمن إنذني لي أخرج لي بشر فأذن له فخرج وقال الأبيات التي أولها ، ركبت إلى المقطم في جمادى .

٥ - عبد الله بن الحجاج :

قال صاحب الأغاني عنه (١) : كان عبد الله بن الحجاج الثعلبي شجاعاً فاتكاً صعلوكاً من صعلاليك العرب ، وكان متسرعا إلى الفتن فكان ممن خرج مع عمرو بن سعيد ابن العاص فلما ظفر به عبد الملك هرب إلى ابن الزبير فكان معه حتى قتل . ثم استأمن عبد الملك فأمنه في حديث طويل : وقال في مقام آخر (٢) : وفد عبد الله بن الحجاج إلى عبد العزيز بن مروان ومدحه فأجزل صلبته وأمره بأن يقيم عنده ففعل فلما طال مقامه اشتاق إلى الكوفة وإلى أهله فاستأذن عبد العزيز فلم يأذن له فخرج من عنده عاصياً فكتب عبد العزيز إلى أخيه بشر وإلى العراق فمنعه عطاءه ورجع عبد الله لما أضر به ذلك إلى عبد العزيز فقال بمدحه :

تركت ابن ليلى ضلّةً وجريمة	وعند ابن ليلى معقل ومُعَوَّل
ألم يهني أن المراعِمَ واسِع	وان الديار بالمقيم تنقّل
سأحكم أمرى إذا بدا لي رشده	وأختار أهل الخير وإن كنت أعقل
وأترك أوطارى وألحق بامرئ	تحب كَفّاه النّدى حين يسأل
أبت لك يا عبد العزيز مائِـر	وجرى شأى جرى الجياد وأول
أبي لك اذ أكندوا وقتل عطاؤهم	مواهب فياض ومجد مؤثّل
أبوك الذى ينميك مروان للعلا	وسعد الفتى بالخال لامن يخول

فقال له عبد العزيز أما إذا عرضت موضع خطئك واعترفت به فقد صفحت عنك ، وأمر بإطلاق عطاءه ووصله وقال له أقم ماشئت عندنا أو انصرف مأذوناً لك إذا شئت .

فهؤلاء شعراء خمسة اتصلوا جميعاً بوال واحد ورحلوا إلى مصر من أجله ، وهو جدير بذلك إذ كان عبد العزيز بن مروان أخا الخليفة وكان جواداً ممدحاً .

وكان من حظ الأدب بمصر أن أقام هذا الوالى بها عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة

(١) الاغانى طبعة السامى ج ١٢ ص ٣٤ .

(٢) المصدر ذاته ص ٢٩ .

عشر يوماً (١) فراج الأدب بها هذا الرواج وذكرت مصر على السنة شعراء روى شعرهم بالحجاز والعراق والشام فطار بذلك لمصر ذكر لم يكن ليشيع لولا جود هذا الوالى وتام أرحتيه .

وطبيعى أن يكون جود هذا الأمير كما قال من طراً على مصر من الشعراء قد نال غيرهم من أهل البلاد بل إننا نقول إنه خلق بمصر هؤلاء الشعراء الذين يعرفون أبواب الولاة وينتظرون النعمة الجزيلة من وراء عطائهم فيتوفرون على الشعر يجيدون سبكه ويتخبرون معانيه وألفاظه .

وبعد فهذا أول واحد من ولاة كثيرين ولوا أمر مصر للدولة الأموية في مدى تسعين عاماً تقريباً من سنة ٤٠ هـ إلى ١٣٢ هـ ، ولم يكن من جملتهم معونة للأدب ولا جدد على الشعراء ، ولولا أن مدة هذا الوالى قد طالت كما ذكرنا ما رأينا حديثاً عن مصر ينبت في كتب الأدب كالأغاني وغيره .

فلذا حكمنا بأن العصر الأموى لم يكن عصر انتعاش للأدب بمصر حكمنا صادقين ويكون قد صح قولنا أن الولاة لا يقدرون على إنعاش الأدب بأمصارعهم إلا إذا انضم إلى الولاية ميزة أخرى كالغنى أو الجاه العريض .

مظاهر الأدب بمصر أيام الولاة الأمويين

لم تزد هذه المظاهر في أنواعها عما كانت عليه أيام ولاة الخلفاء الراشدين ، فما زالت هي الخطابة والكتابة والشعر لم يزد عليها مظهر آخر .

كما أن كل نوع منها بقي على حالته التي كان عليها أيام ولاة الخلفاء الراشدين ، فها هي تلك الخطابة واقفة عند حدها التي عرف لها في العهد السابق يقوم بها الوالى يوم يحضر إلى مصر خطيباً على منبر مسجد جامع بالفسطاط معلناً ولايته ثم هو يتعهدا في كل أسبوع يوم الجمعة واعظاً مذكراً متناولاً شئون السياسة محذراً من الفتنة داعياً إلى اجتماع الكلمة ، وكذلك يقوم بها يوم يحدث من الرعية أو الجيش ما يوجب نهوض الأمير بتجلية الحقيقة وتقويم المعوج وتعديل الزيف كما يكون الداعى إليها في أحيان كثيرة لإعلان الرأى في حرب أو سلم . كذلك الكتابة ظلت مترسمة خطتها الأولى : فهي بين الخليفة والوالى في شئون الإدارة أو بين الوالى وطامع في الملك يريد أن يستدرجه ليدخل في جملته وينضم إلى شيعته فهو يهدده مرةً ويطمعه أخرى ، ثم هي لا تزال على حال سداجتها الأولى ، لم يتخذ الوالى بعد كاتباً يتولى إنشاء رسائله ، بل هو ينشئها لإنشاء وربما تولى كتابتها بيده إلا أن يتخذ كاتباً بن يديه يملئ عليه ما يريد ، غير ملتزم حدوداً في البدء والختام ونوع الخط والورق كذلك التي التزمت فيما بعد وتعقدت تعقداً زائداً .

وكذلك الشعر بقي في الغالب كما قلنا نفثة نجيش بها نفس المرء فيشكو حالاً أو يفخر بطريف أو تالد ، أو يهاجى عدواً فيعد عليه مثالبه ومثالب قومه ، أو يمدح أخاً على يد ، أو يرثيه موفياً بعهد صداقته وأخوته .

ويصبح أن ندعى نشوء نوع جديد في الشعر . ذلك هو الذى يقدم به شاعر طامع في عطاء الوالى فيمدحه به معدداً مآثره مظهرأ تفخيم أمره ، ولزم من أجل ذلك أن يجلس هذا الوالى مجلساً عاماً يحضره كبار القوم ، لسماع هؤلاء الشعراء ، فتهز الوالى الأريحية ويتحرك عطفه لهذا الثناء المأجور ، كما لزم أيضاً أن ينصرف بعض الشعراء إلى التكسب بهذا الممدح ، وإن كانوا بعد لم يصلوا إلى جعله مرتزقهم الذى يعولون عليه وحده في كسب قوتهم ، لأن العرب بمصر كانوا لا يزالون إلى ذلك الحين جنداً في الجيش مدونة أسماؤهم في الدواوين فلمهم من بيت مال الدولة أعطيات تكفيهم وأبناءهم حاجة العام كله .

نماذج من الأدب في هذه الفترة

لابد أن نسجل مقدماً قلة ما ورد في كتب القوم من هذه الآثار ، فعلى حين تفيض صفحات كتب التاريخ كالكمال لابن الأثير وتاريخ الأمم والملوك للطبري بخطب معاوية وولاته بالعراق وغيره ، لا نجد عن مصر إلا وشلا إلى جانب هذا البحر الزاخر ، حتى لقد رأيت بعض المؤرخين يسجل كتاب معاوية أو عمرو بن العاص مثلاً إلى محمد بن أبي بكر وإلى مصر من قبل على كرم الله وجهه ثم لا يذكر رد محمد ، على ما ورد إليه منهما ويشير إليهما محض إشارة فيقول مثلاً (فاشتد في رده عليه) كما فعل ابن تغري بردي في ص ١٠٩ من الجزء الأول من كتابه « النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة » والعجب أن كتابه خاص بمصر ثم هو يهمل رواية ما قاله وإلى مصر ولكنه معذور في ذلك لأن الرواة في القديم لم يعنوا إلا بما كان عن خليفة أو وال لولاية كبيرة لها شأنها في الحوادث التي كانت تحضرهم يوم ذاك .

فهذا هو علرنا ، إذا كنا لم نشيع نهمة القارئ ممن يحب أن يطلع عليه من أدب مصر في كل أطوارها .

١ - خطبة لمحمد بن أبي بكر (١)

لما كتب إليه عمرو بن العاص يهدده ويدعوه إلى التسليم رد عليه واشتد في رده (كما يقول صاحب النجوم الزاهرة) ثم قال خطيباً فقال :

أما : بعد فإن القوم الذين ينتهكون الحرمه ويشبون نار الفتنة ، قد نصبوا لكم العداوة وساروا إليكم بجيوشهم ، فمن أراد الجنة فليخرج فليجاهدهم في الله . انتدبوا مع كنانة بن بشر فانتدب الناس معه وخرجوا للقاء القوم .

٢ - خطبة لعتبة بن أبي سفيان (٢)

لما قدم عتبة إلى مصر سنة ٤٣ أقام بها شهراً ثم خرج منها وافداً على أخيه معاوية

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٤ .

بدمشق ، واستخلف على مصر عبد الله بن قيس ، وكانت في عبد الله المذكور شدة فكرهه الناس بمصر ، فبلغ ذلك عتبة فرجع إلى مصر ، وصعد المنبر فقال :

يا أهل مصر تعذرون ببعض المنع منكم ، لبعض الجور عليكم . وقد وليكم من إن قال فعل فإن أبيتم درأكم بيده ، فإن أبيتم درأكم بسيفه ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول . إن البيعة شائعة ، لنا عليكم السمع والطاعة . ولكم علينا العدل . فأينا غدر فلازمة له عند صاحبه .

فناداه المصريون من جنات المسجد : سمعاً سمعاً : فناداهم عتبة عدلاً عدلاً ثم نزل .

٣ - وصية عتبة لمؤدب ولده (١)

أوصى عتبة بن أبي سفيان مؤدب ولده فقال :

ليكن أول إصلاحك بنى لإصلاحك نفسك ، فإن عيوبهم معقودة بعيبك . فالحسن عندهم ما فعلت والقييح ما تركت . وعلمهم كتاب الله ولا تملهم فتركوا ، ولا تدعهم منه فيهجروا . وروهم من الحديث أشرفه ومن الشعر أعفه ، ولا تخرجهم عن علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ، وهددهم بى وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الرقيق الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء ، وامنعهم من محادثة النساء ، واشغلهم بسير الحكماء واستردنى بأدابهم أزدك ، ولا تتكلن على عذر ، فقد اتكلت على كفاية منك .^١

٤ - كتاب عبد العزيز بن مروان إلى أخيه الخليفة عبد الملك (٢)

كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وإلى مصر يسأله أن يتزل عن ولاية العهد ليعهد إلى الوليد وسليمان ، فأبى عبد العزيز وكتب إلى أخيه :

« إن يكن لك ولد فلنا أولاد ويقضى الله ما يشاء »

وقيل كان أيضاً في كتاب عبد العزيز « إنك لو رأيت الأصبغ لسرك ولم تقدم عليه أحداً » يريد بالأصبغ ابنه عبد الله .

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٣ .

(٢) الولاة والقضاء للكندى ص ٥٤ .

٥ - شعر لابن أبي زمزمة الخشني (١)

لما قصد عبد العزيز بن مروان مصر فاتحاً لها من قبل أبيه مروان أشار الجند على ابن جحدم وإليها أن يحفر خندقاً على القسطاط فحفر في شهر واحد فقال الخشني :
ما الجند إلا مثل جد ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفاً هم أثاروا تراباً — وخدوه في شهر حديث مصدق

٦ - شعر زهير بن قيس (٢)

كان زهير بن قيس قد خرج للقاء عبد العزيز وصده عن مصر ، فانهزم ببصاق وهي
سطح عقبة أيلة فقال لعبد العزيز (ما دحا له ولعله قد انضم إليه) :
منعت بصاقاً والبطاح فلم تُـرم بطاحك لما أن حميت ذماركا
قسرت الألى ولوا عن الأمر بعدما أرادوا عليه فاعلمن اقتساركا

٧ - جفنت عبد العزيز (٣)

كان لعبد العزيز بن مروان ألف جفنة كل يوم حول داره ، وكان له مائة جفنة
يطاف بها على القبائل تحمل على العجل إلى قبائل مصر فمال الشاعر :
كل يوم كأنه يوم أضـحى عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات كل يوم تمدها ألف قدر

٨ - رثاء عبد العزيز بن مروان وابنه (٤)

توفي الأصـيغ (عبد الله بن عبد العزيز) لتسع بقين من ربيع الآخر سنة ٨٦ هـ .
وتوفي أبوه عبد العزيز بعد أيام (ثلاث عشرة) خلت من جمادى الأولى في السنة نفسها) .
فقال ذو الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط يرثيهما :

نقول غداة قطعنا الجفنا ر والعين بالدمع مغرورقـه
مقال امرئ كاره للفسـرا ق تاع البلاد وياع الرقـة (٥)

(١) المرجع السابق نفسه ص ٤٣ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٣ .

(٣) المرجع نفسه ص ٥١ .

(٤) الولاة والقضاة ص ٥٦ .

(٥) تاع البلاد : قطعها . الرقة : الدراهم المضروبة .

أبعد الخليفة عبد العزيز
فما مصر لى بعد عبد العزيز
أمامى هُدى وهديتى
سقى الله قبريهما والصدى
فإن تلك مصر أشارت بهما
فقدما تقـر بمصر العيو
وقال سليمان بن أبان بن أبى جدير الأنصارى يرثيهما :

أبعدك يا عبد العزيز لحادث
ولا زال مجراه من الأرض يابسا
فمن ذا الذى بينى المكارم والعلا
فكنت حليف العرف والخير والندى
وبعدك لا يرجى وليد لنفعة
وبعدك لا يرجى عوان ولا بكر
وبعد أبى زيان ينشعب الدهر
يموت به العصفور وانجذب القطر
ومن ذا الذى يهدى له بعدك السفر
فمتن جميعاً حين غيبك القبر

٩ - تشاؤم من عبد الله بن عبد الملك والى مصر (١)

لما ولى عبد الله بعد عمه عبد العزيز ، غلت الأسعار بمصر فتشام به المصريون ، وهى
أول شدة رأوها ، واتفق أنه خرج إلى أخيه الوليد الخليفة بالشام لمقابلته فقال زرعة
ابن سعد الله بن أبى زمزمة الخشنى :

إذا سار عبد الله من مصر خارجاً
أتى مصر والمكيال واف مغربل
فلا رجعت تلك البغال الخوارج
فما زال حتى سار والمسد فالج

١٠ - وصف لصنم (٢)

أرسل الوليد بن عبد الملك إلى مصر يأمر بكسر الأصنام التى بمصر فكسرت كلها ،
وكان منها صنم حمام زبان (وهو أصبغ بن عبد العزيز) وكان الصنم يمثل امرأة جميلة
فقال فيه كريب بن مخلد الجيشانى :

من كان فى نفسه للبيض مترلة
عبل لطيف هضم الكشح معتدل
فليأت أبيض فى حمام زبان
على ترائبه فى الصدر ثديان

(١) الولاة والقضاة ص ٥٩ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٧١ .

١١ — افتخار بكاسر المدى (١)

بعث أمير المؤمنين هشام بالمدى (٢) إلى مصر وأمرهم أن تتعاملوا به فأمر ابن رفاعه (الوليد بن رفاعه والى مصر يومئذ فطيف به على القبائل يخبرهم أن أمير المؤمنين أمر به فكل الناس سلم لذلك ، حتى أتى به إلى المعافر فعرض عليهم وأتى به إلى عبد الرحمن بن ناشرة المعافى فأخذه وكسره على حجر ثم قال إن لنا الويبة والإردب قد عرفناهما ولستنا نحتاج إلى هذا فقيل له (كاسر المدى) وصار هذا نسباً لبنيه بعد ذلك فيقال لهم بنو كاسر المدى .

وقد قال شاعرهم يفتخر بذلك :

قومي الذين تبادروا مدى الخليفة بالحجر
وتخزبوا وتعصبوا وجثو عليه فانكسر
من بعدما ذلت له أعناق يعرب بل مضر

١٢ — إحراق دار آل مروان المذهبة (٣)

لما دخل مروان بن محمد مصر هارباً من وجه العباسيين سنة ١٣٢ أمر بدار آل مروان فأحرقت فقيل له إنها دار بني عبد العزيز بن مروان وقد عظمت فيها النفقة فقال :
أن أبق أبنها لبنة من ذهب ولبنة من فضة فقال عيسى بن شافع ييكها :

يا طللاً أفدى وحل البلى منه لدى العاوى وفى السفلى
قد كنت مغنى لعيون المهمل وكنت مأوى لظبا الرملى
وكان أربابك ما إن لهم فى الناس من نـوع ومن شكل

(١) الولاة والقضاة ص ٧٨ .

(٢) مكيال استعمل بالشام ومصر وهو غير المد .

(٣) الولاة والقضاة ص ٩٥ .

الفصل الثالث

الأدب العربي في مصر

في عهد الولاة القبايين

- تمهيد
- الشعراء الطارئون
- مظاهر الأدب
- أمثلة من أقوال الشعراء

الأدب العربي في مصر

في عهد الولاة العباسيين

تمهيد

قدرة الولاة العباسيين بمصر

على إنعاش الأدب

لا نريد بحكم العباسيين تلك الأجيال الخمسة التي كان فيها خلفاء هذه الدولة يقومون ببغداد أو سر من رأى بين سنتي ١٣٢ ، ٦٥٦ هـ ، ولكننا نريد المدة التي كان فيها هؤلاء الخلفاء ولاة بمصر تابعون لهم خاضعون لأوامرهم مدينون لهم بولايتهم متوقعون لعزهم يجمعون المال برسم حكومتهم ثم يحملونه إلى بغداد صاغرين .

هذه المدة هي التي تنتهي بسنة ٢٥٤ هـ حين استقل أحمد بن طولون بمصر . فلمصر منذ ذلك العهد في حكم ابن طولون ومن وليه ممن أنشئوا بمصر دولاً مستقلة عن دار الخلافة شأن غير شأنها السابق .

وللمدة التي كانت بين سنتي ١٣٢ ، ٢٥٤ هـ وهي قرن وربع قرن ، حكم لا يكاد يختلف عما قبله من أيام الأمويين إلا بتلك الفوارق التي تفرق عامة بين الدولتين الأموية والعباسية . في عهد العباسيين كان العرب قد لانت جلودهم فأخلدوا إلى الراحة وألفوا الريف ونزلوا عن كثير من نخوتهم فعاشروا أهل البلاد وساكنوهم واتصلت بينهم أواصر الجوار والنسب . وكان عددهم قد تزايد خصوصاً بمن أجلاهم المأمون إلى مصر لخصه شوكة الأقباط الذين كانوا إلى عهده كثرة تزين لهم قوتهم أن يخرجوا على العمال ويهيجوا ضد العرب .

فبعد أن أوقع المأمون بهم عام ٢١٦ هـ استطاع العرب أن يطمئنوا في مساكنة الأقباط ، وتبع ذلك أن انتشرت لغتهم بين الأهليين كما ذاع الإسلام ودخل فيه كثير

من أهل البلاد ، حتى انشئت المساجد في القرى ولم يكن العرب مستطيعين ذلك قبل هذا الحين (١) .

كان الحكم الغالب على الأدب بمصر مدة هؤلاء الولاة أنه أدب مستعار طارىء على البلاد ، إذ كان الوالى يقدم من بغداد فيتبعه من كان يلوذ فيها به ، أو يتسامع شعراء الحضرة بوال يعطى على الشعر فيحضر أحدهم إلى مصر في رحلة قصيرة ريثما ينشد للوالى قصيدته ثم يعود إلى بغداد وكر الأدب ومثابة أهله .

فكما لم يكن بمصر ملك مستقر لم يكن لها أدب مستقر ، كما كانت خيراتها وأموالها منصرفة إلى بغداد ، كانت كذلك محرومة من ثمرات الأدب ، حتى حين جاد عليها الزمان بشاعر ينشأ فيها فينبه شأنه لا تتسع البلاد لمقامه فتسرع به آماله إلى حيث الجود بل التخرق فيه على كل نابع في أدب أو علم .

وقد آن أن نحصى نصيب مصر من هؤلاء الشعراء الطارئين عليها في عهد هؤلاء الولاة فكان لهم على مصر فضل أن ذكرت في دواوين الشعر وحفلت بذكرها مجالس الأدب .

(١) محاضرات الخضرى (بك) في الدولة العباسية ص ٤٤ .

الشعراء الطارئون على مصر في عهد الولاة العباسيين

١ - ربيعة الرقي :

يقول عنه صاحب الأغاني (١) : كان يتزل الرقة وبها مولده ومنشؤه ، فأشخصه المهدي إليه فمدحه بعدة قصائد وأثابه عليها ثواباً كثيراً وهو من المكثرين المجيدين وكان صريراً ، وإنما أنحمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء ومع ذلك فما عدم مفضلاً مقدماً له .

وذكره ابن المعتز فقال : كان ربيعة أشعر غرلاً من أبي نواس لأن في غزل أبي نواس برداً كثيراً وغزل هذا سليم عذب سهل .

وقد اشتهر من قول ربيعة أبيات يمدح بها يزيد بن حاتم ، وإلى مصر من قبل المنصور سنة ١٤٤ هـ وقد دام بها إلى سنة ١٥٢ فكانت ولايته عليها سبع سنين وأشهرأ ، وهي (٢)

لشتان ما بين اليزيديين في الندي	يزيد سليم والأغر بن حاتم
فهمّ الفتي الأزدي إتلاف ماله	وهمّ الفتي القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب التمام أنى هجوتسه	ولكنني فضلت أهل المكارم
فيا بن أسيد لا تسام ابن حاتم	فتقرع إن ساميته سن نــــدام
هو البحر إن كلفت نفسك خوضه	تـهاكـت في موج له متــــلاطم

وهذه الأبيات من قصيدة قالها ربيعة يمدح بها يزيد بن حاتم لما عزل عن إمرة مصر أولها :

(١) ج ١٥ ص ٣٧ طبعة السامر .
(٢) المرجع السابق .

بكى أهل مصر بالدموع السواجم عدا غدا منها الأغر ابن حام
قال صاحب النجوم الزاهرة (١) : ، وكان يزيد مقصداً للناس محباً للشعر وأهله .
مدحه عدة شعراء . قيل إن ربيعة المتقدم ذكره (يريد الرقي) قصده فاشتغل عنه يزيد
فخرج وهو يقول :

أرائى ولا كفران لله راجعاً يخفى حنين من يزيد بن حاتم
فبلغ يزيد فرده وملاً خفيه ذهباً .

ولعل أول ما يدل على غزل هذا الشاعر وصدق كلمة ابن المعتز فيه أنه أحب جارية
تسمى عثمة لرجل من أهل قرقيسيا يقال له ابن مراكان قد ولّى لبنى هاشم مصر فأصاب
مالاً عظيماً ، فلما علم بحب ربيعة لجاريته أحضره إليه وعرض عليه أن يهبها له فقال :
لا تهبها لي فإن كل مبدول مملول فأكره أن يذهب حبها من قلبي ولكن دعني أواصلها
هكذا فهو أحب إلى : وقد قال فيها : (٢)

اعتاد قلبك من حبيبك عيـده	شوق عراك فأنت عنه تذوده
والشوق قد غلب القواد فقـاده	والشوق يغلب ذا الهوى فيقـوده
في دار مرار غزال كنيسة	غزل عليه خـزوزه وبـروده
ريم أغر كأنه في حسنه	صنم يحج بيعة معبـوده
عيناه عينا جؤذر بصريه	وله من الظبي المربب جيـده
ما ضر عثمة ان تلم بعـاشق	دنف القواد متم فتعـوده
وتلده (٣) من ريقها فلربما	نفع السقيم من السقام لـدوده

٢ - دعبل الخزاعي :

يقول عنه صاحب الأغاني (٤) : شاعر مقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم
عليه أحد من الخلفاء ولا وزراءهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن .
ولا أفلت منه كبير أحد ، وكان شديد التعصب على الزارية للقحطانية وكان من
الشيعة المشهورين بالميل إلى على رضي الله عنه . وقصيدته :

- (١) ج ٢ ص ٢ .
(٢) الأغاني ج ١٥ ص ٤١ طبعة الساسي .
(٣) تلدة : نسقية اللود وهو الدواء .
(٤) ج ١٨ ص ٢٩ طبعة الساسي .

مدارس آيات خلت من تلاوة ومتزل وحى مقفر العرصات

من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت . قصد بها أبا علي موسى الرضا بخراسان فأعطاه عشرة آلاف درهم من الداراهم المضروبة باسمه وخلع عليه خلعة من ثيابه ، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم فلم يبيعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها فقال لهم إنها إنما تراد لله عز وجل وهي محرمة عليكم فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم فحلف لا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفته فأعطوه فردكم فكان في أكفانه . وكتب قصيدته هذه على ثوب وأحرم فيه وأمر أن يكون في أكفانه .

ولم يزل مرهوب اللسان خائفاً من هجائه للخلفاء فهو دهره كله هارب متوار .

وفي معاهد التنصيص عن دعبل (١) ، قال : (كان دعبل يخرج فيغيث سنين يدور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى وكانت الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه . وكانت مصر بعض مطارح غربته (٢) فقصد بها إلى المطلب ابن عبد الله بن مالك الخزاعي وهو وال عليها من قبل المأمون ومدحه بقصيدة يقول فيها :

أبعد مصر وبعد مطلب ترجو الغنى إن ذا من العجب
إن كاثرونا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلب

وكان من إكرامه له أن ولاه أسوان ولكن طبع دعبل الخبيث غلب عليه فهجاه فعزله المطلب . وفي الأغاني أيضاً حديث طويل عن دعبل واتصاله بالمطلب بن عبد الله الخزاعي وإلى مصر رأينا أن نسوقه كله ليكون فيه سلوة للقارئ عما أصاب أخبار الأدب بمصر من نضوب وقلة قال صاحب الأغاني (٣) .

أخبرني محمد بن المرزبان قال حدثني إبراهيم بن محمد الوراق عن الحسين بن السري عن عبد الله بن أبي الشيص . قال حدثني دعبل قال حجبت أنا وأخي رزين وأخذنا كتباً إلى المطلب بن عبد الله بن مالك وهو بمصر يتولاها فصرنا من مكة إلى مصر فصحبنا رجل يعرف بأحمد بن ملان السراج ، فما زال يحدثنا ويؤانسنا طول طريقنا ويتولى خدمتنا كما يتولاها الرفقاء والأتباع ، ورأيناه حسن الأدب وكان شاعراً ولم نعلم وكنتمنا نفسه وقد علم ما قصدنا له فعرضنا عليه أن نقول قصيدة في المطلب وننحله

(١) ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) الوفيات ج ٣ ص ٢٦ .

(٣) ج ١٨ ص ٤٧ ، ٤٨ من طبعة الساسي .

أيها فقال إن شئت وأرانا بذلك سرورا وتقبلا له .

وعملنا القصيدة وقلنا له تنشدها المطلب وإنك تنتفع بها فقال نعم . ووردنا مصربه
فدخلنا إلى المطلب وأوصلنا إليه كتبنا كانت معنا وأنشدناه فسر بموضعنا ووصفنا له
أحمد السراج هذا وذكرنا له أمره فأذن له فدخل عليه ونحن نظن أنه سينشد القصيدة
التي نحلناه إياها . فلما مثل بين يديه عدل عن شعرنا وأنشده :

لم آت مطلبا إلا بمطلب وهمة بلغت في غاية الرتب
أفردته برجاء أن تشاركه في الوسائل أو ألقاه في الكتب

ثم أنشده :

رحلت عيسى إلى البيت الحرام على
ألقى بها وبوجهي كل هاجرة
حتى إذا ما قضت نسكي ثنيت لها
فأممتك وقد ذابت مفاصلها
إني استجرت بأستارين مستلما
فذاك للأجل المأمول المسه
هذا ثنائى وهذى مصر سائحة
ما كان من وصب فيها ومن نصب
تكاد تقدح بين الجلد والعصب
عطف الزمام فأمت سيد العرب
من طول ما تعب لاقى ومن نقب
ركنين مطلبا والبيت ذا الحجب
وأنت للعاجل المرجو والمطلب
وأنت أنت وقد ناديت من كتب

فصاح المطلب ، لييك لبيك ثم قام إليه فأخذه بيده وأجلسه معه وقال :

يا غلمان : البدر ، فأحضرت ثم قال : الخلع ، فنشرت ثم قال : الدواب فقيدت
فأمر له من ذلك بما ملأ عينه وأعيننا وصدورنا ، وحسدناه عليه وكان حسدنا له بما
اتفق له من القبول وجود الشعر وغيطنا بكتمه إيانا نفسه واحتياله علينا أكثر وأعظم
فخرج بما أمر له به وخرجنا صفرا .

قال : فمكثنا أياما ثم ولى دعبل بن على أسوان ، وكان دعبل قد هجا المطلب
غيظا منه فقال :

تعلق مصر بك الخـزيات وتبصق في وجهك الموصول
وعاديت قوما فما ضرهم وشرفت قوما فلم ينبلوا
شعارك عند الحروب النجاء وصاحبك الأخور الأنفل
فأنت إذا ما التقوا آخر وأنت إذا انهزموا أول

وبلغ المطلب هجاؤه إياه بعد أن ولاه فعزله عن أسوان ، فأنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة فإذا علاه فأوصل إليه الكتاب وامتنعه من الخطبة وأنزله عن المنبر واصعد مكانه ، فلما أن علا المنبر وتنحنج ليخطب ناووله الكتاب فقال له دعبل دعنى أخطب فإذا نزلت قرأته قال لا قد أمرنى أن أمتنع الخطبة حتى تقرأه فقرأه وأنزله عن المنبر معزولا .

قال دعبل قال لى المطلب يوما : ماتفكرت فى قولك

إن كاثرونا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطاب
إلا كنت أحب الناس لى ، ولا تفكرت والله فى قولك
وعاديت قوما فما ضرهم وقدمت قوما فلم ينبلوا
إلا كنت أبغض الناس لى .

٣ — عوف بن محلم الخزاعى :

قال عنه فى معاهد التنصيص (١) : هو أحد العلماء الأدباء الرواة الفهماء الندماء الظرفاء الشعراء العظماء ، وكان صاحب نوادر وأخبار المعرفة بأيام الناس واختصه طاهر بن الحسين بن مصعب لمناذمته ومسامرته فلا يسافر إلا وهو معه فيكون زميله وعديله ويعجب به . وكان سبب اتصاله به أنه نادى طاهرا وهو بحراقة له يعبر دجلة ، بهذه الأبيات :

عجبت لحراقة ابن الحسين كيف تعموم ولا تغرق
ونحران من تحتها واحد وآخر من فوقها مطبق
وأعجب من ذاك عيدانها وقد مسها كيف لاتورق

بقى عوف مع طاهر ثلاثين سنة لا يسمح له طاهر بالإلام بأهله ، فلما مات طاهر ظن عوف أنه يستطيع الإفلات فقربه عبد الله بن طاهر وأنزله منه منزله من أبيه ، فما أقلت منه إلا لمناسبة اتفقت له معه . ولما سار إلى أهله لم يصل إليهم ومات فى الطريق فى حدود العشرين والمائتين .

أما هذه المناسبة فهى أنه كان خارجا مع عبد الله من بغداد إلى خراسان فلما شارفا الرى سمعا صوت عندليب فأعجب ذلك عبد الله وقال قاتل الله أبا كبير حيث يقول :

(١) ج ١ ص ١٢٧ .

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر وغصنك ميساد فقيم تنوح
أفق لا تنح من غير بين فلأني بكيت زمانا والفؤاد صحيح
ولوعا فشطت غربة دار زينب فيها أنا أبكي والفؤاد قريح

فقال عرف أحسن والله وأجاد أبو كبير ، إنه كان في الهذليين مائة وثلاثون شاعرا
ما فيهم إلا مقلق ، وما كان فيهم مثل أبي كبير ، فطلب إليه عبد الله أن يميز الأبيات
فقال :

أفي كل عام غربة ونزوح أما للنوى من ونية ففريح
لقد طلح البين المشت ركائبي فهل أرين البين وهو طليح
وأرقني بالرؤى نوح حماسة فتحت وذو اللب الغريب ينوح
على أنها ناحت ولم تذر دمععة ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بجيث تراهما ومن دون أفرأخي مهامه فيح
ألا يا حمام الايك إلفك حاضر وغصنك ميساد فقيم تنوح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى فتلقى عصا التطواف وهي طريح
فإن الغنى يدنى القى من صديقه وعدم الغنى للمعسرين طروح

فاستعبر عبد الله وترق وقال إني لضمن بمغادرتك وشجيت على الفاتت من محاضرتك :
ولكن والله لا أعملت معي خفا ولا حافرا إلا راجعا إلى أهلك ومما ورد في ابن خلكان (١)
عن ولاية عبد الله لمصر قوله : وكان عبد الله قد تولى الشام مدة والديار المصرية مدة
وفيه يقول بعض الشعراء وهو بمصر :

يقول أناس إن مصر بعيدة وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر
وأبعد من مصر رجال تراهم بحضرتنا معروفهم غير حاضر
من الخير موتى ما تبسالى أزرهم على طمع أم زرت أهل المقابر

وتنسب هذه الأبيات إلى عوف بن محلم والله أعلم .

وفي كتاب الولاة والقضاة « (٢) : قصد عبد الله بن طاهر مصر سنة ٢١٠ هـ فحارب
عبيد الله بن السرى حتى هزمه ثم أمته بأمر أمير المؤمنين المأمون ، وولى عبد الله المأمون
عبد الله بن طاهر مصر على صلاتها وجبايتها سنة ٢١١ هـ في ربيع الأول فبقى بها إلى

(١) ج ١ ص ١٦٢ .

(٢) ص ١٨٤ .

رجب سنة ٢١٢ هـ فكان مقامه بها سبعة عشر شهراً . اهـ ملخصاً .

قد روينا لك كل ما كان من علاقة عوف بعبد الله بن طاهر وليس به شيء صريح في أن عوفاً كان مع عبد الله في مصر. ولكننا نستنبط ذلك استنباطاً من قول صاحب معاهد التنصيص أنه فارقته حين كان خارجاً معه من بغداد إلى خراسان وأنه مات في الطريق في حدود سنة ٢٢٠ فكأنه كان معه كل المدة التي عاشها عوف قبل ذلك متصلة بالثلاثين سنة التي عاشها مع أبيه طاهر ، وهذا نستنبطه استنباطاً فنقول إنه كان معه في مصر لأن مدة إقامة عبد الله بمصر داخلة في هذه المدة ، وإن لم يقله أحد من الذين ترجموا لعبد الله أو لعوف ، وما ذلك إلا لأن هذا الحادث من أخبار مصر التي قلنا لك لأنها لا تهم المؤرخين كما تهمهم أخبار العراق أو غيره .

وعلى ذلك نرجح ما فوض فيه ابن خلكان العلم إلى الله ، من أن هذه الأبيات (يقول إناس إن مصر بعيدة) هي لعوف لأنها من طبيعة شعره في جزالة لفظها وجودة معناها .

٤ — محمد بن يزيد الحصني :

كان من شأنه أن عبد الله بن طاهر لما قال قصيدته التي يفخر فيها بمآثر أبيه وأهله ويذكر قتلهم للمخلوع ، عارضه محمد هذا فأفرط في السب وجاوز الحد في قبج الرد ، وكان مما قال فيه (١) .

يا بن بيت النار موقداها	ما لحاذيه سراويل
من حسين من أبوك ومن	مصعب غالتكم غول
نسب في الفخر مؤتشب	وأبوات أراذيل
قاتل المخلوع مقتول	ودم المقتول مطلول

فلما ولي ابن طاهر مصر ورد إليه تدبير أمر الشام علم الحصني أنه لا يفلت منه فثبت في موضعه وممر به عبد الله (والحصني لا يعرفه) فرآه جالسا على باب حصنه مسترسلا غير محترس من هذا الجيش القادم فقال له : ما أجلسك ههنا وحملك على أن تفتح بابك ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل ولم تنتج عن عبد الله بن طاهر مع ما في

١ (١) الاغانى ج ١١ ص ١٢ (طبعة السامى) .

نفسه عليك وما بلغه عنك . فقال : إن ماقلت لم يذهب على ولكني تأملت أمرى وعلمت
أنى أخطأت خطيئة حملني عليها نزع الشباب وغرة الحداثة وإنى إن هربت عنه لم أفته .
وانتهى الحديث بينهما بأن عرف الحصنى أن محدثه هو عبد الله بن طاهر وعفا عنه
عبد الله وطلب منه أن يلحق به في مصر . ولم يزل معه لا يفارقه حتى رحل عبد الله
إلى العراق فودعه وأقام ببلدته (١) .

وقد تلاحظ أننا لم نرو للحصنى شيئاً يكون قد مدح به ابن طاهر ، وذلك أننا بحثنا
عن شيء من ذلك فلم نجد مع أن الخبر فيه دلالات على أن الحصنى لا بد أن يكون قد
مدح ابن طاهر ، فهو شاعر يقدر على القول ، وقد عفا عنه ابن طاهر فوجب أن يقوم
بحق الشكر ولا شكر من الشاعر إلا بشعره . وعبد الله قد ضمه إليه وبالحق في إكرامه
وتلك وحدها تستلزم شكراً آخر ، ولكن ما ثبت لك من عدم اهتمام الرواة بأخبار مصر
خصوصاً في باب الأدب هو الذى جعل تاريخ هذه القصة يخلو من شعر .

٥ — أبو نواس :

من كتاب أخبار أبى نواس (٢) أنه لما قدم على الخصيب بمصر أذن له وعنده
جماعة من الشعراء فاستنشده فقال : هنا جماعة من الشعراء هم أقدم منى وأسن فأذن
لهم ، فإن كان شعري نظير أشعارهم أنشدت وإلا أمسكت . فلما أنشدوه لم تكن
أشعارهم مقاربة شعر أبى نواس فتبسم أبو نواس ثم قال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هى
بمتزلة عصا موسى تلقف ما يأفكون قال : هات ، فأنشده القصيدة التى أولها :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير
حتى أتى على آخرها فانفض الشعراء من حوله .
ومن هذه القصيدة قوله :

تقول التى من بيتها خف محملى عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب بلى ، إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بواذر جرت فجرى من جريهن عبير

(١) القصة ملخصة عن الأغاني ج ١١ ص ١٢ ، ١٣ (طبعة السامى) .

(٢) ص ٢٣٤ .

ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا فأى فتي بعد الخصيب نزور
ففى يشتري حسن الثناء بما له ويعلم أن الدائرات تسدور
فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير
وهى طويلة ، وقد أمر له الخصيب بألف دينار .

فلما كان الغد دخل عليه فأنشده قصيدة منها :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدققا فكلكما بحر
لا تقعدا بى عن مدى أملى شيئا فما لكما به عذر
ويحق لى إذ صرت بينكما ألا يحل بساحتى فقير
الليل ينعش ماؤه مصرا ونذاك ينعش أهله الغمر

ولما قال له : أنت الخصيب وهذه مصر إلى آخر القصيدة قال له الخصيب : إذا
لا يجيب أملك ولا ينقطع مرادك ، ثم أمر له بألف دينار أخرى فقبض الألفين ثم كر
عليه فى اليوم الثالث فأنشده :

منحتكمو بأهل مصر نصيحتى ألا فخذوا من ناصح بنصيب
ولا تثبوا وثب السفاة فتحملوا على حد حامى الظهر غير ركوب (١)
فإن يك باقى إلفك فرعون فيكمو فإن عصا موسى بكف خصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية أكلول لحيات البنادل شروب

وكان أهل مصر قد هتفوا على الخصيب لزيادة فى أسعارهم ، وكان على شربه
وعنده أبو نواس فوثب أبو نواس وقال : (دعنى أيها الأمير أكلهم فقال : ذاك
إليك ، فخرج حتى وافى المسجد الجامع وقد تواعدوا أن يجتمعوا فيه فأنشد هذه الأبيات
ويقال إنه ارتجلها على المنبر فلما سمعها من اجتماع تفرقوا فلم يبق أحد منهم . وعاد
إلى مجلس الخصيب فأمر له بألف أخرى . وقال له ارتحل فمالك عندنا مقام وزوده
من طرائف مصر ووهب له جارية حسناء ووصيفا نظيفا .

عاد أبو نواس إلى بغداد وشاع فيها ما قال للخصيب بمصر فقال له الرشيد يوما
أنشدنى قولك فى الخصيب (منحتكمو بأهل مصر مودتى) فلما وصل إلى قوله :

(١) السفاة بالضم : الحبة وقوله : على حد حامى الظهر غير ركوب : يريد به السيف .

فإن يك باقى فرعون فيكمو فإن عصا موسى بكف خصيب
فقال له الرشيد ألا قلت : فباقى عصا موسى بكف خصيب فقال له هذا يا أمير
المؤمنين أحسن ولكنه لم يقع لى (١) .
ولأبى نواس حين كان بمصر مداعبة ظريفة مع معاوية بن حديج الطبيب المصرى
وكان عالما فليسوفا فقال له أبو نواس (٢) .

كلنا بابن حديج لك فى العلم خول
غير أن الطب أولى بك من كل عمل
أنت فيه فيلسوف وبصير بالعلل

٦ - أبو تمام الطائى :

وهذا شاعر عرف مصر أولاً، إذ قد نشأ بها وقال أول شعره فيها وكان أول أمره
يسقى الماء بالجرة فى جامع عمرو لىقتات . فلما لم تعرف مصر قدره ورأى ما بالبلاد
من نضوب الجود، وعلم أن همم الولاة بها لا تنهض بآماله أسرع إلى بغداد عيش الأدب
ومثابة كل طامع فى الثراء والشهرة، فلما شاع له فى بغداد ذكر وطارت شهرته بكل
مكان ظن أنه إن زار مصر عرفت له مكانته إذ كان منشؤه ومرماه بها ، ولكنه لم
يصادف بها إلا كل إهمال وازدراء لشأنه . وكان الوالى الذى قصده وهو عياش
ابن لميعة الحضرمى صاحب خراج مصر فمدحه أبو تمام فلم يلتفت إليه فأعاد الكرة
مستبطلا فلم يأبه له فعاتبه فلم يبال بالعتاب ، فهجاه وهجا مصر من أجله . وبلغ من
حنقه عليه أن هجاه وهو ميت . فمما قال فى مدحه :

رأيت لعياش خلأقق لم تكن
له كرم لو كان للماء لم يغض
أخو أزمات بذله بذل محسن
إذا أمه العافون ألفوا حياضه
إذا قال أهلا مرحباً نبعت لهم
لتكمل إلا فى الأديب المهذب
وفى البرق ما شام أمرؤ برق نخب
إلىنا ولكن عذره عذر مذنب
ملاء وألفوا روضه غير مجذب
مياه الندى من تحت أهل ومرخب

(١) أخبار أبى نواس ص ٢٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٣ .

ومما قاله في استبطائه :

الفطر والأضحى قد انسلخا ولى
عام ولم ينتج نسدك وإنعسا
أمل ببابك صائم لم يفطر
تتوقع الحبل لتسعة أشهر
قصر بذلك عمر مطلق تحولى
مدحا يعمر عمر سبعة أنسر

وقال يعاتبه :

لن يهز التصريح للمجد والسو
كل يوم نوع يقفيه نوع
ووقوف قد ضج منها استعمل فيها المرفوع والمخفوض
يا محب الإحسان فى زمن أصبح فيه الإحسان وهو بغيب
قل لعل لابن عثرة ماله منها بشيء سوى نذاك نهوض

وقال يذمه :

ستعلم يا عياش إن كنت تعلم
وقفت عليك الظن حتى كأنما
فتندم إن خلاك جهلك تندم
لديك الغنى أليس فى الأرض درهم
ولأنك من مال وجود ومحتد
لأعدم من أن يستريشك معدم

وقال فيه بعد موته :

فيمن يشن الشعر غاراته
قد كانت الدنيا شفت لوعى
بعدك أو أمثاله السائره
منك ولكن عدت بالآخره
يا أسد الموت تخلصته
من بين لحي أسد القاصره (١)
أجارك المكروه من مثله
فاقرة نجتك من فاقره

فالذى يمكننا أن نعهده من هؤلاء الشعراء الطارئين على مصر ، سنة فحسب . إذا
بجئنا دواعيهم فى القدوم إلى تلك البلاد رأيناها دواعى خاصة لا يصح أن يصدر عنها
حكم ينفع الأدب بمصر أو يدل على أن سياسة الولاة كانت متجهة إلى إنعاشه .

(١) القاصرة موضع يمر به السائر من مكة إلى مصر . مر به عتبة بن أبى لهب فأكله
أسد بهذا المكان .

ذلك بأن ربيعة الرقي كان وثيقاً للعلائق ييزيد بن حاتم قبل ولايته على مصر ، وقد قصده في ضيقة ففرج همه وقضى دينه وقال فيه الأبيات السابقة موازناً بينه وبين يزيدي ابن أسيد السلمي ، فعلى حين أعطاه يزيدي بن أسيد بعد أن وقف ببابه حولاً كاملاً خمسمائة درهم وهو ابن عمه ، أعطاه يزيدي بن حاتم ما أخصب به جنابه ، إذ ملأ خفيه دنائير وأمر له بغلمان وكسا . (١)

أما دعبل فقد علمت أنه كان موكلاً بقضاء الأرض يزريه ، فليس في قدومه إلى مصر حافز له سوى قلقه الدائم وفراره من وجوه من هجأهم من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة .

وأمر عوف بن محلم معروف ، فقدومه إلى مصر إنما كان تابعاً لقدوم عبد الله ابن طاهر الذي كان قد اختص به ولم يسمح له بالالمام بأهله إلا بحيلة أعملها الشاعر وكان أجله قد انتهى فوافاه قبل موافاة أهله .

وقصة الحصني مبنية عن حاجة الرجل إلى طلب أقصى مناحي العفو من قلب ابن طاهر حتى ينسى حقه عليه .

وأبو تمام طمع في وال بمصر فلم يظفر منه بشيء حتى ذمه بعد موته ، وذلك منتهى الحقد والضغن فلم يبق إلا شاعر واحد من الستة هو الذي كان قدومه لمحض الطمع في عطاء الأمراء بمصر وظفر بطلبته ذلك هو أبو نواس .

ثم ألا يدل على انصراف الأمراء بتلك البلاد عن معونة الأدب وإنعاشه أن ترى من هؤلاء الشعراء الستة اثنين اتصلوا بأمر واحد وهما عوف والحصني . اتصالاً بعيد الله ابن طاهر المشهور بأدبه وغناه ومسابقته وسابقة أبيه في خدمة الدولة .

وفي قصة أبي نواس دلالة أخرى على ضعف الأدب بمصر وانحطاط درجة شعرائها إذ ذاك ، فقد مر بك أن الشعراء كانوا كثيرين حول الحصيب فطلب أبو نواس أن يتقدموه بالإنشاد فلما فعلوا ابتسم لشعرهم ابتسامة الاستهزاء وعلم أنهم لا يقاربونه فجعل قولهم بمثابة سحر المشعوذين من قوم فرعون ، وإذا بشعرهم أمام شعره حطام من جبال وعصى .

(١) الأغاني ج ١ ص ٤٠ ، ٤١ (طبعة الساسي) .

مظاهر الأدب بمصر أيام ولاية العباسيين

استطعنا في الفصول السابقة أن نتكلم عن مظاهر الأدب بمصر فجعلناها ثلاثة هي الكتابة والخطابة والشعر . واستطعنا أن نسجل تحت كل عنوان من هذه العناوين الثلاثة ، نماذج رويت عن أهل مصر ، وإن كانت قليلة لا تشبع نهمة الراغب في التلمؤ من تلك الآداب لتمثل لها في ذهنه صورة واضحة يتميز بها عصر عن عصر .

أما في عهد ولاية العباسيين الذي قلنا إنه يبدأ من سنة ٢٣٢ هـ إلى سنة ٢٥٤ هـ فقد أعيانا البحث عن رسائل تبودلت بين الولاة والخلفاء ، أو خطب خطبها أولئك الولاة ، فلم نعر على شيء من ذلك . وليس معنى هذا أنهم لم يكونوا يرسلون أو يخطبون ، ولكن سببه ما قدمنا من ضعف أمر الرواية بمصر أو انصراف هم المؤرخين إلى حوادث العراق لوقوع مقر الخلافة فيه .

ففي الكتابة لم نرهم رويوا كتاباً ولا فصلاً من كتاب ولا عرفونا اسم كاتب اشتهر بآثار قلمه .

أما الخطابة فإننا لم نظفر على كثرة ما اطلعنا إلا بأشادتهم بذكر إسماعيل ابن صالح العباسي الذي ولي مصر سنة ١٨١ هـ . قال ابن عفير (١) : « ما رأيت أحداً على هذه الأعواد أخطب من إسماعيل بن صالح بن علي » . ولا غرو فهو عباسي من سلالة أوائك، اللسن المتناول الذين عرفنا شأنهم في العراق .

وجدير أن تكون الخطابة قد انحطت بمصر منذ صاريلى أمر البلاد أولئك الأتراك بعد أن كثروا في الدولة العباسية وصار إليهم تدبير شأنها ، مثل اشناس ويزيد وأزجور التركيين .

أما الشعر فهو المظهر الذى نحكم حقاً بأنه قد نما في هذا العهد وزاد عما كان عليه في العهدين السابقين ، فقد رأينا لمصر شعراء نشئوا بها وعاشوا فيها وتبعوا حوادثها فسجلوها ، وإن كانوا طبقة دون طبقة . هؤلاء الشعراء الطارئون الذين كانوا يقدمون لمدح الأمراء

(١) الولاة والقضاة ص ١٣٨ .

أو البقاء في كنفهم مدة ولايتهم . فهؤلاء شعراء نشئوا بالعراق حيث الرواية الكثيرة والشعر المهذب ، وحيث الحصافة المستفادة بالعلوم الكثيرة التي شاعت بالعراق في تلك الأيام .

كان العرب بمصر على عهد الأمويين يعيشون كما ذكرنا آنفاً على حالة البداوة وكان الذين قالوا الشعر منهم إنما قالوه بالسليقة العربية والملكة التي لم يكن الاختلاط قد عدا عليها . فأما في العصر العباسي فقد كان للشعر شأن آخر ، إذ كان قد نشأ في البلاد جيل من الناس ضعفت فيهم السليقة العربية فاحتاجوا إلى تنويرها بمدارس اللغة ، وساعدهم على ذلك أن الحركة العلمية كانت قد نشطت بمصر تبعاً لنشاطها في العراق ، فرحل من المصريين إلى بغداد والحجاز من تلقى عن علمائهما الدين والعربية ، وكذلك هاجر إلى مصر من علماء الإسلام من تولى تعليم أهلها الدين واللغة ، وذلك إلى جانب الكتب التي كانت تظهر ببغداد فتنقل نسخها إلى مصر . فكان لكل ذلك أثر في ذبوع ثقافة علمية أدبية بمصر لم يكن لها بها عهد من قبل . وقد ساعدت تلك الثقافة على أن يوجد بمصر علماء وأدباء يدرسون الدين وعلوم العربية من شعر ونحو ، فنشأت طبقة من الشعراء تقول الشعر المهذب ، ولكنه شعر مناسب لمقدار تلك الثقافة التي وصلت إلى المصريين ، وهي لم تكن بجانب ثقافة العراقيين خصوصاً في العلوم العقلية المترجمة إلا وشلا من بحر .

على أن تلك القلة في هذا النوع من الثقافة خاصة كان لها أثر محمود في شعر المصريين ، إذ قد برئ من التعقيد وساير الطبع إلى حد بعيد ولم يفش فيه البديع الذي أثقل كاهل الأدب ببغداد على يد مسلم وأبي تمام ومن نحائهما .

وكان قد لزم هذا العصر اضطراب في السياسة بمصر ، فكان الولاة لا يكادون يستقرون بها ، وهي سنة جرى خلفاء بني العباس عليها لخوفهم من طموح هؤلاء إلى الاستقلال بالبلاد ، ولكثرة الفتن التي كانت تنشأ بها من قبائل العرب ضد الولاة أو من بعضهم ضد بعض ، أو من قيام العلويين بمصر يطالبون بالخلافة ، أو من الأقباط يثورون على الحكام منفردين أو متحدين مع المسلمين . وقد بلغ من سرعة تغيير الولاة أنهم بلغوا في عهد الرشيد سبعة عشر ، وفي عهد المأمون ثلاثة عشر .

وقد كان لهذه الحال أثر في الشعر ، فقد رأينا شعراء مصر يقولون في ذلك كثيرًا منددين بالولاة ، ناعين عليهم ظلمهم ، أو داعين إلى طاعتهم .

ونحن نورد أمثلة من أقوال الشعراء المصريين في حوادث السياسة ببلادهم .

أمثلة من أقوال الشعراء المصريين في حوادث السياسة ببلادهم

١ - موسى بن مصعب وثورة العرب ضده :

ولى مصر موسى بن مصعب من قيل المهدي فتشدد في استخراج الخراج وزاد على كل
فدان ضعف ما كان عليه فعقدت قيس والبنانية حلفا فيما بينهم وقاوموا عماله فحاربهم
موسى فانهمز وقتل فقال سعيد بن عفير في ذلك يذكر أهل الخوف (١)

ألم ترهم ألوت بموسى سيوفهم وكانت سيوفاً لا تدين لمترف
فما برحت فيه تعود وتبتلى إلى أن تردى من حمام مدنف
فأصبح من مصر وما كان قد حوى بمصر من الدنيا سليبا بثمنصف
ولكن أهل الخوف لله فيهمو ذخائر إن لا ينقذ الدهر تعرف

٢ - إذعان أهل الخوف ليحيى بن معاذ :

كان أهل الخوف يأبون دفع الخراج ويشاغبون على العمال فأرسل أمير المؤمنين
هرون الرشيد يحيى بن معاذ فتزل بجيشه بلبس فأذعن أهل الخوف بالخراج وكان الشاعر
أبو عثمان السكري قد نصحهم بقوله : (٢)

يا قيس عيلان إني ناصح لكم أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا
إني أحذرکم يحيى وصولتكم فما رأيت له بقيا إذا غضبنا

٣ - وفاء كوفاء السموع :

كان المطالب بن عبد الله الخزاعي والى مصر من قبل المأمون ، قد طلب لإبراهيم
ابن نافع الطائي فظهر له أنه مستجير بهيرة بن هاشم مستتر عنده فأحضر المطالب هيرة
وعرضه على السيف أو يأتيه بالطائي فامتنع هيرة ، فلما سكن المطالب عن الطائي
أخرج هيرة إلى الصعيد فأقلت فقال سعيد بن عفير (٣).

(١) الولاة والقضاة ص ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٣) الولاة والقضاة ص ١٥٢ .

لعمري لقد أوفى وفاق وفاؤه هبيرة في الطائي وفاء السموي
وقاه المنايا إذ أتاه بنفسه وقد برقت في عارض متهلل
فما انفك محبوباً ومطلب له عليه قصيف بالوعيد المهول
فما زاده الإيعاد إلا توقرا وصبرا ولم ينخشع ولم يتفكك
إلى أن تجلت عنه أبيض ماجدا كريم النثا في المشهد المتدخل

٤ - سليمان بن غالب والسري بن الحكم :

ولى سليمان بن غالب مصر سنة ٢٠١ فقبض على السري بن الحكم وسيره إلى إخميم
من صعيد مصر فكتب السري إلى بني مدلج فلحقوا به هم وكثير من الناس وأقبل فيهم
السري إلى القسطنطين فقاتله جيش سليمان وتغلب عليه فقال معلى الطائي (١) .

إذا شن في أرض سليمان غارة أثار بها نفعاً كثير المصائب
ألم تر مصرا كيف داوى سقيمها على حين دانت للعدو المناصب
حماها ولولا ما تقلد أصبحت حبساً على حكم القنا والمقانب

٥ - رثاء ميمون بن السري :

مات ميمون في قتال بينه وبين عبد العزيز الجروي فقال معلى الطائي يرثيه (٢)

لورد غرب منية بشجاعه أحد لدافع ركنها ميمون
لو كان تجريد السيوف يرددها لحماه منها منصل وثمين
مازلت أطمع في رجوعك سالماً ويروغنى شفقاً عليك ظنون
فليفجعن غدا بقتلك طاهر وليفجعن بقتلك المأمون

٦ - عبيد الله بن السري وعبد الله بن طاهر :

لما أقبل عبد الله بن طاهر إلى مصر لتهدئة فتنها بعث إلى عبيد الله بن السري يدعوه
إلى الطاعة فلم يدعن فاضطر إلى محاربته ، ولكنه جاء كتاب من المأمون بتأمين عبيد الله
فأمنه ابن طاهر . وكان عبيد الله بن السري صغيراً ملقباً بالأمرد ليس له صبر على الحروب
فقال أحمد الحمراوي يتهكم به (٣)

(١) المرجع السابق ص ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .

(٣) الولاة والقضاة ص ١٨٢ .

أترجو مهاة دفع ضرغام غابة اشتان ما بين المها والمـزابر
ولإن أحق الناس أن يشهد الوغى ويقصف أصلاب الملوك الجبابر
لمن لم يكن في الروع في زى غادة ولم يحتجب صبحا لمشط الضفائر
٧ - خروج عبيد الله بن السرى إلى بغداد :

لما خرج ابن السرى إلى بغداد بعد تأمينه بأمر المأمون قال فيه حبيب بن أوس
الطائي (أبو تمام قبل أن يخرج من مصر راحلا إلى بغداد)
فأورده بغداد بهوى برجائه ذمول ترامى في قلاص ذوامـل
فأصبح قد زالت ظلال نعيمه وأى نعم ليس يوما بزائـل
٨ - مقتل عمير بن الوليد :

كان عمير والياً على مصر فخرج لإخضاع أهل الخوف فانهزموا ولكنه قتل في تلك
الموقعة فقال أبو تمام (١)
الارزئت خراسان فتاهـا غداة ثوى عمير بن الوليد
فيا يوم التـلاثا كم كـئيب رماه الحزن فيك وكم عـيد
فكم سـخت فينا من عـيون وكم أعـبرت فينا من خـدود
فما زـجرت طيورك عن سـنيح ولا طلعت نجومك بالسـعود
هذه صور من شعر شعراء مصر في هذه الفترة يتجلى فيها ما قدمنا لك من سـداجة
وبساطة وبراعة من الصنعة وقد كان كل ذلك نتيجة للبيئة المصرية التي صورناها لك في
مقدمة هذا الفصل .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٦ .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الحركة العلمية في مصر

من الشيخ الإسلامى إلى انتهاء عصر الولاة العباسيين

من سنة ٢٠ إلى سنة ٥٢٥٤

- تمهيد
- علم القراءات
- علم الحديث
- المذاهب الفقهية
- النحو والتاريخ
- العلوم العقلية والدنيوية

الحركة العلمية في مصر من الفتح الإسلامي إلى انتهاء عصر الولاة العباسيين تمهيد

انقضى القرن الأول الهجري ونصف الثاني تقريباً والعرب لا يعرفون في كل ما فتحوه من البلاد إلا حديث الملاحم والفتوح ، وإلا علم الشرع المستنبط من القرآن الكريم والسنة النبوية وإلا قليلاً من النحو وبعض العلوم الإسلامية كالآداب والرواية واللغة .

وكان أهم هذه العلوم طبعاً هو علم الشرع ، وكان أول الحاملين له الذين نقلوه إلى جميع الأقطار الإسلامية هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم الذين فهموا عنه القرآن وشاهدوا فعله ووعوا قوله فكانوا مادة هذا العلم ، وناقله إلى كل الأقطار الإسلامية أو عنهم أخذ التابعون ومن بعدهم .

وكان نصيب مصر من هؤلاء الصحابة كثيراً حتى عد المؤرخون ، من الصحابة الذين دخلوا مصر وعاشوا فيها وروى عنهم أهلها أحاديث رسول الله ، نحو من ثلثمائة منهم إلا من تعلم منه المصريون حكماً دينياً أو روى عنه حديثاً نبوياً أو استفتوه في شبهة عرضت لهم .

كان على رأس هؤلاء عمرو بن العاص فاتح مصر الذي وليها لعمر بن الخطاب ثم المعاوية وبقي بها إلى أن مات سنة ٤٣ هـ وقد روى عنه أهل مصر نحو عشرة أحاديث ، ومنهم عبد الله ابنه الذي اختلط بمصر وروى عنه المصريون لأكثر من مائة حديث ومات بها سنة ٧٧ هـ على قول ابن سعد في طبقاته ، ومنهم أيضاً عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، وأخوه محمد الذي ولي مصر من قبل على وقتل بها ، وعبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب ، وأخوه عبد الله الذي كان يسمى البحر لسعة علمه ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كتب الوحي لرسول الله ، والزيبر بن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد

أعلام السادة البدرين ، ورافع بن ثابت الذى أكل مع النبي رطباً ، وخارجة بن حذافة الذى كان على شرطة عمرو بن العاص فاستخلفه على الصلاة فقتله الخارجى الذى كان يريد عمراً .

وعاش بمصر من التابعين طبقة بعد طبقة من أبناء هؤلاء الصحابة وغيرهم كثير ، ومن التابعين من عد من الأئمة المجتهدين كيزيد بن أبى حبيب فقيه مصر وشيخها ومفتيها لقي عبد الله بن الحارث الصحافى نزيل مصر وروى عن سالم ونافع وعكرمة وعطاء وخلف ، وعنه روى ابن (كهيعبة) والليث وآخرون . قال ابن سعد فى طبقاته : كان ثقة كثير الحديث . وقال ابن يونس : كان مفتى أهل مصر . وهو أول من أظهر العلم بها وتكلم فى المسائل من الحلال والحرام . وقبل ذلك كانوا يتحدثون فى الترخيب والملاحم والفتن . وهو أحد ثلاثة جعل إليهم عمر بن عبد العزيز الفتياء بمصر . وقال الليث : هو سيدنا وعالمنا . مات سنة ١٢٨ هـ .

★ ★ ★

ظلت حركة العلم بمصر منذ الفتح عربية إسلامية لم يشبها شئ من الفلسفة ولا غيرها ؛ فكانت كما قلنا تاريخاً أخصه ما جرى من الملاحم فى فتوح المسلمين وما كان من سيرة رسول الله وغزواته ، وكانت تفسيراً لكتاب الله بنقل الآراء فى فهمه عن رسول الله وصحابته ، وكانت دراسة لحديث رسول الله واستنباطاً لأحكام الدين منه ومن القرآن الكريم ، وكانت فتياً فيما يعرض من المشاكل ودقيق المسائل الفقهية ، وكانت قراءات للقرآن اختلاف فيها القراء على حسب ما صحت عندهم روايته كما اختلفوا فى حديث رسول الله .

هذا ما كان يدور غالباً فى مجالس العلم بمصر ، ومصر فى ذلك مثل العراق والشام وإن امتاز هذان القطران بالبحث فى اللغة ورواية الشعر وما نشأ عنها من علم النحو والرواية الأدبية ، أقربهما من بلاد العرب وفيها مادة هذه البحوث ، ووجود الخلفاء بهما : فى الشام على أيام الأمويين وفى العراق على أيام العباسيين فقد شجع هؤلاء الخلفاء الآداب وحملوا الناس على الاحتفاظ بذلك التراث العربى المجيد الذى كان فى تمجيده تمجيدهم لأنفسهم ، وفى حياته حياة للعلم بل لدينهم .

ولا نغنى مصر من بحث النحو والآداب ورواية الشعر فإن لها فى ذلك نصيباً وإن قل عن نصيب الشام والعراق ، ذلك بأن العربى حيث حل لا يحاو له إلا المذاكرة فيما لآبائه

من مفاخر وما رمى به أعداؤه من معائب فلارواية شأنها حيث يكون العربي وأبنا نزل . والنحو والصرف كما نعلم إنما يحفز إليهما الخوف على القرآن الكريم والاستمسك بنصيب من المملكة العربية التي كاد يأتى عليها الاختلاط بالأعاجم . فالحواضر التي دفعت العرب في العراق والشام إلى العناية بهذين الموضوعين كانت كذلك بمصر . فاشتغل العرب بمصر في النحو والرواية كما اشتغلوا بالعراق والشام وإن كان اشتغالهم بذلك في مصر قليلا لما ذكرنا من أسباب ، وكان عمل المصريين في ذلك تقليداً ومحاكاة دون أن يكون خلقاً للعلم أو وضعاً لأسسه .

أما الفلاسفة وما انضم إليها من طب وهندسة وغير ذلك . فلم يكن لما بمصر نصيب من العناية لأن هذه العلوم إنما شجع عليها وجود الخلفاء ببغداد ورغبتهم في نقل علوم الأمم إلى العربية ليجمعوا في مدنيهم أسباب مدنيات الأمم التي سبقتهم ، فأما مصر فلم يكن من هم الولاة ولا في مقدورهم النهوض بشيء من ذلك . فكانت مصر بعيدة عن هذه الحركة لبعدها عن مثارها ، ولم يمنع ذلك أن تصير إليها هذه العلوم بعد ظهورها ببغداد وشيوعها فيها ، وقد نظر المصريون في هذه البحوث ولكن بقدر ، ثم نالهم شر من النار التي تأججت من ذلك فأوذوا في فتنة خلق القرآن وأتى بهم إلى بغداد فقتل . من قتل وأوذى من أوذى إلى آخر ما كان من شأن هذه الفتنة وانتهاء محتتها على أيام المتوكل .

وكانت هذه المذاهب التي نشأت بالعراق وتعددت بسببها الفرق الإسلامية ما بين سنيين ومعتزلة ومرجئة ، وكذلك مذاهب الإلحاد وما تنوع إليه ، كل ذلك لم يكن له بمصر ظل أو كان ظله فيها متقلصاً ومن الأدلة على ذلك ما ورد في كتاب « الولاة والقضاة » لالكندى . قال : (١)

« .. أظهر على بن سليمان وإلى الرشيد على مصر ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنع الملاهي والحمور وهدم الكنائس المحدثه بمصر .. وكان كثير الصدقة في الليل ، ومع هذا كان أهل مصر يرمونه بالقدر وذلك أنه استخلص رجلين متهمين بالقدر » فإذا علمت أن القول بالقدر كان تهمة شنيعة بين المصريين وكان لا يقبل ممن يدين به صرف ولا عدل مهما كان خيراً رضى علمت مقدار ترمت المصريين إلى جانب حرية

أهل العراق فيما يتقلدون من مذاهب خصوصاً المذاهب التي يضمها الدين الإسلامي
ويحنو عليها هناك .

وهذا هو حديث تلك العلوم التي راجت بمصر منذ الفتح إلى نهاية عهد الولاة العباسيين
سنة ٢٥٤ هـ . فصله بعض التفصيل فتكلم عن كل علم ونعد من رجاله ما اتسع المقام
لذلك .

أولا - علم القراءات

كان له مظهر قوى إذ كان بمصر من رجاله عقبة بن عامر الجهني ، وأبو تميم الجيشاني وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وعثمان بن سعيد بن عدى المعروف بورش وهو مصرى صميم أصل أجداده من الأقباط من موالى آل الزبير بن العوام . ولد سنة ١١٥ هـ . ورحل إلى المدينة فقرأ على نافع سنة ١٥٥ وهو الذي لقبه بورش لشدة بياضه ثم عاد إلى مصر فانتهدت إليه رئاسة القراء بها ومات سنة ١٩٧ (١)

وقد تعدد تلاميذ ورش فكان منهم أبو يعقوب الأزرق الذي لزم ورشا مدة طويلة وخلفه في الإقراء بالديار المصرية ومات في حدود سنة ٢٤٠ هـ .

ومن تلاميذ ورش أيضاً عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصرى الذى أخذ عنه لأندلسيون هذه القراءة ومات سنة ٢٣١ .

وغيرهم كثير أحصاهم السيوطى جيلا بعد جيل إلى أن وصل بهم إلى شمس الدين محمد بن على الغزولى المعروف بالزراعتى المتوفى سنة ٨٢٥ (٢) .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٧ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٩٢ .

ثانياً - علم الحديث

نهض به أول من نهض هؤلاء الصحابة الذين حضروا إلى مصر أيام عمرو بن العاص منهم عقبة بن عامر الجهني ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان كما قلنا من المكثرين لرواية الحديث لأنه كان يكتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما يسمعه ، ومن قوله في ذلك (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتب كل ما يقول لا أو نعم) ، ومنهم الأعرج عبد الرحمن بن داود المدني صاحب أبي هريرة ، أكثر النقل عنه وقال في حقه البخاري ، أصبح أسانيد أبي هريرة أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة . وقال عنه الذهبي في طبقات القراء : كان الأعرج أول من وضع العربية بالمدينة أخذ عن أبي الأسود . خرج إلى الاسكندرية ومات بها سنة ١٢٧ . (١)

ومنهم أيضاً (أسد السنة) أسد بن موسى بن إبراهيم المصري روى عن شعبة وروح وروى عنه الربيع الجيزي وأحمد بن صالح . ولد بمصر سنة ١٣٢ هـ ومات بها سنة ٢١٢ هـ . وقد اعتمد أصحاب الكتب الستة على رواية كثير من المصريين : فسعيد بن عفير ويحيى ابن بكير وعبد الله بن صالح وغيرهم كانوا من شيوخ البخاري . وأحمد بن يونس ويحيى بن يحيى التميمي من شيوخ مسلم وأبي داود .

وكان أول جامع للحديث بمصر هو عبد الله بن وهب المولود بمصر سنة ١٣٤ والمتوفى بها سنة ١٩٧ . وقد ألف كتابه (الجامع في الحديث) وظل هذا الكتاب مفقوداً حتى عثر عليه أخيراً بمدينة إدفو مكتوباً على ورق البردي ، ويعد من أقدم المخطوطات العربية في العالم وترجع كتابته إلى القرن الثالث الهجري .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٥ .

ثالثاً — المذاهب الفقهية

١ — مذهب الإمام مالك

أول ماعرفه المصريون من المذاهب الفقهية هو مذهب الإمام مالك ، وكان خاصة أصحابه منهم : ابن القاسم وأشهب وابن وهب (المحدث المتقدم ذكره) وعبد الله ابن عبد الحكم .

فأما ابن القاسم فهو الإمام عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقى بالولاء صاحب مالكا عشرين سنة . وهو صاحب المدونة في مذهب مالك وهى من أجل كتبهم . وقد صارت إليه رئاسة المالكيين بمصر إلى أن توفى سنة ١٩١ . وكان ميلاده ١٣٢ .

والعتقى نسبه إلى العتقاء وهم قوم لم يكونوا من قبيلة واحدة وكانوا يقطعون الطريق على من أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليهم من أتى بهم أسرى فأعتقهم ، فلما خرج عمرو لفتح مصر كان العتقاء ممن ضحهم جيشه .

وأما أشهب : فهو الإمام أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز تفقه على الإمام مالك . وكانت المنافسة بينه وبين ابن القاسم شديدة ، وقد انتهت الرئاسة إليه بمصر بعد ابن القاسم . وهو الذى أدركه الشافعى بمصر من أصحاب مالك فناظره وقال فيه : ما رأيت أفقه من أشهب . لولا طيش فيه . وقد وصفه ابن وهب فقال : كان أشهب فقيهاً فى علوم شتى ما سئل عن شىء إلا أجاب وقد توفى سنة ٢٠٤ وهى السنة التى مات فيها الشافعى وإن كان الشافعى قد مات قبله .

وأما عبد الحكم : فهو أبو محمد بن الفقيه المالكى المصرى . وكان أعلم أصحاب مالك بمختلف أقواله وقد أفضت إليه رئاسة الطائفة المالكية بعد أشهب ، وروى عن مالك الموطأ سماعاً وكان من ذوى الأموال له جاه عظيم وقدر كبير ، ويقال أنه دفع إلى الشافعى عند قدومه إلى مصر ألف دينار من ماله وأخذ له من عسامة التاجر ألفاً أخرى ومن رجالين آخرين ألفاً ثالثة .

وقد كنى أبا محمد بابنه محمد الذى صاحب الشافعى بإذن أبيه سرّاً وسرد ذكر ذلك فى الحديث عن أصحاب الشافعى .

وقد ولد بن عبد الحكم سنة ١٥٠ وتوفي سنة ٢١٤ ودفن إلى جانب قبر الشافعي بمائيل القبلية .

الليث بن سعد :

إمام من كبار الأئمة المجتهدين في الدين يسمي الإمام مالكا ، وقد استحق ثقته إذ يقول عنه : حدثني من أَرْضَى من أهل العلم .

ولأنه ليعد مفعلة لمصر إذ كان ميلاده بها ببلدة قلقشنده (١) سنة ٩٤ هو وإن كان فارسي الأصل من أهل أصبهان . نشأ بمصر وتثقف على علمائها أمثال يزيد بن أبي حبيب ثم طاف بالبلاد في طلب العلم فدخل مكة وزار بيت المقدس وبغداد وقابل بهذه البلاد كثيراً من التابعين فأخذ عنهم الحديث ورووا هم عنه أيضاً .

وقضل الليث معروف مشهور شهد به الجميع فيقول الإمام الشافعي :

« الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » وكان بن وهب يقرأ عليه مسائل الليث فقال رجل من الغرباء أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب ، فقال بن وهب « بل كان مالكا يسمع والليث يجيب فيجيب . والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت أحداً أفقه من الليث (٢) » .

وكان من تلاميذ الليث من كان من شيوخ أحمد بن حنبل .

وكان الليث عظيم المترلة عند القاضي والوالي حتى كانا لا يقطعان أمراً دون مشورته حتى قال بعض الشعراء بيتين وأرسلهما إلى الخليفة المنصور وهي :

لعبد الله عبد الله عنــــــدى نصائح حكمتها في السر وحدى
أمير المؤمنين تــــــلاف مصرأ فإن أميرها ليث بن ســــــعد

وكان الليث مع فقهه ودينه يأخذ نصيبه من الدنيا ويمتنع نفسه بالحلل لأنه كان ثرياً وقد كتب إليه مالك يقول : بلغني أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشي في الأسواق فرد عليه الليث بقوله تعالى (من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) . وكان كريماً يتخذ لأصحابه الفا لوذج ويجعل فيها الدنانير فمن أكل أكثر كان نصيبه منها أكثر (٣) . فو قد أسف الشافعي لكونه لم يدرك الليث بمصر إذ قد مات سنة ١٧٥ هـ .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٣٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣٨ .

٣ - مذهب الإمام الشافعي

قبل حضور الإمام محمد بن إدريس الشافعي إلى مصر كان المصريون كلهم على مذهب مالك لا يعرفون خلافاً ولا يجري بينهم نقاش إلا كما يجري بين أهل المذهب الواحد في الغروع التي يهون أمرها ولا تستوجب عنفاً في الجدل ولا شدة في الخصومة .

ومنذ حل الشافعي بمصر سنة ١٩٩ وقيل سنة ٢٠١ هـ (١) حدث بين المصريين ذلك الخلاف على أشده . كان الشافعي قبل حضوره إلى مصر قد زار بغداد وأقام بها سنتين ثم عاد إليها فأقام بها شهراً قبل مقدمه إلى مصر مباشرة ، وبغداد كما نعلم موطن القياس الذي جرى عليه الإمام أبو حنيفة النعمان وأصحابه ، وهي أيضاً مقر الفلسفة والمنطق فاستفاد الشافعي من رحلته إليها كثيراً من حرية الرأي في الفهم والتخريج ، وذلك غير ما جرى عليه أصحاب مالك من التزام النص والوقوف عند حدود الرواية ، لذلك كانت طريقة الشافعي جديدة على المصريين جريئة في نظرهم فلم يلبثوا بعد أن سمعوا كلام ذلك الإمام أن رموه بأشياء كثيرة حتى لقد ضربوه في حلقة درسه ضرباً مبرحاً حمل على إثره إلى منزله عليلاً . (٢)

وذكروا أن القاضي عيسى بن المنكدر ، كان يصبح بالشافعي ويقول له :
يا كذا دخلت بلدنا وأمرنا واحد ففرقت كلمتنا وألقيت الشر بيننا ، فرق الله بين روحك وجسدك . (٣) .

وكانت جمهرة رجال الدين بمصر تنظر إلى من يتصل بالشافعي ويقبل على درسه نظرة المقت وتعهده خارجاً عليهم . حكى محمد بن عبد الله بن الحكم قال : كنت أتردد إلى الشافعي فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبي (كان أبوه على مذهب مالك كما تعلم مما مر بك) فقالوا له يا أبا محمد : إن محمداً ينقطع إلى هذا الرجل ويتردد إليه فيرى الناس أن هذا رغبة منه عن مذهب أصحابه قال فجعل أبي يلاطفهم ويقول هو حدث ويجب النظر في اختلاف أقاويل الناس ، ويقول لي في السر يا بني الزم هذا الرجل (٤) .
ولقد كان دخول الشافعي مصر بركة ويمنا على المصريين لأنه علمهم مناقشة

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٤٧ .

(٢) معجم الأدباء جزء ١٧ ص ٣٢٣ .

(٣) الولاة القضاة ص ٤٣٨ .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٥٧ .

الحقائق بعد أن كانوا يستسلمون إلى الرواية استسلاماً . ولا شك أن للجدل والمناظرة أثرهما في تنوير الأذهان وتنبهها . وقد كان الشافعي رضي الله عنه يتبع طريقة المناظرة في كتبه كما يتبعها في درسه ، إذ كان يأتي بالآية أو الأثر ثم يشرحه ثم يستنبط منه ما انتهى إليه رأيه ، وذلك هو مانراه في كتابيه الرسالة والألم .

وقد كان لأدبه وعلمه باللغة وروايته لأشعار العرب أثر عظيم في حسن عبارته ؛ وقد تناقل أصحابه عباراته فصار لفقه الشافعية ميزة على غيره في دقة الألفاظ وحسن اختيارها .

شيء من أخبار الشافعي ورحلته إلى مصر :

يحسن بنا وقد كان للمذهب الإمام محمد بن إدريس شيوخ كبير بمصر بعد حلوله بها أن نذكر نبذاً عن تاريخ هذا الإمام الجليل وبخاصة بعد رحلته إلى تلك البلاد :

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، ينتهي نسبه إلى عبد مناف فيجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الجد . وباقي النسب إلى عدنان معروف . وأمه هي السيدة فاطمة بنت عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب . فهو شريف علوى .

كان مولده بمدينة غزة من أرض فلسطين سنة ١٥٠ هـ وبعد سنتين انتقلت به أمه إلى مكة فنشأ بها وتعلم وما أن بلغ خمس عشرة سنة حتى كان قد أتم علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والآداب والشعر حتى إن الأصمعي نفسه كان يفتخر بأنه تلقى أشعار الهدليين عن الشافعي (١) .

وقد رحل الشافعي إلى المدينة وتلقى الحديث عن الإمام مالك بعد أن كان قد حفظ الموطأ بمكة ، فكان موضع أعجاب مالك وعطفه . ثم قدم بغداد .

والحديث يطول إذا تناوبنا بالبحث ذكائه وقوة حفظه فإنه كان في ذلك أعجوبة زمانه . وقد اعترف له كل من لقيه بالفضل الغزير .

قدم بغداد أول مرة سنة ١٩٥٠ هـ وأقام بها سنتين ثم رجع إلى مكة وعاد إلى بغداد سنة ١٩٨ هـ فأقام بها شهراً ثم خرج إلى مصر فوصلها سنة ١٩٩ هـ .

دخل الشافعي فترل على قوم من أهله من الأزد . وقد علم بمجيئه عبد الله بن الحكم من كبار علماء مصر وأعيانها ومن أملى عليهم الشافعي الموطأ بالمدينة ، فوضع بين

(١) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٣١١ والوفيات ج ١ ص ٤٤٧ .

يدى الشافعي ثلاثة آلاف دينار وقد مر تفصيل الكلام فيها عند الكلام على عبد الله ابن الحكم في رجال المالكية .

ابتدأ الشافعي يلقى دروسه بجامع عمرو بن العاص فكان عقب صلاة الصبح يجلس إلى أهل القرآن يقرءون عليه ويسمعون منه ، فإذا طلعت الشمس جلس إليه أهل الحديث ، فإذا ارتفعت حضر أهل المناظرة ثم أهل العربية والعروض والنحو والشعر . ثم ينصرف إلى منزله وقد اشتغل بالعلم والتعليم ثمانى ساعات متوالية . (١) وضع الشافعي في مصر كتبه الأخيرة وكانت نحو عشرين كتابا منها الرسالة والألم وكان له مع المصريين مفاكهات جميلة يروح بها عن تلاميذه إذا ظن أن الضجر لحقهم أثناء الدرس . فمن ذلك ما حكى لهم يوما أن رجلا كان له ولد أبله ، فارسله إلى السوق ليشتري له حبلا طوله ثلاث أذرع ، فمضى الولد إلى السوق ثم عاد إلى أبيه يسأله كم عرض الحبل فقال له أبوه : عرضه كعرض مصيبي فيك . وكان يمازح المصريين فيقول لهم : ما أقمت بمصر إلا حبا لقصص السكر ببلادكم وكان يحبه كثيرا . (٢)

وكان المصريون قد عرفوا فضله فكانوا يرسلون إليه الهدايا الكثيرة والهبات الجليلة ، وكان له راتب من السيدة نفيسة رضى الله عنها : كما كانت السيدة زبيدة زوج الرشيد ترسل إليه من بغداد مالا وثيابا . ولكنه كان كريما جدا فكان يفرق في الناس كل ما يأتيه ، وفي يوم من الأيام أرسل إليه أحد المصريين كيسا مملوءا بالنقود فأخذه من الرسول على باب منزله . وما هو إلا أن أقبل رجل يقول له إن زوجتي قد وضعت وليس لدينا شيء فدفع إليه الكيس بنختمه ودخل المنزل وليس معه شيء ويقال إنه كان يمر راكبا في سوق الحدادين بالفسطاط فوق سوطه من يده فقام إليه حداد وناولوه إياه فشكر له الشافعي صنيعة والتفت إلى غلامه وقال له ادفع إليه ماملك وكان الذي مع الغلام ثلاثة عشر دينارا فدفعها إلى الحداد .

مات رحمه الله بمصر سنة ٢٠٤ فكانت إقامته بها خمس سنين وأشهرها . وقد خلف بمصر تلاميذ كثيرين منهم الربيع بن سليمان المرادى والربيع الجيزي وحرمة الشمبي ويونس بن عبد الأعلى وإسماعيل المزني ويوسف البويطي ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهم ممن صاروا أئمة في الدين بعده .

(١) رحلة الإمام الشافعي إلى مصر للأستاذ مصطفى منير أدهم ص ٣٧ ومعجم الأدباء ج ١٧ ص ٣٠٤ .

(٢) رحلة الشافعي إلى مصر ص ٣٤ .

وها نحن أولا ، نعرفك ببضهم تعريفا مختصرا دالين على مراجعه لتتوسع منها
قدر طاقتك .

الربيع بن سليمان المرادى (١)

هو الذى روى أكبر كتب الشافعى وقال الشافعى فى حقه . الربيع راوى و كان
يقول له ياربيع لو أمكننى أن أطعمك العلم لأطعمتك .

وفى كتاب تاريخ بغداد فى ترجمة البويطى . قال الربيع بن سليمان : كنا جلوسا
بين يدي الشافعى رضى الله عنه أنا والبويطى والمزنى فنظر الى البويطى فقال ترون هذا
لأنه لن يموت إلا فى حديثه . ثم نظر إلى المزنى فقال : ترون هذا ؟ إنه سيأتى عليه زمان
لا يفسر شيئا فيخطئه . ثم نظر إلى فقال والله ما فى القوم أحد أنفع لى منه ولوددت أنى
حشوته بالعلم حشوا .

توفى سنة ٢٧٠ هـ والمرادى نسبة إلى مراد وهى قبيلة كبيرة باليمن .

الربيع الجيزى (٢)

صاحب الإمام الشافعى لكنه كان قليل الرواية عنه وأكثر روايته عن عبد الله
ابن عبد الحكم . كان ثقة روى عنه أبو داود النسائى نزيل مصر . وكان الربيع ورعا
ولا يزال يذكر الآخرة وما بعد الموت حتى قيل إنه اجتاز يوما بمصر فطرح عليه
إجانة رماد فتزل عن دابته وجعل ينفضه عن ثيابه ولا يقول شيئا فليل له ألا تجرهم
فقال : من استحق النار فصولح بالرماد فقد ربح .

توفى سنة ٢٥٦ هـ ، والجيزى نسبة إلى الجيزة كان الربيع منها .

حرملة التجيبى (٣)

صاحب الإمام الشافعى كان أكثر أصحابه اختلافا إليه واقتباسا منه وكان حافظا
للحديث روى عنه مسلم بن الحجاج فذكر فى صحيحه من ذكره .

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٨٣ . وشذرات الذهب ج ٢ ص ١٥٩ . والنجوم الزاهرة

ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٨٤ وشذرات الذهب ج ٢ ص ١٥٩ .

(٣) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٨ .

مات سنة ٢٤٣ . والتجبي نسبة إلى تجيب وهى قبيلة سميت باسم امرأة فنسب إليها أولادها .

يونس بن عبد الأعلى الصدفى (١)

أحد أصحاب الشافعى الكثيرين فى الرواية عنه والملازمة له . كان علامة فى الأخبار صحيحها وسقيمها لم يشاركه أحد من أهل زمانه فى هذا . يروى عن الشافعى أنه قال ما رأيت بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى .

قيل إن القاضى بكار بن قتيبة لما توجه إلى مصر متولياً قضاءها لقي فى طريقه محمد بن الليث قاضى مصر قبله فقال له أنا رجل غريب وأنت قد عرفت البلد فدلنى على من أشاوره وأسكن إليه فقال له عليك برجلين أحدهما عاقل وهو يونس بن عبد الأعلى فأبى سعى فى دمه فقدر على فحقن دمه ، والآخر موسى بن عبد الرحمن ابن القاسم فإنه رجل زاهد .

وكان يونس أحد الشهود بمصر أقام شاهداً بمصر ستين سنة .

توفى سنة ٢٦٤ هـ والصدفى نسبة إلى الصدف بن سهل وهى قبيلة كبيرة من حمير نزلت مصر .

إسماعيل المزنى (٢)

من أهل مصر كان زاهداً عالماً مجتهداً غواصاً على المعانى الدقيقة وهو إمام الشافعيين وأعلمهم بفتاويه وطرقه صنف كتباً كثيرة فى المذهب منها الجامع الكبير والجامع الصغير والمنثور والترغيب فى العلم وهى مفقودة ومختصر الجامع وهو مخطوط .

قال الشافعى فى حقه : المزنى ناصر مذهبي

وكان القاضى بكار بن قتيبة لما ولى قضاء مصر توقع لقاء المزنى مرة فلم يتفق له حتى اجتمعا فى جنازة فقال القاضى بكار لأحد أصحابه سل المزنى شيئاً حتى أسمع كلامه فقال له ذلك الشخص : قد جاء فى الأحاديث تحريم النبيذ وجاء تحليله فلم قدمتم التحريم على التحليل قال المزنى : لم يذهب أحد إلى أن النبيذ كان حراماً فى الجاهلية

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤١٧ .

(٢) وفيات الاعيان ج ١ ص ٧١ .

ثم حلال ، ووقع الاتفاق على أنه كان حلالاً ، فهذا يعضد صحة أحاديث التحريم فاستحسن ذلك منه قال ابن خلكان « وهذا من الأدلة القاطعة » .

وكان المزنى من ورعه يشرب طول أيام السنة من كوز نحاس فقيل له في ذلك فقال : بلغني أنهم يستعملون السرجين في الكيزان (يريد من الطين) والنار لانتطهرها . وكان إذا فاتته صلاة جماعة صلى منفرداً خمسا وعشرين صلاة استدراكاً لفضيلة الجماعة مستنداً إلى قوله عليه الصلاة والسلام « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة » .

توفي سنة ٢٦٤ والمزنى نسبة إلى مزينة بنت كلب بوهي قبيلة كبيرة مشهورة .

يوسف البويطى

كان واسطة عقد جماعة الشافعى وأظهرهم نجابة اختص به في حياته وقام مقامه في الدرس والفتوى سمع من ابن وهب والشافعى وسمع منه أبو إسحاق الرملى والحربى والجوهري والرمادى وغيرهم . (١)

وكان قد امتحن في مسألة القول بخلق القرآن فحمل من مصر إلى بغداد أيام الواثق وأريد على القول بخلق القرآن فامتنع عن الإجابة فحبس ولم يزل في السجن والقيد حتى مات (٢) .

قال الربيع بن سليمان : رأيت البويطى على بغل في عنقه غل وفي رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة من حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلاً وهو يقول :

إنما خلق الله سبحانه وتعالى الخلق بكن فإذا كانت كن مخلوقة فكأن مخلوقاً خلق مخلوقاً . فوالله لأموتن في حديدى حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه مات في هذا الشأن قوم في حديدهم ، ولئن أدخلت عليه (يعنى الواثق) لأصدقته ولم يخرج إلى بغداد في هذه المحنة من أصحاب الشافعى غيره .

وهذا الذى جرى للبويطى هو ما تحدث به الربيع بن سليمان ورواه صاحب تاريخ بغداد . وقد تقدم في ترجمة الربيع بن سليمان المرادى .

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٤٦ .

(٢) شذرات الذهب ج ٢ ص ٧١ .

قال الخطيب البغدادي : لما مرض الشافعي مرضه الذي مات فيه جاء محمد بن عبد الحكم ينازع البويطي في مجلس الشافعي فقال البويطي : أنا أحق منك . وقال ابن عبد الحكم أنا أحق منك ، فجاء أبو بكر الحميدي وكان بتلك الأيام بمصر فقال قال الشافعي : ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بن يحيى ، وليس أحد من أصحابي أعلم منه . (١)

كتب البويطي من السجن إلى الربيع بن سليمان المرادي يقول له :
إنه ليأتى على أوقات لا أحس بالحديد أنه على بدني حتى تمسه يدي ، فإذا قرأت كتابي هذا فأحسن خلقك مع أهل حلقك واستوص بالغرباء خيرا فكثيرا ما كنت أسمع الشافعي رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت :

أهين لهم نفسي لأكرمهم بها وإن تكرم النفس التي لا تهينها
توفي البويطي سنة ٢٣١ في القيد والسجن ببغداد . والبويطي نسبة إلى بويط وهي قرية من أعمال الصعيد الأدنى من مصر .

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم

سمع عن ابن وهب وأشهب من أصحاب الإمام مالك فلما قدم الشافعي إلى مصر صحبه وتفقه عليه ، وحمل في المحنة إلى بغداد ، فلم يجب إلى ما طلب منه فرد إلى مصر وانتهت إليه الرياسة بها (٢) .

وكان خصيصا عند الشافعي يحبه ويقربه . قال المزني كنا نأتي الشافعي نسمع منه فنجلس على باب داره ويأتي محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فيصعد ويطلب المكث وربما تغدى معه ثم نزل ، فيقرأ علينا الشافعي فإذا فرغ من قراءته قرب إلى محمد ودابته فركبها واتبعه الشافعي بصره ، فإذا غاب شخصه قال وددت لو أن لي ولدا مثله وعلى ألف دينار لا أجد لها قضيءا .

وحكى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن نفسه قال : كنت أتردد إلى الشافعي فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبي وكان على مذهب مالك فقالوا له : إن ابنك محمدًا ينقطع إلى هذا الرجل ويتردد إليه فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه ، قال محمد

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٤٧ وتاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٠١ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٧ .

فجعل أبي يلاطفهم ويقول : هو حدث ويحب النظر في اختلاف أقاويل الناس ويقول لى في السر : يا بني الزم هذا الرجل فإنك لو جاوزت هذا البلد فتكلمت في مسألة فقلت فيها قال أشهب عن مالك لقل لك من أشهب ، قال فلزمت الشافعى ، وما زال كلام أبي في قلبي حتى خرجت إلى العراق فكلمتنى القاضى بحضرة جلسائه في مسألة فقلت فيها قال أشهب فقال ومن أشهب ؟ !! وأقبل على جلسائه فقال بعضهم كالمنكر ما أعرف أشهب ولا أبلق .

وهو الذى أحضره أحمد بن طولون إلى ساقيته بالمعافر لما توقف الناس عن شرب الماء منها والوضوء به لزعيمهم أنها مخصوبة فشرب منها وتوضأ بماؤها فأعجب ذلك ابن طولون ووجه إليه بصلة .

توفى سنة ٢٦٨ هـ وقبره مع قبر أميه وأخيه إلى جانب قبر الشافعى .

٣ — مذهب أبي حنيفة النعمان

مذهب أبي حنيفة النعمان رضى الله عنه عراقى تأثر بما كان في العراق من مذاهب المتكلمين واعتمد أكثر ما اعتمد على القياس لقلة ما كان يروى من الحديث ببلاد العراق بالنسبة إلى ما كان بمكة والمدينة .

وكان اتصال المصريين منذ الفتح ببلاد الحجاز قويا ، فقد كان الحجاز مركز الخلافة أيام الخلفاء الراشدين ثم دام الاتصال بالرحلة إلى الحج وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمن أجل ذلك كان مذهب الإمام مالك أول مصادف المصريين من تلك المذاهب فأقبلوا عليه ولم يكونوا يعرفون غيره . فلما قدم الإمام الشافعى إلى مصر صار له بها أتباع وتوطن هذا المذهب في تلك البلاد على أثر ذلك . ولم يكن للمصريين عهد بمذهب الإمام أبي حنيفة إلا عن طريق القضاة الذين كان الخلفاء ببغداد يرسلونهم من قبلهم إلى مصر ، فلقى هؤلاء من المصريين كراهة ومعارضة ، حتى لقد كتب الأيثار بن سعد إلى الخليفة يطلب عزل إسماعيل بن اليسع الكندى الذى ولى قضاء بمصر سنة ١٦٤ وقال « إنك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا مع أننا ما علمناه في الدرهم والدينار إلا خيرا » .

(١) الولاة والقضاة ص ٣٧٢ .

فاضطر الخليفة وكان المهدي إلى عزله .

ومن عرف بمصر من رجال المذهب الحنفي أثناء هذه الفترة التي نؤرخها ، القاضي بكار بن قتيبة المصرى الذى ولى قضاء مصر من قبل المتوكل ودخلها سنة ٢٤٦ وكان بينه وبين المزنى الشافعى جدال ومناقضات ، من ذلك أن بكاراً لما رأى مختصر المزنى الذى رواه عن الشافعى صنف كتاباً فى الرد عليه .

ومن حديث بكار فى الزهد أنه لما ولى أحمد بن طولون مصر جعل يرسل إلى بكار كل عام صرة فيها ألف دينار خارجة عن المقرر له فكان يتركها بختمها ولا يتصرف فيها ، فلما دعاه بن طولون إلى خلع الموفق بن المتوكل من ولاية العهد امتنع بكار فاعتقله ابن طولون وأمره برد ما كان أخذ منه فرد إليه المال بأختامه وكان ستة عشر كيساً (١) ، فاستحيا أحمد منه وكان يظن أنه أخرج المال وتصرف فيه وأنه يعجز عن رده فلهدأ طلبه . (٢)

وقد شكأ أهل الحديث إلى بن طولون انقطاع سماعهم للحديث من بكار باعتقاله وألحوا عليه أن يأذن له بتحديثهم ففعل ، فكان يحدث الناس فى السجن من طاق فيه . (٣) وكان بكار حسن السيرة جميل الطريقة من البكائين التالين لكتاب الله يتوخى فى حكمه النصفه وإرضاء الله . وكان إذا فرغ من الحكم خلى بنفسه وعرض عليها قصص جميع من تقدم إليه وما حكم به وبكى ، وكان يخاطب نفسه ويقول : يا بكار تقدم إليك رجالان بكذا فحكمت بكذا فما يكون جوابك غدا .

وكان يكثر الوعظ للخصوم إذا أرادوا اليمين ويتلو عليهم قوله تعالى «إن الذين يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلاً... الآية» .

مات رحمه الله فى سجن ابن طولون سنة ٢٧٠ وكانت ولادته بالبصرة سنة ١٨٢ هـ .

وسيرد عليك فى الكلام عن الدولة الطولونية حديث عن رجال من الحنفية ، لأن انتشار مذهبهم بمصر تأخر إلى عصر تلك الدولة كما عرفت مما مريبك .

(١) المصدر نفسه ص ٥١٢ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٩١ .

(٣) المصدر ذاته .

٤ - مذهب الإمام أحمد بن حنبل

أما مذهب الإمام أحمد بن حنبل فإنه لم ينتشر بمصر إلا في القرن السابع الهجري وما بعد ذلك لأن الإمام أحمد رضى الله عنه كان من أهل القرن الثالث و كانت نشأته بالعراق فلم يتيسر خروج مذهب عن العراق إلا في القرن الرابع وهو القرن الذى ملك العبيديون فيه مصر وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلا وتشريدا (١) ليقيموا مقام هذه المذاهب مذهب الرضى والتشيع واستمروا بمصر إلى أواخر القرن السادس فتراجعت إليها الأئمة من أهل المذاهب الثلاثة وارتفع الحائل الذى كان يحول دون دخول مذهب الإمام أحمد إلى مصر . فمنذ ذلك الحين وجد لهذا المذهب أتباع بمصر وكان أول إمام من الخنابلة بها هو الحافظ عبد الغنى المقدسى صاحب العملة والكمال وغيرهما من التصانيف نزل بمصر في آخر عمره ومات بها سنة ٦٠٠ هـ (٢) .

وليس ذلك بمنع أن يكون بمصر أيام الفاطميين ومن قبلهم بعض من يتقلد هذا المذهب ويتبع أحكامه ، ولكنهم لا شك كانوا قلة لا يؤبه لها وليس بينهم إمام مشهور ولا عالم ظاهر .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٠ .

رابعاً : النحو والتاريخ

بحث المصريون في هذين العلمين ولكنه كما قلنا كان بحثاً لا غور فيه . فكان بحثهم في النحو حكاية لآراء النحويين بالعراق ، فلم يكن لهم في العلم غور ولم يروا رأياً يخالفون به أولئك ، لأن السبب الذي يسوغ الاختلاف بين العلماء في هذا العلم إنما هو الرواية ، ولم تكن بمصر ذات اتساع يسمح بتشعب الآراء في مسائل هذا العلم . فكان كل عمل العلماء المصريين أن ينقلوا آراء العراقيين ويتفهموها ويدرسوها كما نفعل نحن الآن من غير أن يكون لنا رأى فيما ندرس .

ولإلى جانب ذلك لم يكن من المصريين من عرف إلى نهاية هذا العهد الذى نتحدث عنه ، بعلم النحو إلا عدد قليل من العلماء ، وقد تعرض السيوطى لذكر علماء النحو بمصر فلم يذكر إلى نهاية ذلك العهد إلا عالماً واحداً هو عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافى . قال : كان أماماً في اللغة والنحو والعربية أدبياً أخبارياً نسبة . قال الذهبي : سكن مصر ومات بها سنة ٢١٨ . وقال ابن كثير : كان مقبلاً ببلاد مصر وقد اجتمع به الشافعى حين وردها وتناشدا من أشعار العرب كثيراً (١) .

وذكر السيوطى في بغية الوعاة رجلاً اسمه سرج القول ونقل عن الدار قطنى قوله : رجل من أهل مصر عالم باللغة يعرف بقلبه . قال الربيع بن سليمان : كان لا يقول أحد شيئاً من الشعر إلا عرض عليه . وكان الشافعى يقول ياربى ادع لى سرجاً ، فيأتى به فيذاكره وينظره ثم يقوم سرج فيقول الشافعى : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم (٢)

كذلك علم التاريخ والمراد به كما نعرف سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتوح العرب وملاحمهم . وقد ذكروا ممن يصح أن ينسب إلى هذه الفترة ، سعيد بن عفير ، وعبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم ، ومحمد بن الربيع الجيزى . ومع ذلك لم يذكروا لهم مؤلفات في هذا العلم الذى عرفوا به ، فكان عملهم مقتصرًا على

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) ص ٢٥٢ .

فص الأخبار في مجالس الدرس بمسجد عمرو بن العاص كما هو الشأن إذ ذاك في كل
الدراسات، اللهم إلا عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فإنه خلف لنا كتاباً نفيساً
هو «فتوح مصر» الذي يعد من أعظم المراجع في تاريخ هذه البلاد. وقد كان
ختام الكتاب ذكر القضاة بمصر حتى سنة ٢٤٦ هـ.

خامسا : العلوم العقلية والدينية

أخصى السيوطي من كان بمصر من أرباب المعقولات والحكماء والأطباء والمنجمين فعد أول ما عد «بليطان»: وقال إنه طبيب نصراني كان بديار مصر ومات سنة ١٨٦ ثم عد بعده مباشرة سعيد بن نوفل الطبيب النصراني الذي كان في خدمة أحمد بن طولون (١) وفي كلام السيوطي أكبر دلالة على أن مصر لم تكن اشتغلت - إلى العصر الذي نؤرخه - بالعلوم العقلية ويتحقق ما ذكرناه في عدة مناسبات من أن مصر سلمت من آفة هذه العلوم وجناتها على المملكة العربية والتفكير السمع الذي لاتعقيد فيه ، ولذلك بان في أدب المصريين السهولة والأسجاع وقرب المعاني والخلو من التعقيد والعواصة من كل ما تعييه على الأدب العراقي . فلو أن مصر أتيحت لها ثقافة عربية ناشطة تعهدا الولاية ، كما قام الخلفاء في الشام وبغداد بالحث عليها لكان لمصر شأن أعظم من شأنها بل من شأن العراق نفسه ولرأينا رجالا من الكتاب والشعراء بسلاقت بدوية أو شبهها سليمة من تلك الآفات .

فكانت مصر تجدد لنا عهد العربية الأولى مهذبة مصقولة بالإسلام وآدابه متبعة منهج القرآن خالصا من كل ما شاب أسلوب العراق والحواضر التي غلبت عليها تلك النزعات الفلسفية . ولا يقدر في حكمنا على مصر بإهمال العقلية إلى هذا العهد وقلة الرغبة فيها ، ما رويوا من أمر يحيى النحوي الذي كان على أيام عمرو بن العاص ، فإن علمه إنما كان بلغته اليونانية أو القبطية ، ولم يكن لوجود العرب بمصر أثر فيه مما ينسب إليهم ويعد من أنواع الثقافة التي حدثت في مصر بوجودهم .

وحديث هذا الفيلسوف يتصل بحديث مكتبة الإسكندرية التي اتهم العرب ظلما بحرقها . قال القفطي صاحب كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» ما يأتي ملخصا : عاش يحيى النحوي إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية ، فدخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم فأكرمه وسمع كلامه في انقضاء الدهر ففطن به وشاهد من حججه المنطقية ما لم يكن للعرب به أنسة فهاله ذلك منه . فألزمه مجلسه فكان

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١١ .

لا يكاد يفارقه . ثم حدثه يوما عن كتب المكتبة فقال يحيى أما مالك أبه انتفاع عارضك فلا فيه ، وأما ما لا تقع لكم به فنحن أولى به . فأمر بالإفراج عنه . فقال له عمرو : وما الذى يحتاج إليه قال : كتب الحكمة . ثم استمع عمرو إلى حديث هذه المكتبة وكيف جمعت فأنتهى الأمر بعمرو إلى أن استشار عمر بن الخطاب في أمرها فكتب إليه : إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها هـ . نعم إن العرب كانوا يرون فى كتاب الله غنى عن غيره وكانوا يرونه مصدر الحكمة والآداب والشرع وهم جد محققين فى ذلك ، ولكن ليس يلزم من هذا أن يكونوا قد أمروا بإعدام مكتبة الإسكندرية لأن عدم حاجتهم إليها لا تستلزم إعدامها . وقد كذب محققوا المؤرخين المبرعون من الغرض والتعصب على الإسلام ، حديث إحراقها .

ذكروا أن هذه المكتبة أسست فى عهد الإسكندر المقدونى وأنه جعل فيها ترجمة كل ما وجدته فى بلاد البابليين والآشوريين والفرس . قال ابن النديم فى فهرسته (١) «إن الإسكندر لما فتح عاصمة الفرس «اصطخر» نسخ جميع ما فى خزائنها من الكتب إلى اللسان اليونانى والقبطى وبعث بها وبسائر ما أصاب من العلوم والأموال والخزائن والعلماء إلى مصر » .

قالوا : وما زالت هذه المكتبة تزدد حتى بلغت كتبها سبعمائة ألف مجلد. وفى عام ٤٧ ق م حوصر يوليس قيصر الروم بالإسكندرية فأحرقت جنوده من غير قصد بعض هذه المكتبة . ولما تولى الأمبرور تود وسيوس وكان مسيحيا دفعه تعصبه وتعصب من حوله إلى القضاء على جميع المعاهد الوثنية ، فنال المكتبة على يده ضرر كبير . وفى عهد الأمبرور طيودوس منع الاشتغال بالآداب والفلسفة اليونانية، وبأمره دمر الترابيوم سنة ٣٩ م وأحرقت المكتبة . وقد كتب كثير من علماء المشرقيات ينفون هذه التهمة عن العرب ويدكرون أنها ادعاء كاذب وخطأ شاع منذ القرون الوسطى . وأول كتاب عربى ظهرت فيه هذه التهمة هو كتاب «الإفادة والاعتبار» لعبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى ووصف مشاهداتها وقال فى شأن هذه المكتبة . أ (وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر حين

(١) الفهرس لابن النديم ص ٣٢٩ .

بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر بن الخطاب (

ومما يقدح في كلام البغدادى أنه يلقى حكمه على عواهنه من غير أن يرجع فيه إلى سند تاريخي . والأغرب من ذلك أن تمر هذه المسألة على مؤرخين مسيحيين متقدمين فلا يذكرها أحدهما مع استفاضة الحديث منهما عن فتح العرب لمصر . وأحد هذين هو افيتكيوس بطريق الإسكندرية ، والثاني أوتيوخوس وقد حضرا أيام الفتح ولم يشيرا إلى هذه الحادثة بكلمة ، وكذلك المؤرخ يوحنا أسقف نيفوس وتاريخه مصدر يركن إليه .

وقد ذكر الحادثة مؤرخ آخر كان في أيام البغدادى ولكنه بعده بقليل هو أبو الفرج ابن العبري في كتابه تاريخ مختصر الدول . وقد روى ذلك العالم الإنجليزى جيون في تاريخ سقوط الدولة الرومانية قال إن هذه القرية على المسلمين قد لفقها أبو الفرج العبري في تاريخه مختصر الدول وذلك بعد الإسلام بنحو ستة قرون ولم يتعرض أحد من المؤرخين قبله لذكرها فالحمد لله إذ كانت براءة العرب من هذه التهمة على يد من لا يظن فيهم ممالأة لهم أو تغاض عن هفواتهم .

الفصل الخامس

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الطولونية

من سنة ٢٥٤ إلى سنة ٥٢٩٢ هـ

- نيل تاريخي
- شأن الأدب
- مظاهر الشعر
- تراجم بعض الشعراء
- الكتابة الإنشائية
- العلم

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الطولونية

نبذ تاريخي عن الدولة الطولونية

أحمد بن طولون عاقل هذه الدولة تركي من أبناء هؤلاء الأتراك الذين كان الولاة يهادون بهم الخلفاء ، ثم استكثر منهم الخليفة المعتمد بالله ليكونوا أعوانه وردعه دون العدو ، بعد أن فقد الفرس والعرب ثقته ، وكان أبوه طولون من موالى نوح بن أسد الساماني عامل بخاري وخراسان ، أهداه في جملة ممالك إلى المأمون سنة ٢٠٠ (١) فرقه المأمون حتى صار من جملة الأمراء .

ولما ولد له أحمد عني به فنشأ على مذهب جميل وحفظ القرآن وأتقنه وكان من أطيب الناس صوتاً به مع كثرة الدرس وطلب العلم والفقهاء على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان . وكانت نشأته هذه ذات أثر في خلقه ، فكان شديد الزرابة على الترك وأولادهم لما يرتكبون في أمر الخلفاء من عنف وقسوة ويقول في ذلك : حرمة الدين عندهم مهتوكة .

مات أبوه ففوض الخليفة المتوكل إلى أحمد ما كان لأبيه من أعمال ثم تنقلت الأحوال إلى أن ولي إمرة الثغور وإمارة دمشق ثم ديار مصر .

ولي مصر أولاً نيابة عن أميرها التركي فلما قتل هذا الأمير أيام الخليفة المهدي صار أحمد بن طولون مستقلاً بها أيام المعتمد . وكانت همة أحمد توعز إليه أن تكون مصر له ولذريته من بعده ، فعمل على تطهيرها من المناوئين له . وبعد أن كانت إمرة خراجها بيد غيره احتال حتى فوض إليه المعتمد خراجها أيضاً ، فصار الأمر كله بيده وقويت شوكتة وعظم أمره بتلك البلاد .

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢ .

قام أحمد بضمان خراج صالحه عليه رجال الدولة ببغداد ، فكان يرسله إليهم كل عام وينفق ما تبقى من الدخل في إصلاح شئون البلاد بجفر الترع والنفقة على الجيش الذى صار في أيامه مائة ألف كامل العدة ، والترفيه عن الناس ، والتصدق على فقرائهم .

وقد عمل بمصر مالم يكن يعمل به غيره من الولاة ، لأنه كان يعتبر نفسه قد صار لمصر وصارت له مصر . فأنشأ مسجده العظيم على جبل يشكر ، كما أنشأ مدينة القطائع لجنده ومواليه ، وأنشأ لنفسه فيها القصر الكبير وفيه ميدان للعب الكرة بالصوالة ، كما أنشأ بيمارستانا (مستشفى) أنفق عليه ستين ألف دينار (١) ، وأنشأ حصن الجزيرة (جزيرة الروضة) الذى كان على أيام الرومان ثم تخرب ، فأنفق أحمد على بنائه ثمانين ألف دينار (٢) وقد بلغ من تمكن أمر ابن طولون بمصر وقوة جيشه أن ناوأ الموفق أخا الخليفة المعتمد وخلعه من ولاية العهد وجعل خطباءه يخطبون بذلك على المنابر .

وقد ولى أحمد بن طولون مصر من سنة ٢٥٤ ، واستمرت ولايته ست عشرة سنة ومات سنة ٢٧٠ هـ قام بعده بأمر مصر ابنه خمارويه فاستطاع بانتصاراته المتوالية على أعدائه وأعداء أبيه من قبل أن يحصل على عهد بولايته على مصر والشام وجميع الثغور ثلاثين سنة (٣) .

وبعد أن استراح خمارويه من قتال الموفق وتصالحا انصرف إلى إصلاح شئون مملكته الواسعة . ولما كانت خلافة المعتضد العباسى بعث إليه خمارويه بهدايا وتحف وسأله أن يزوج ابنته لابنته المكتنى بالله فقال المعتضد : بل أتزوجها أنا . فم ذلك سنة ٢٨١ وأصدقها ألف ألف درهم وحصلت بينهما مودة أكيدة فولاه المعتضد من الفرات إلى برقة ثلاثين عاماً (٤) .

تبع خمارويه أباه في الاستكثار من المنشآت وفزاد في قصر أبيه محاسن كثيرة وجعل الميدان بستاناً وأنشأ بالبستان برجاً لأصناف الطيور ، وعمل لنفسه في هذا البستان مجلساً سماه « مجلس الذهب » وجعل بين يدي قصره بركة مألها بالزئبق وكانت خمسين ذراعاً في خمسين فأنفق عليها أموالاً عظيمة ، وكان يرى لها في الليالي القمرية نور عجيب إذا

(١) ، (٢) النجوم الزهرة ج ٣ ص ١٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٥١ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٣ .

تألق نور القمر على سطح الزئبق ، وجعل في داره داراً للسباع وكان من بينها أسد اسمه زريق أنس بخمارويه ، وصار مطلقاً في الدار يحضر مائدة سيده فيرمى له بالدجاجة بعد الدجاجة ، وكان زريق يقوم بحراسة سيده إذا نام لا يقصر في ذلك لا ويمكن غادراً من القرب من سيده .

وكان خمارويه مولعاً بالصيد يخرج إليه في أهبة كبيرة ، وكانت حلبة السباق في أيامه تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الجند والعساكر بالسلح والعدة الكاملة (١) . وكانت مدة ملك خمارويه على مصر والشام وغيرهما اثنتي عشرة سنة وثمانية وعشرين يوماً . ومات سنة ٢٨٢هـ .

ثم ولي بعده ابنه أبو العساكر جيش فصادف الدولة فقيرة بعدما أنفق أبووه في جهاز ابنته فلم يستطع إرضاء القواد ، وانضم إلى ذلك تورطه في اللهو والشراب مع طبقة من السفلة وأبعدوا عنه كبار رجال الدولة . ولذلك لم تدم ولايته سوى ستة أشهر وأيام وقتل في سجنه بعد خلعه بأيام .

وتولى بعده أخوه هرون سنة ٢٨٣ وما زال في خلاف مع رجال الدولة ومع الخليفة المكتنفي حتى أرسل إليه الخليفة قائده محمد بن سليمان لمحاربته ، ولكن غلمان هرون قتلوه ذبحاً وهو في مضربه وكان قد شرب حتى ثمل ونام فذبح وهو نائم سنة ٢٩٢ .

ثم ولي بعده عمه شيبان بن خمارويه ولم تدم ولايته إلا اثني عشر يوماً حتى سلم الأمر إلى محمد بن سليمان فأعاد الأمر بمصر إلى بنى العباس بعد أن مح آثار الطولونية منها ونقضها لبنة لبنة وارتكب مظالم كثيرة ، ثم ساق آل طولون إلى بغداد مكبلين بالحديد (١) .

في رأينا أن ولاية أحمد بن طولون وأبنائه على مصر وغيرها من البلاد لم تكن ولاية مما عهدناه قبل ذلك يتوقع فيها الوالى العزل والنقل ، ولكنها كانت استقلالا بحكم البلاد وإن لم يصرح المؤرخون بذلك ، فإذا قبلنا وصفهم لها بأنها ولاية فإنما هي ولاية لها جميع مزايا الاستقلال ، فقد كان يخطب لأحدهم على المنابر ويذكر اسمه إلى جانب اسم الخليفة ، ولما اختلف خمارويه مع الموفق أخى الخليفة قطع الخطبة له . وقد توطدت العلاقة بين

(١) النجوم الزهرة ج ٣ ص ٦٠ .

خمارويه والخليفة المعتضد فتزوج ابنته ، وخافه قبل ذلك الموفق أخو الخليفة (وكان بيده الأمر والنهى) . فمنحه ولاية مصر ثلاثين عاماً ولأولاده .

فلم يكن أحدهم والياً كغيره قابلاً للعزل ولا كانت إمارته تنتهى بموته فيصبح الخليفة حراً فى اختيار غيره ، بل الأمر من بعد أحدهم يكون لولى عهده ، وإن كان الخليفة يستر ضعفه أمام تلك القوة فيعلن إقرار المتولى منهم فيما تولاه .

فهذا استقلال لامرية فيه وإن اتخذ اسم الولاية . وأوضح دليل على ذلك أن الخلافة لم تستطع انتزاع مصر من الطولونيين إلا بعد أن ساقى إليهم الجيوش لمحاربة شيبان ابن أحمد بن طولون فتقدم محمد بن سليمان وهزم جيوشه واستولى على مصر وساقه وآل بيته إلى بغداد مكبلين بالحديد . قال المؤرخون .

« فزالت الدولة الطولونية وكانت من غرر الدول » (١)

فهى أولاً وأخيراً دولة برضا أو كره رجال الدولة ، وباعتراف رجال التاريخ .

شأن الأدب في الدولة الطولونية

يتجلى في هذه الدولة الاتصال الوثيق بين الأدب وما يكون للبلاد التي يترعرع فيها ، من قوة واستقلال وغنى ومعرفة بقدر هذا الأدب وإعزاز لأهله .

فقد تجمعت كل هذه الأمور في تلك الدولة التي أقامها هذا العاهل الكبير أحمد ابن طولون . نشأ أحمد على الهمة نافذ البصيرة حسن التفكير فما أن ولى مصر حتى جعل ملكها مطمع آماله فعمل على أن تكون خالصة له من دون بغداد التي ضعف أمرها وانقسمت كلمة الرؤساء فيها . وما زال أحمد يستغل تلك الأحوال حتى استقل بما تحت يده (١) واتسع ملكه اتساعاً عظيماً فصار يضم مصر والشام والنجف ورامت مملكته إلى نهر الفرات شرقاً وأقصى الغرب غرباً ، كما شملت بلاد الحجاز واليمن . (٢) وذلك ملك يضم رقعة كبيرة يتضاءل أمامها ملك الخلافة نفسها . جبيت لابن طولون كل هذه النواحي وكانت جباية مصر وحدها أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف (٣) ، فكان كل عمله في إصلاح مصر حتى يزيد خيرها ويرفه حالها ، فزادت الحضارة في أيامه وعم الأهالي منه عدل شامل ورزق واسع (٤) .

بلغ من ترفيحه على الناس أن كانت صدقاته كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار توزع على المحتاجين . قال بعض أصحابه : ألزمني ابن طولون صدقاته وكانت كثيرة ، فقلت له يوماً : ربما امتدت إلى اليد المطوقة بالجوهر والمعصم ذو السوار والكم الناعم أقامع هذه الطبقة . فقال : هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، احذر أن ترد

(١) في النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦ «فلما قتل والى مصر من الأتراك في أيام الخليفة المهتدى صار أحمد بن طولون مستقلاً بها أيام المعتمد .

(٢) في النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦ «كان حكمه من الفرات إلى المغرب» وفي نفس المحاضرة ج ٢ ص ١٣ «كان لابن طولون ما بين رجة مالك بن طوق إلى أقصى بلاد المغرب»

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣ .

(٤) المرجع السابق .

يدا امتدت إليك ، واعط كل من استعطاك (١) . وذلك غير ما كان يجريه على أهل المساجد كل شهر وكان ألف دينار .

ولا تسل عن بذخه وبذخ ابنه خمارويه في جميع مظاهر الحياة ، فلقد ذكروا أن مطبخ خمارويه كان ينفق عليه في كل شهر ثلاثة وعشرون ألف دينار غير ما كان موظفاً لجواريه وخدمهم وكان ما يفضل من مطابخه ومطابخ نسائه يباع في أسواق القطائع ، فكان من يطره ضيف على غير استعداد يجد في السوق من ذلك الطعام ما لا يستطيع أن يعده في بيته (٢) .

ولا أدل على قدرة هذه الدولة من أن نذكر أن جيش أحمد بن طولون كان مائة ألف ، وأن خمارويه ابنه لقي بن الموفق بنفلسطين في سبعين ألفاً ليست هي طبعاً كل جيشه وأن نفقات هذا الجيش كانت تسعمائة ألف دينار في السنة ، وأن خمارويه اتخذ حرساً له معروفين بالبأس والنجدة ووسع عليهم في الرزق وألبسهم الأقبية من الحرير ، وصاغ لهم المناطق ، وقلدهم السيوف المحلاة وسماهم المختارة . (٣)

وشأن هذه الدولة في إقامة المباني ومظاهر الحضارة شأن عجب ، وأول دلالته كثرة الرخاء وامتلاء الخزائن بالأموال واستقرار الأحوال والرغبة في تأثيل المحبد .

وليس من الإسراف في موضوع الأدب أن نطيل بوصف ما كان من أعمال النابهين من رجال هذه الدولة في هذا الشأن ؛ فإن هذه الأعمال وإن كان الغرض الأول منها تمتع أصحابها بها والدلالة على مقدرتهم تكون إلى جانب ذلك كله مادة لتحياي الشاعر ومجالا لتصويراته ومراما ومغذى لتأملاته ؛ بصورها تعمر تخيلته وبمجالسها تنبعث شاعريته ، فإذا أطلنا في نقل أوصاف هذه الآثار فلنما نعرفك بكتاب قرأه شعراء هذا الزمن وجالوا بنظراتهم في صفحاته فكان مادتهم ومثالهم فيما يرسمون .

كانت مدينة القطائع التي أنشأها أحمد بن طولون على جبل يشكر قد أهلت في أيامه بالعدد الكثير والمباني الفخمة ، فمما أنشأه بها أحمد ، مسجد جامع الذي لا يزال ماثلا إلى اليوم . وقد بلغت النفقة عليه مائة وعشرين ألف دينار (٤) .

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٩ .

(٤) المراجع السابق ص ٨ .

وجعل في بنائه عنبراً لتفوح رائحته على المصلين (١) . وقد علق فيه القناديل المحكمة بسلاسل النحاس المفرغة الحسان الطوال . وكان في وسط صحنه قبة مشبكة من جميع نواحيها وهي مذهبة ، على عشرة عمد رخام . وقد جعل تحت القبة قطعة رخام سعتها أربع أذرع وفي وسطها فوارة تفور بالماء .

كذلك بنى القصر بمدينة القطائع وجعل له ميداناً كبيراً للعب الكرة وسمى القصر قصر الميدان ولما توفي زاد ابنه خمارويه في القصر كثيراً . ومما زاد فيه « مجلس الذهب » الذي جعله مجلساً له ولبوران محظيته ، وقد طلى بالذهب واللازورد ونقش على جهات من جدرانها صور بارزة له ولحظاياه ومغنياته ، وعلى رؤوسهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر وفي آذانهن أقراط الذهب الثقال .

كذلك أنشأ بالقصر بركة الزئبق ، وكان قد اشتكى إلى طبيبه الأرق فأشار عليه بالتكيس فأنف من أن يضع أحد يده على جسمه ، فأشار عليه الطبيب بعمل بركة من زئبق ، فعملت على هيئة مربع طول ضلعه خمسون ذراعاً وملئت بالزئبق وجعل في أركانها سلك من الفضة بزنانير من الحرير ، ثم اتخذ عليها فرش من جلد يملأ بالهواء فينتفخ ثم يحكم ربطه ويلقى في البركة ويربط بالزنانير في حلق الفضة ، وكان ينام على هذا الفرش فلا يزال يرتجج بحركة الزئبق مادام عليه . وكان يرى لهذه البركة في الليالي القمرية منظر عجيب إذا انعكس ضوء القمر على سطح الزئبق .

كذلك بنى في القصر قبة ضاهى بها قبة السماء سماها الدكة وجعل لها ستوراً تقي الحر والبرد وكان يجلس فيها ليشرق على البستان والنيل والصحراء والجبل .

كذلك اتخذ في الدار داراً للآساد ، كل بيت لأسد ولبؤته ، وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها بمحركات ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الموكل بخدمة البيت لينظفه ويفرشه بالرمل . وإلى جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وكانت هذه البيوت مملوءة بالآساد ولها أوقات تفتح فيها تخرج الآساد كلها إلى القاعة وتمشى وتمرح ويهارش بعضها بعضاً ، فتقيم يوماً كاملاً إلى العشي ثم يصيح بها السواس فيدخل كل أسد إلى بيته لا يتخطاه إلى غيره وكان من جملة هذه الآساد أسد أزرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤدي أحداً

(١) خطب المقرئ ج ٢ ص ٢٦٨ .

وكان يقف إلى جانب مائدة سيده فيرمى له بالدجاجة بعد الدجاجة يتفكه بها . وكان هذا الأسد يحرس سيده إذا نام فلا يجرؤ غادر أن يقرب من سيده .

كذلك عمل في القصر برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص وزوقه بأصناف الأصباغ وبلط أرضه وجعل في تضاعيفه أنهاراً لطافا يجري فيها الماء مدبراً من السواقي التي تدور على الآبار العذبة وتستقي منها الأشجار وغيرها . وقد سرح في هذا البرج كل طائر جميل الشكل حسن الصوت .

أما ميدان أبيه فقد زاد فيه وجعله بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ونقل إليه الودى الأنطيف الذي ينال ثمره القائم والجالس ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة وجعل بين النحاس وأجساد النخل ميازيب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فينحدر إلى أحواض يفيض الماء منها إلى مجار تسقى سائر البستان . وقد غرس فيه الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدا البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وتقرأ واضحة جداً .

وقد تحقق ما قلناه من صيرورة هذه الآثار ماثراً لشاعرية الشعراء ومبعثاً لخيالاتهم ؛ فخذ أكثر الشعراء من وصف محاسن هذه الآثار أيام كانت قائمة كما ذرفوا عليها الدمع مدراراً بعد تحزبها على أثر انقضاء دولة أصحابها .

فمما قيل في ميدان أحمد بن طولون وفي قصوره من المراثي قول لإسماعيل بن أبي هاشم (١) .

والقصر ذى الشرفات والأبراج	قف وقفة بفناء باب الساج
بعد الإقامة أيما إزعاج	وربوع قوم أزعجوا من دارهم
يسرى بها السارون في الإدلاج	كانوا مصابيحاً إذا ظلم الدج
من فضة مصبوبة أو عاج	وكان وجوههم إذا أبصرت
في كل ملحمة وكل هيـاج	كانوا الثريا لا يرام حماهم

(١) الولاة والقضاة ص ٢٥٢ .

فانظروا إلى آثارهم تلتى لهم
وعليهم ما عشت لا أدع البكا

وقال أحمد بن أبي يعقوب (١) .

إن كنت تسأل عن جلالة ملكهم
وانظر إلى تلك القصور وما حوت
وإذا اعتبرت ففيه أيضاً عبرة
يا قتل هارون اجتثت أصـوـلـهـم
لم يغن عنهم بأس قيس إذ غدا
وعديّة البطل الكمي وخـزـرج
زفت إلى آل النبوة والهدى

علماً بكل ثنية وفجاج
مع كل ذى نظر وطرف ساج

فارتع وعج بمراتع الميـدان
واسرح بزهرة ذلك البستان
تنبيك كيف تصرف العصران
وأشبت رأس أميرهم شيبان
في جحفل لجب ولا غسان
لم ينصرا بأخيهمـو عدنان
وتمزقت عن شعبة الشيطان

وقال سعيد القاص قصيدة عدتها أربعون بيتاً كما رواها الكندي في الولاة والقضاة (٢)
وقد أثرنا نقلها هنا برمتها لأنه تناول فيها آثار القوم فدل عليها وأشاد بذكرها وأعول
كثيراً على بنائها فنحن نقلها لذلك . ولما منى به هذا العصر من ضياع كثير من شعر
شعرائه قال :

جرى دمه ما بين سحر إلى نحر
وبات وقيداً للذي خامر الحشى
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى
تتابع أحداث تحيفن صبره
أصاب على رغم الأنوف وجدعها
طوى زينة الدين ومصباح أهلها
فبادوا وأضحوا بعد عز ومنعة
وكان أبو العباس أحمد ماجدا
كان ليالى الدهر كانت لحسنها
يدل على فضل ابن طولون همـة

ولم يجر حتى أسلمته يـد الصبر
يثن كما أن الأسير من الأسر
يبست على جمر ويضحى على جمر
وغدر من الأيام والدهر ذو غدر
ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
بفقد بنى طولون والأنجم الزهر
أحاديث لا تخفى على كل ذى حجر
جميل الحيا لا يبيت على وتر
ولإشراقها في عصره ليلة القدر
محلقة بين السماكين والفغـر (٣)

(١) الولاة والقضاة ص ٢٥٠ .

(٢) ص ٢٥٣ .

(٣) ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر وهي من الميزان .

يخبر عنه بالجلي من الأمر
 له مسجد يغنى عن المنطق الهذر
 وبانيه لا بالضنين ولا الغمر
 وبالممر المسنون والجص والصخر
 وثيق المباني من عقود ومن جُدر
 رقيق النسيم طيب العرف والنشر
 على شاطئ عال على جبل وعر
 ويهدى به في الليل إن ضل من يسرى
 سهيلاً إذا ملاح في الليل للسفر
 وغير أجاج للرواة وللطهر
 تروح وتغدو بين مد إلى جزر
 من الأرض من بطن عتيق إلى ظهر
 وشعبان والأحمر والحى من بشر
 ولا النيل يرويه ولا جدول يجرى
 وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
 ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقر
 وللحى رفق في علاج وفي جبر
 إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر
 من الناس في بدو البلاد ولا حضر
 ومجد يؤدي واريثه إلى الفخر
 أجل إذا ما قيس من قبتي حجر
 كما قام ليث الغاب في الأسل السمر
 فيالك من ناب حديد ومن ظفر
 كذلك أبو الأشبال ذو الناب والظفر
 ولكن جيشاً كان مستنقص العمر
 على نكد من ضيق باع ومن حصر
 عقاربه من كل ناحية تسرى
 كما ارفض سلك من جمان ومن شذر

فإن كنت تبغى شاهداً ذا عدالة
 فبالجبل الغربى خطة يشكر
 يدل ذوى الأبواب أن بنائه
 بناه بآجر وآس وعرعر
 بعيد مدى الأقطار سام بناؤه
 فسيح الرحاب يحسر الطرف دونه
 وتور فرعون الذى فوق قلعة
 بنى مسجداً فيه يفوق بناؤه
 تحال سنا قنديلته وضياءه
 وعين معين الشرب غير ركيعة
 كأن رفود النيل فى جنباتها
 فأرقأها مستنبطاً لمعينها
 تمر على أرض الماعز كلها
 قبائل لا نوه السحاب يمددها
 ولا تنس ماراته واتساعه
 وما فيه من قوامه وكفاته
 قللميت المقبور حسن جهازه
 وإن جث رأس الجسر فانظر تأملا
 ترى أثراً لم يبق من يستطيعه
 مآثر لا تبلى وإن بساد ربهها
 لقد ضمن القبر المقدر ذرعاه
 وقام أبو الجيش ابنه بعد موته
 كذلك الليالى من أعارته بهجة
 وورث هارون ابنه تاج ماجده
 وقد كان جيش قبله فى محله
 فقام بأمر الملك هارون مودة
 وما زال حتى زال والدهر كاشح
 يذكرهم لما مضوا افتابوا

فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهله لفقدهم فليك حزناً على مصر
ليبك بنى طولسون إذ بان عصرهم فبورك من دهر وبورك من عصر
ولما أمر الحسين بن أحمد الماذرائى متولى خراج مصر من قبل المكتفى بهدم الميدان
ابتدأ بهدمه فى أول شهر رمضان سنة ٢٩٣ هـ وبيعت أنقاضه حتى دثر وزال مكانه كأن
لم يكن فقال محمد بن طشويه : (١)

من لم ير الهدم للميدان لم يره تبارك الله ما أعلى وأقـدره
لو أن عين الذى أنشاه تبصره والحادثات تغاديه لأكبره
كانت عيون الورى تعشى لهيبته إذا أضاف إليه الملك عسكره
أين الملوك التى كانت تحل به وأين من كان بالإتقان دبـره
وأين من كان يحميه ويحرسه من كل ليث يهاب: الليث منظره
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم وحط ريب البلى فيه فدعـره (٢)
وأخلق الدهر منه حسن جدته مثل الكتاب يحا العصران أسطره
دكت مناظره واجتث جوسقه كأنما الخسف فاجأه قدمـره
أوهب إعصار نار فى جوانبه فعاد معروفه للعين منكـره
كم كان يأوى إليه فى مقاصره أحوى أغن غضيض الطرف أحوره
كم كان فيه لهم من مشرب غدق فعب طرف الردى فيه فكدره
أين ابن طولون بانيه وساكنه أماته الملك الأعلى فأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر طوى لمن خصه رشد فذكره
وقال أحمد بن إسحاق : (٣)

وكان الميدان ثكلى أصيبت بحبيب صباح ليلة عـرس
تتغشى الرياح منه محلاً كان للصوص فى ستور الدمقس
ومنها :

ووجوه من الوجوه حسان وخذود مثل اللآلى ماس

(١) الولاة والقضاة ص ٢٦٣ .

(٢) دعره : هدمه .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٢ .

ء رداح من بين حو ولعس
ض فأضحى الجديد أهدام لبس

سقاك صوب النوادي القطر والمطرا
وكان يعدل عندي السمع والبصرا
أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

كل كحلاء كالغزال ونجلا
آل طولون كنتم زينة الأر

وقال إسماعيل بن أبي هاشم (١)

يا منزلا لبني طولون قد دثرا
يا منزلا صرت أجفوه وأهجره
بالله عندك علم من أحببنا

(١) المرجع السابق ص ١٤٣ .

مظاهر الشعر في الدولة الطولونية

لكل عصر من عصور الأدب مظاهر في شعره يحرص المؤرخ أن يتعرفها لتكون في مجموعها ميزة ذلك العصر بين غيره من العصور .
وإذا نظرنا — مع قلة ما ورد إلينا من شعر في الدولة الطولونية — وجدنا أن هذه المظاهر في هذا العهد هي : رثاء الآثار ، والشعر السياسي .

١ — رثاء الآثار

أغلب مظاهر الشعر مشترك بين عصور اللغة العربية في كل مكان، ولكن من بينها واحدا وهو رثاء الآثار يرى جديدا هنا بين مظاهر الشعر العربي في الشرق والغرب .

ذلك بأن هذا النوع لم يكثر في قطر من أقطار العربية إلا في هذه الدولة وبلاد الأندلس ، ولا بد من تفهم الأسباب التي جعلته بين الوضوح في هذين الموضعين، ذلك أن النكبة التي أصيبت بها دولة آل طولون كانت شديدة الوقع بئينة الأثر في نفوس أهل البلاد ، لفظاعتها من ناحية ، ولجنايتها من ناحية أخرى على آثار كانت حبيبة إلى القوم مستولية على مشاعرهم موجبة لفخرهم بموطنهم ، ففقدانهم لها يعد فاجعة كبرى تثير مشاعر الشعراء ، وهم عرق الأمة النابض ، وكذلك كان الحال في الأندلس ، ولكن في عصر متأخر عن عصر الدولة الطولونية لأن العرب في الأندلس لم يبدعوا يضعفون إلا في القرن الخامس الهجري فحين ذاك بكوا آثارهم وتفجعوا على مدنهم وتوسلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبكبار رجالهم لإزاحة هذه النكبات عنهم .

ونريد هنا أن نستخلص أن الأندلسيين لم يكونوا السابقين إلى ذلك النوع من الشعر بل قد سبقهم بزمن طويل أهل مصر الذين بكوا آثارهم في أواخر القرن الثالث الهجري . ولو أن بين أيدينا أمثلة من شعر المصريين في نكبة الدولة الطولونية غير ما ذكرنا سابقا لنقلناه هنا لنشيع رغبتك من الآثار الأدبية لهذه الدولة ، ولكن جناية القائد محمد بن سليمان على التاريخ بتعقبه آثار هذه الدولة هو الذي أنسى الناس مظاهر عظمتها .

٢ - الشعر السياسي

ظاهرة مشتركة بين كل العصور ولكنها تشكل في كل عصر بما كان له من ملايسات، فحينما تكون عصبية بين القبائل، وآخر تكون خلافا مذهبيا بين عباسيين وعلويين، ومرة تكون صدى لمعارك وحروب على أرض الوطن بين مغير ومدافع، وهنا يتشعب القول شعبتين، فللمدافع أنصار يحملهم الوفاء على شد أزره وتأيد كلمته، وللمهاجم أنصار لم ينالوا حظا من دولتهم فهم يطمعون في فاتح يكون لهم على يده أمل يتحقق أوهم قبل ذلك مرتشون من هذا المهاجم ليبتوا في قلوب الناس الذعر ويحملوهم على كراهة الحكم والقائمين به. وقد تمثل في الشعر السياسي أيام الطولونييين هذان الاتجاهان وستراهما مائتين فيما نقل لك من نماذج هذا النوع (١).

نماذج من الشعر السياسي

١ - هذا شاعر يسمى محمد بن داود يعلن كراهته لابن طولون منذ دخل البلاد ويزرى على آثاره فيها فيقول :

ألا أيها الأغفال إيهما تأملوا	وهل يوقظ الأذهان غير التأمل
ألم تعلموا أن ابن طولون نعمة	تسير من سفلى إليكم ومن عل
ولولا جنابات الذنوب لما علت	عليكم يد العليج السخيف الجهل
فياليت مارستانه نيط باسته	ومافيه من عليج عتل مفئل
فكم ضجعة للناس من خلف ستره	تضحج إلى قلب عن الله مغفل

٢ - وهو أيضا يهجو له ما بنى حصن الجزيرة واستعد بإنشاء المراكب الحربية، دفاعا عن مصر من وثبة موسى بن بغا :

لما ثوى ابن بغا بالرقتين ملا	ساقيه زرقاً إلى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصنا يستجن به	بالعسف والضرب والصناعات تب
له مراكب فوق النيل راكدة	فما سوى القار للنظار والخشب
يرى عليها لباس الذل مذ بنيت	بالشطر ممنوعة من عزة الطلب
فما بناها لغزو الروم محتسبا	لكن بناها غداة الروح للهرب

(١) هذه النماذج كلها منقولة من كتاب الولاية والقضاة ما بين ص ٢١٦ ، ص ٢٥١ .

٣ - وها هو ذا العباس بن أحمد بن طولون يخرج على أبيه حين استخلفه على مصر وخرج للقاء أعدائه بالشام فيتحصن بالإسكندرية أولا ثم يخرج إلى برقة ثم ممن في إفريقية أفهو يقول مفتخرا بشجاعته :

لله درى إذ أغدو على فرسى	إلى الهياج ونار الحرب تستعر
إن كنت سائلة عنى وعن خبرى	فها أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون إن سألت عنه فما	فوق لمفتخر بالجوهر مفتخر
لو كنت شاهدة كرى بلبدة إذ	بالسيف أضرب والهامة تبذر
إذا لعانيت منى ما تنادره	عن الأحاديث والأنباء والخبر

٤ - لما حارب أبو أحمد الموفق ، أحمد بن طولون عمل ابن طولون على خلعه من ولاية العهد وورد كتابه إلى مصر فقرأ على أهلها بأن أبا أحمد نكث بيعة المعتمد وأسره وحرص عليه وأن المعتمد بكى بكاء شديدا ، وقال قعدان بن عمرو في ذلك منتصرا لابن طولون :

طال الهدى بابن طولون الأمير كما	يزهو به الدين عن دين وإسلام
قاد الجيوش من القسطنطينية	منه على الهول ليث غير محجام
في جحفل للمنايا في مقانبه	مكامن بين رايات وأعلام
يسمو به من بنى سام غطارقة	بيض ، وسود أسود من بنى حام
لو أن روح بنى كنداج معلقة	بالمشترى لم يفته أو بهرام
حاط الخلافة والدين خليفتنا	بصارم من سيوف الله صمصام
يأبها الناس هبوا ناصرين له	مع الأمير بدهم الخيل في اللام
ليست صلاة مصليكم بجائزة	ولا الصيام بمقبول لصيام
حتى يرى السيد المأمون ذبكم	عن الإمام بأطراف القنا الدامي

٥ - وقال في هذا المقام أيضا منصف بن خليفة الهدلى :

يا غرة الدنيا الذى أفعاله	غرر بها كل الورى يتعلق
أنت الأمير على الشام وثغرها	والرقتين وماحواه المشرق
ولإليك مصر وبرقة وحجازها	كل إليك فؤاده مشوق
هتك الخلافة صاعد وخليقه	إسحاق لعبا والحسود الأخرق
أسيافنا بيض المنون فليتها	بنجيع من خذل الإمام تخلق

تمسى وتصبح ضاربا من دونه بمهند منه الختوف تفرق
يتلوك سعد والمقدم تيتك واللاذقي وذو الحفيظة يلحق

٦ — حضر أحمد بن طولون من دمشق إلى أذنة ثم إلى طرسوس للقاء (يازمان) فوجده قد تحصن بها فترل أحمد ببحوشه في برد شديد وأمطار كثيرة وأرسل عليه (يازمان) الماء فغرق عسكره فرحل ابن طولون ورجع إلى أذنه فقال محمد بن داود يعد ذلك هزيمة لأحمد بن طولون ويشنع عليه بها وقد عرفت فيما مضى كراهيته له :

بغى على الثغر وأزرى به بغى أبى القصد نصاج
وسار كى يمحث آثارهم من سفلى الناس بأفراج
واستنصر القوم على بغيه بكل صافى القلب ضججاج
وكل ماضى الحد ذى رونق ومحكم الثقيف بعجاج
فاستعمل الملعون أدراجه منهزما أخبث إدراج
فكيف قاتلت أسود الشرى أولى الزماجير بلهجاج

٧ — لما مات أحمد بن طولون هجاه خصمه السياسى محمد بن أبى داود فقال :

عرج على اليمحوم فأنزل به فاسلح، على قبر ابن طولونا
وقل له يا شر مستودع أخفى لدمع القلب ملعونا
يا حفرة النار التى أضرمت وظل فيها الرجس مدفونا
لا تجعلى لبسة جثمانه إلا الأفاعى والثعابيننا
فجز إبليس بها أولا وعز من بعد الشياطيننا
وقل لهم قد كان يكفيكمو ويهتك المعروف والديننا
ثم مضى غير فقيد ولا كان حميدا عمره فينا

وقال أيضا :

مضى غير مفقود وما كان عمره سوى نقمة للخلق شجاع صيلم
لقد زيد فى اليمحوم بالرجس لعنة ولم يسق بالمرجوس ترب المقطم
ولم تبكه الأرضون لكن تبسمت سرورا ولولا موته لم تبسم
يبشره إبليس عند قدومه عليه بأحمى بقعة فى جهنم
لقد طهر الأرضون من سوء فعله ومن وجهه ذاك الكريه المورم
فلا سقيت أجدائه صوب مزنة وأنى وفيها شر أولاد آدم

٨ - لما تولى خمارويه بعد أبيه كان الخليفة المعتضد يتهيبه فكتب إليه الواسطي يصغر من أمر خمارويه ويحضه على المسير إليه .

يا أيها الملك المرهوب جانبه	شمر ذيول السرى فالأمر قد قربا
كم ذا القعود ولم يقعد عدوكو	عن القتال لقد أصبحتمو عجباً
ليس المرید لما أصبحت تطلبه	إلا المشمر عن ساق وإن لعباً
فأنت ذو غفلة يقظان ذو سنة	وطالب الوتر ذو جد إذا غضباً
أجد مروان في بيت أصاب به	عين الصواب فما أخطأ وما كذباً
إذ قال لما رأى الدنيا تميد بهم	بعد الهدوء وعاد الحبل مضطرباً
إني أرى فتناً تغلي مراجلها	والملك بعد أبي ليلي لمن غلباً (١)

٩ - حارب خمارويه الخلافة ببغداد وانتصر عليها حتى بلغت جيوشه سر من رأى فقال القاسم بن يحيى المرمي :

أثانا أبو الجيش الأمير بيمنه	فشرد عنا الجور وافتقر العسر
فإن يك أرض الرقتين به اكتست	ضياء وإشراقاً لقد أظلمت مصر
فسائل به إسحاق إذ سار نحووه	بجيش كعرض النيل يقدمه النصر
تباعدت الأقطار منه كثافة	ففي مشرق قطر وفي مغرب قطر
فأبلس إذ قيل الأمير ببالس	وأضحى ضعيف العقدة إذ عقد الجسر
ولما رأى الجيش ابن كنداج مقبلاً	أرته المنايا الحمر أعلامه الحمر
فولى شريداً ذا ارتباع كأنه	بكل بلاد طائر ما له وكر
لئن سر إسحاق النجاة بنفسه	لقد ساءه في جمعه القتل والأسر
فلا يغبطن بالعيش من بعد هذه	فقد كسرت كسرة مالها جسر

١٠ - لما زالت دولة آل طولون تنازع الشعراء عاملان قويا أحدهما يني للماضي والآخر يطمع في الحاضر . فقال شعراء في رثاء الدولة وقد مر بك ذكرهم وشعرهم ، وقال آخرون في الترحيب بالعهد الجديد فمن ذلك قول أحمد بن محمد الحبيشي :

الحمد لله لإقراراً بما وهبا	قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا
الله أصدق هذا الفتح لا كذب	فسوء عاقبة المثوى لمن كذبا

(١) أبو ليلي جماعة منهم مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية .

فتح به فتح الدنيا محمدها
لاريب رب هياج يقتضى دعة
رمى الإمام به عنراء غادرة
محمد بن سليمان أعزهم
سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشرا -
حم القضاء على اليعقوم حين أتوا -
إيها علوت على الأيام مرتبة
هارت بهارون من ذكراك بقعته
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم
وفرج الظلم والإظلام والكره
وفى القصاص حياة تذهب الريا
فافتض عنرتها بالسيف واقتضبا
نفساً وأكرمهم فى الذاهيين أبا
أضحى عرينهمو الخطى لا القضيها
مثل الدبى يمنحون الدبة الدأبا
أبا على ترى من دونها الرتبا
وشيب الرعب شيانا وقد رعبا
كأنها من زمان غابر ذهبها

وقال أيضا يخاطب الحسين بن أحمد الماذرائى :

هنيئا لمصر قد فتحت رتاجها
وما الفتح الا فتح رأيك لا الذى
وكنت وشييان غداة لقيته
كفيت الإمام المكتفى ما ينوبه
وما زلت ترمى آل طولون قبلها
وقلدت ما قلدته بتحككم
تجمع يوم الجمع من كل معلم
كموسى وفرعون غداة المعظم
ولم يك يرجوه بكل مرجم
وقد خالفوا السلطان منك بصيلم

٣ - وصف مجالس اللهو :

ذلك هو الشعر الذى يقال فى وصف مجالس اللهو ومعاقرة الخمر فترى فيه الاستهتار
واطراح كلف الحياة والإقبال على الشراب والأنس بالأحباب ووصف الكتوس ،
وفعلها بالرءوس ومعاطاة الندماء والغزل بالظباء .

ذلك الشعر لا يكون إلا حين يكثر الترف ويحتريئ الناس على الدين . وقد كان فى
دولة بنى طولون عون للفساق على فسقهم ؛ فقد كان أحمد بن طولون إلى جانب تمسكه
بالدين يشرب الخمر ويطرب للسمع ، وكان خمارويه مولعا مثله بالشراب حتى قيل
لأنه كان يشرب أربعين رطلا من نبيذ مصر (١) مع أن الرطل المصرى يعادل أرتالا ،
وكان أحمد بن طولون قد اتخذ حجرة بقربه يجعل فيها رجالا سماهم المكبرين كان

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٣ .

يبست منهم بها أربعة في كل ليلة يكبرون ويسبحون ويقرءون القرآن بالتطريب ، فلما ولي خمارويه أقرهم على ما هم عليه وكان إذا سمعهم وهو بين جواريه رمى القدح من يده وذكر الله معهم ولم يكن يتبرم بهم . وكان من مظاهر اللهو في هذه الدولة ما شاع في عصرها من قصد الشعراء للأديرة يشربون من خمرها ويتمتعون بجمال غلمانها . وقد فعل ذلك الأمراء أيضا حتى قيل إن خماروية بنى لنفسه غرفة بأعلى دير القصير وكان يكثر من زيارة هذا الدير لإعجابه بصورة العذراء فيه فكان يطيل النظر فيها . وكان بمصر غير دير القصير دير مار حنا على شاطئ بركة الحبش ، ودير نهيا بقرب الجيزة ، ودير طمويه .

ويحسن أن نسوق هنا ما قاله أبو الحسن على بن محمد الشافعي صاحب كتاب الديارات ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٥٦ تاريخ قال عن هذه الأديرة الثلاثة التي كانت بديار مصر .

دير القصير :

وهذا الدير في أعلى الجبل على سطح في قلته ، وهو دير حسن البناء محكم الصنعة نزه البقعة ، فيه رهبان مقيمون به ، وله بئر منقورة في الحجر يستقي منها الماء وفي هيكله صورة مريم في حجرها صورة المسيح عليه السلام . والناس يقصدون هذا الموضع للنظر إلى هذه الصورة . وفي أعلاه غرفة بناها أبو الحبش خمارويه بن أحمد بن طولون لها أربع طاقات إلى أربع جهات ، وكان كثير الغشيان لهذا الدير معجبا بالصورة التي فيه يشرب على النظر إليها

دير مار حنا :

وهذا الدير على شاطئ بركة الحبش قريب من البحر إلى جانبه بساتين وبقرع هذا الدير بئر تعرف ببئر نجاتي عليها جميزة يجتمع إليها الناس ويشربون عندها وهذا الموضع من مواضع اللعب ومواطن اللهو والطرب .

دير نهيا :

ونها بالجيزة وديرها من أحسن الديارات وأزهرها وأطيبها عامر برهبانه وسكانه

وله في النيل منظر عجيب لأن الماء يحيط به من جميع جهاته فإذا انصرف الماء وزرع ظهرت في أرضه غرائب النوار وأصناف الزهر ، فهو من المنتزهات المصروفة والبقاع المشهورة . وله خليج يجتمع إليه سائر الطيور . فهو أيضا متصيد حسن .

دير طمويه :

وطمويه في الغرب بإزاء حلوان والدير راكب البحر وحوله الكروم والبساتين والنخل والشجر ، فهو نزه عامر أهل وله في النيل منظر حسن ، وحين نخضر الأرض يكون بين بساطين من البحر والزرع وهو أحد منتزهات مصر المذكورة ومواضع لهوها المشهورة .

ذكر الشافعي ما نقلناه إليك في وصف هذه الأديرة ، وكان يعقب على ذكر كل دير بما قيل في وصفه من الأشعار ، ولكننا والأسف يملأ قلوبنا لم نجد بين من ذكرهم شاعرا من شعراء الدولة الطولونية . وما ذلك إلا لأن شعرهم ضاع مع آثارهم .

وسنستطيع في الحديث عن الشعر في الدولة الإخشيدية أن نستدل على أن شعراءها قد أكثروا من ذكر هذه الأديرة ووصف ما كان فيها من مرح وشراب وسحر ، وليس بين الدولتين من الزمن ما يستساغ معه أن تختلف الأحوال فيها اختلافا كثيرا يحرم على شعراء الطولونية أن يلهوا ويمرحوا ويقصفوا خصوصاً وقد أثبتنا أن أمراءهم كانوا مولعين باللهو والشراب ، والاختلاف إلى هذه الأديرة عينا .

تراجم بعض شعراء الدولة الطولونية

مبلغ شعراء هذه الدولة :

إذا تركنا الحكم للعقل لحكم جازما بأن هذه الدولة لا بد أن يكون للأدب فيها رواج عظيم ، ولا بد أن يكون شعراؤها كثيرين ، على نسبة كثرتهم في بغداد ، لأن دولة نشأت على منافسة بغداد وعملت على الاستئثار دونها بالسلطان وضمت إلى حوزتها تلك الرقعة الواسعة من ملك هذه الدولة لا بد أن تكون في منافستها وفيما عملت من وسائل لإظهار قوتها وعظمتها ، قد شجعت الآداب وبذلت كثيرا للشعراء .

يؤيد ما نقوله من ولوع هذه الدولة الناشئة بمنافسة بغداد واتخاذها من الشعراء أبواقا لإذاعة محامدها وإظهار فخامتها وبث هيبتها في النفوس ، أن همة أحمد بن طولون في البذل للشعراء لم تقف عند شعراء مصر بل لقد تعدتهم إلى شعراء بغداد ، فقد اجتذب أحمد بن طولون بعطاياه المغرية شاعرا كبيرا من شعرائها ، بل هو أكبر شعرائها في أيامه ، وذلك هو الوليد بن عبيد البحرى فإن له فيه قصائد بنيت على مدحه خاصة لم يخلط ذلك بمدح خليفة ولا وزير حتى يكون ذكر ابن طولون تبعاً له .

ولا شك أن العطاء الذى يرضى البحرى بعد مذاق جوائز الخلفاء ، هو جود مغر وعطاء سخى . ومما قال يمدحه به قوله : (١) .

وعند أبى العباس لو كان دانيا	نواحي الغناء السهل والكنف الرحب
وكانت بلاء نيتى عنه ، والغنى	غنى الدهر أدنى ما ينول أو يحبو
وذو أهب للأحداث يمثلهما	يزال الردى عنا ويستدفع الكرب
سيوف لها في عمر كل عدى ردى	وخيل لها في دار كل عدى نهيب

وكذلك كان حال البحرى مع خمارويه فقد مدحه بقوله : (٢)

وقد رأيت جيوش النصر منزلة على جيوش أبى الجيوش بن طولونا

(١) ديوان البحرى ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٢٣٩ .

يوم الثنية إذ ثنى بكرته في النقع خمسين ألفا أو يزيدونا
مظفر لم يزل يلتقى بطلعته كواكب السعد والخيل الميامينا
يمشى قريبا من الأعداء لو وقفوا بالصين من بعدها ما استبعد الصينا

هذه النتيجة يؤيدها كل التأييد ما ورد في كتاب «النجوم الزاهرة» (١) وهو :
قال القاضي أبو عمر وعثمان النابلسي في كتاب «حسن السيرة في اتخاذ الحصن
بالجزيرة» : « رأيت كتابا قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونة فهرس شعراء الميدان
الذي كان لأحمد بن طولون ، قال : فإذا كان اسم الشعراء في اثنتي عشرة كراسة
فكم يكون شعرهم ؟ !! »

وقد كان القدرح في حكمنا على شأن الأدب في هذه الأيام جائزا لو كانت الدولة
أعجمية بحتا لا ينصر أهلها الأدب ولا يحفلون برجاله ، ولكن المذكور عن رجال هذه
الدولة أنهم ذوو ملكات في العربية تؤنسهم بها إن لم تجعلهم يتعصبون لها ، فقد كان
أحمد بن طولون حافظا للقرآن متقنا له وكان من أطيب الناس صوتا به مع كثرة الدرس
وطلب العلم . كذلك كانهم العباس ابنه شاعرا وهو الذي يقول : (٢)

لله درى إذ أعدو على فرسى إلى الهياج ونار الحرب تستعر
وفي يدي صارم أفرى الرعوس به في حيرة الموت لا يبقى ولا يذر
إن كنت سائلة عني وعن خبري فها أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أصلي إن سألت فما فوق لمفتخر في الجود مفتخر
لو كنت شاهدة كرى بلبدة إذ بالسيف أضرب والهجمات تبشدر
إذاً لعانت مني ما تنادره عني الأحاديث والأنباء والخبر

ولقد دعانا إلى الاستنباط وتأييد حكم العقل أننا والأسف عملاً قاوبنا لم نجد شأن
الأدب في هذه الدولة المذكورة في كتب السالفين بأكثر من القسط الذي أدلينا به إليك ،
ولم نجد من شعرائها إلا قليلا إلى جانب من مر بك ذكر أسمائهم في عرض الاستدلال
بشعرهم .

وسبب ذلك الإغفال الذي نال أدب هذه الدولة هو الحكم العام الذي قدمنا في كل

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣ . .

(٢) مرت هذه الأبيات ص ١٠٨ .

إذا سقام عراك نازله فاندب أبا جعفر نازله
يعرف ما يشككه صاحبه كأنما جال في مفاصله

واتفق أن تساقطت النجوم في أيام أحمد بن طولون فراعته ذلك وأحضر من عنده
من المنجمين والعلماء وسألهم ما عندهم في ذلك فلم يجيبوا بشيء ، فدخل عليه الجمل
المذكور وهم في الحديث فأنشده في الحال :

قالوا تساقطت النجوم ————— م لحادث فـ ————— عسير
فأجبت عنـ ————— مقالمه يجواب محتـ ————— اك خبير
هـذى النجوم الساقطـ ————— ت رجوم أعـ ————— الداء الأمير

فتفاعل ابن طولون واستبشر وأمر له بصلة مرضية وخلعة سنية وقال للجماعة :
أف لكم أما فيكم من يحسن مثل هذا ؟ ١١

٢ — الناشئ الأكبر : (١)

هو أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ ، الأنباري المعروف بابن شرشير كان من
الشعراء المحيدين ، وهو من طبقة ابن الرومي والبحري .. وكان نحويًا عروضيًا متكلمًا .
أصله من الأنبار وأقام ببغداد مدة طويلة ثم خرج منها إلى مصر فأقام بها إلى آخر عمره .
كان متبحرًا في جملة علوم منها المنطق ، وكان بقوة الكلام قد نقض كثيرًا من علل النحو
وأدخل على قواعد العروضيين شيئًا ومثل له بأمثلة غير أمثلة الخليل وذلك بحذقه وفطنته .
وشعره كثير منه قصيدة في فنون من العلم على دوى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت ، وقد
أكثر في شعره من ذكر جوارح الصيد وآلاته والصيد وما يتعلق بها ، وقد اعتمد كشاجم
في كتابه « المصايد والمطارد » (٢) على شعر الناشئ واستشهد بكثير منه .

ومن شعره في الطرد قوله يصف بازيا :

لما تفرى الليل من أثـ ————— باجـ وارتاح ضوء الصبح لا فـ ————— بلاجـ
غدوت أبغى الصيد في متـ ————— باجـ بأقمر أبـ ————— بدع في نتـ ————— باجـ

(١) ترجمته في وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٦٣ وفي شذرات الذهب ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) مفقود .

ليسـه الخالق من دياجـه وشيا أحر الطرف في اندراجـه
 في نسق منه وفي انعراجـه وزان فوديه إلى حجـاجـه
 يزينة كفته نظم تاجـه منسره ينـي عن خلاجـه
 وظفره يخبر عن علاجـه او استضاء المرء في إدلاجـه
 بعينه كفته عن سراجـه

وطردياته على أسلوب طرديات أبي نواس . أليست هذه القطعة شبيهة بقول أبي نواس يصف كلب صيد :

أنعت كلبا أهله في كـده قد سعدت جدودهم بجـده
 وكل خير عندهم من عنـده يظل مولاه له كعبـده
 يهيت أو في صاحب من مهـده إذا غدا جلله ببـده
 ذا غرة محجلا بزـده تلذ منه العين حسن قـده
 تأخير شديقه وطول خـده تلقى الظباء عنتاً من طـرده
 تشرب كأس شـدها في شـده يصيدنا عشرين في مرـده
 يالك من كلب نسيج وحده

ومن شعر الناشي في جارية مغنية جميلة :

فديتك لو أنهم أنصفـوك لردوا النواظر عن ناظرـيك
 تديرين أعيننا عن سواك وهل تنظر العين إلا إليك
 وهم جعلوك رقيباً علينا فمن ذا يكون رقيباً عليك
 ألم يقرءوا ويحهم ما يـرو ن من وحى حسنك في وجنتيك

مات الناشي بمصر سنة ٢٩٣ هـ . والناشي مسهلة عن الناشي وهولقب غلب عليه وشرشير كذلك لقبه وأصله اسم طائر يصل إلى الديار المصرية شتاء من البحر وهو أكبر من الحمام، والأنبار مدينة على الفرات بينها وبين بغداد عشرة فراسخ . واللفظ في الأصل جمع مفردة نبر وهو هري الطعام، وإنما قيل للبلدة أنبار لأن ملوك الأكاسرة كانوا يخزنون بها الحبوب .

٣- ابن الحداد :

من كتاب «تلقيح الآراء في حل الحجاب والوزراء» (١) أنه كان مختصا بالعباس ابن أحمد بن طولون الذي ثار على أبيه ، فلما استبد بالسلطان استوزره وفرمه إلى برقة فظفر به أحمد بن طولون حين سيق إليه ابنه أسيرا ، فقتل ابن الحداد شر قتلة . وكان العباس لما هم بالانحلال عن طاعة أبيه ، مرتبكا فصنع بن الحداد قصيدة يحرضه بها ويشجعه ومنها :

إذا هممت فلا تربع وقم وثب فأنت أرفع من يسمو إلى الرب
ولم ينقل منها غير هذا البيت .

٤ - المرمي :

هو القاسم بن يحيى بن معاوية. ذكر القرطبي أنه من شعراء مصر المشهورين الذين دونت أشعارهم ، وأنه كان مختصا بخدمة أبي الجيوش خمارويه ، ومما خاطبه به من الشعر قوله يستهديه خيمة :

وقد عرضت إليك حويجة ^١ لي	مصغرة وموقعها جليل
مقدرة من الخليم اللواتي	بها لطف وليس بها خمول
حواليها السيول ولا عليها	إذا أفضت إلى الخليم السيول
بناء يستهل القطر فيه	ولا يعفو كما تعفو الطلول
إذا حلت من الأطناب خرت	كما خر التزيف أو القتييل

(١) مخطوط بدار الكتب ضمن كتاب المغرب في حل أهل المغرب لابن سعيد المغربي .

الكتابة الإنشائية

في عهد الدولة الطولونية

تذكر الكتابة في مباحث الأدب أفراد بها كتابة الإنشاء . وهي قسمان : الرسائل الإخوانية وهي التي تكون بين الإخوان تمثل العواطف الإنسانية من سرور وحزن وعتب وشكر ، والرسائل الديوانية وهي تلك التي يتولاها أولئك الكتاب البلغاء يقومون بها من الخليفة أو الملك الكبير ، في شئون الدولة السياسية من حرب وسلم ومهادنة وصلح واستمالة عاص وتهديد خارج .

وقد عظم شأن هذا النوع من الكتابة حتى صار رئيسه في الدولة العباسية وكل مملكة متفرعة عنها وزيرا يشير على الخليفة أو الملك ، وله في الدولة أعظم مناصبها لأن لم يغلبه في بعض الأحيان رئيس الجند ، والديوان الذي يتولى شؤونه هذا الوزير يسمى ديوان الإنشاء . وهناك كتابة أخرى هي كتابة خراج الدولة ومحاسبة عمالها وضبط أعطيات الجند فيها وتولى صرفها الأربابها . وهذا النوع من الكتابة يسمى كتابة الخراج ، وله ديوان يسمى ديوان الخراج . وعمله في الحساب فلا يتناول الأدب بحث أحواله .

والذي جرى عليه العمل أن ديوان الخراج كان يوجد حيث يوجد مال يحصل وينفق ، فكما يكون في دار الخلافة ديوان خراج يكون في كل ولاية كذلك ديوان خراج لضبط حساب الجبايات والجزء ، وصرف أعطيات الجند ومن إليهم من خدام الدولة .

أما ديوان الإنشاء فلا يكون كما ذكرنا إلا حيث دار الخلافة أو مقر الملك المستقل الواسع الرقعة ، وقد كانت مصر قبل قيام الدولة الطولونية ولاية تابعة للخلافة بالمدينة ثم بدمشق ثم ببغداد ، فلم يكن بها ديوان لإنشاء على النمط المعروف بحضور الملك ، وإنما كان الوالي هو الذي يتولى بنفسه كتابة الرسائل إلى دار الخلافة أو ينيب عنه كاتباً

لا يكون له شأن يذكر ، لافى تمام ملكة الكتابة ولا فى مقدار الثقافة العلمية التى كانت تشترط فى كتاب ديوان الإنشاء بدار الخلافة بعد تحضر العرب .

فلما استقل أحمد بن طولون بمصر ، أراد أن يجمع لها مظاهر الاستقلال ، احتاج إلى إيجاد ديوان للإنشاء على نمط نظره فى بغداد فاختار له فضلاء الكتاب ويجعل عليهم رئيساً يحرص على أن تتوافر فيه الكمالات التى تلتبس فى رؤساء هذا الديوان . ولم يكن عمل ابن طولون محض مباهاة للخلافة العباسية بل إن اتساع رقعة ملكه وتشعب مراسلاته وعظم ما يدور فى هذه المراسلات من شئون . اضطره إلى إنشاء الديوان من ناحية ، وإلى أن يستجيد اختيار كتابه من ناحية أخرى .

لم يكن بمصر للأدب كله (نظماً ونثراً) شأن يذانى شأنه فى بغداد أو العراق جملة فكان لابد لابن طولون من الاستعانة بالعراقيين فى إقامة ديوان إنشائه . وإن كان قد حرص أولاً أن يكون كل عماله مصريين . وله فى ذلك حديث جرى مع صديقه أحمد بن خاقان . قال ابن الداية فى كتابه «سيرة ابن طولون» (١) «حدثني أحمد بن خاقان وكان صديقاً لابن طولون . قال : لما استكتب أحمد بن طولون جعفر بن عبد الغفار اضطرب بما حمله فقلت له : يحتاج موضع هذا الكاتب إلى من هو أوفى منه وزناً . فقال أنا أحتمله لأنه مصرى . فقلت : أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادى . قال : لا والله ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه . وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع فى ذلك البلد أمور صالحة ، منها أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته فى ذلك البلد فيعود مرفقه على فريق من أهله ، ومنها رغبته فى اعتقاد المستغلات به فتكون ضماناً لحياتاته ، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون فى خدمتي . والكاتب العراقى ليس كذلك لأنه يعتقد المستغلات ببلده النائي عنه وعنى : يستبطن الرباع . ومن يشير عليه أن يعمر البلد الذى يعمل فيه وهو فى كل وقت متطلع إلى بلده ، فلهذا السبب زهدت فى كتاب «سر من رأى» مع علمى بتقديمهم فى الكتابة والرجاحة » .

ولكن ابن طولون لم يستطع صبراً عن اصطناع البغداديين فى ديوانه فإنه لم يكد يحدث هذا الديوان حتى جعل رئيسه محمد بن أحمد بن مودود المعروف بابن عبد كان ، الكاتب البالغ الذى أجمع من ذكره على وصفه بالبلاغة ، فقال عنه القلقشندي «ومن

أشهر كتابهم (الطولونيين) بالبلاغة وحسن الكتابة أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود ابن عبد كان كاتب أحمد بن طولون وكان مبدأ الكتاب المشهورين بها . ويقول في مقام آخر عنه « واستكتب ابن عبد كان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره » .

نعم لم نر من صرح يذكر موطنه الأول حتى نعرف أمصرى هو أم عراقى ؛ ولكن الذى يغلب على الظن أنه ليس بمصرى لأن روح كتابته وقوتها تسامى نظائرها فى كتاب العراق ، ولو أنه كان مصرى حضر أيام ابن طولون الأولى لظهرت له فضيلته فاختره للعمل بديوانه ولم يضطر إلى اتخاذ من اتخذهم من قبله ، فلا بد أن يكون طارفاً على مصر ، والشأن فى الدولة الناشئة أن يقصدها الفضلاء من الأقطار لخدمتها والانتفاع ببذلها لأعوانها . أو أن يكون ابن طولون قد سمع بشهرته فاستدعاه للعمل معه .

وكيفما كان الحال فقد رفع ابن عبد كان من شأن الكتابة بمصر وأثرت عنه رسائل ممتازة تذكر إلى جانب رسائل البلغاء المشهورين .

وكتب لابن طولون أيضاً أحمد بن محمد الواسطى ، وابن مفضل وقد خان هذا ابن طولون كما ذكر ابن الداية فى كتاب سيرة ابن طولون (١) قال : « حدث شعيب ابن صالح قال : إن نفس ابن طولون ستمت استخدام الكتاب منذ أشرف من ابن المفضل على دغل نفسه وسوء طويته وجرأته على اليمين على ربه فسأل ، عن كان يكتب لحسين بن خادهم فقيل له : الحسين بن مهاجر فقال له : كم صرف لك الحسين ابن خادهم قال أربعة آلاف دينار وهى أكثر ما كان فى حاصله فى ذلك الوقت فقال : أحمد ما أحب من همتى لكاتبى ما وملك به الحسين فهذا المال قليل لك فخلع عليه ووصله بمائة ألف » .

كذلك كان من كتاب أحمد بن طولون رجل بغدادى اسمه أبو يعقوب إسحاق ابن نصير وهو كاتب قدير كان يشتغل بإمرة ابن عبد كان ، وهو الذى كشف فضله وعرف مقداره ؛ ذلك أن ابن نصير قدم إلى مصر طالباً للعمل بديوانها فالتبس من ابن عبد كان التصرف فى المكاتبات فامتحنته ابن عبد كان فأبان الامتحان عن فضل كبير فقرره من كتابه وأجرى عليه أربعين ديناراً فى كل شهر . وبقي ابن نصير فى ديوان الإنشاء إلى ما بعد أيام أحمد بن طولون ووفاته ابن عبد كان . فلما تولى أحمد بن طولون الماذرائى رئاسة ديوان خمارويه صرف ابن نصير وكان الماذرائى ضعيف الكتابة فبان

عجزه لخمارويه، فاضطر الماذرائى إلى استدعاء ابن نصير فكتب فأرضى خمارويه فسأل عن الخبر، فذكرت له قصة ابن نصير فأحضره وسأله عن رزقه فقال أربعون ديناراً فقال للماذرائى اجعلها أربعمئة. وما زال ابن نصير يرتقى في نظر خمارويه ويزيد في رزقه حتى صار ألف دينار في الشهر.

أما الماذرائى رئيس ديوان خمارويه فهو محمد بن على من ماذرايا وهى قرية بالبصرة. قدم مصر هو وأخوه أحمد بن على فكانا مع أبيهما على بن أحمد متولى خراج مصر لخمارويه. كتب الحديث ببغداد عن أحمد بن عبد الجبار الطاردي وطبقته وتولى الكتابة لخمارويه وهو حدث كما حدث عن نفسه. (١)

ولد سنة ٢٧٥ هـ وتوفى بمصر وقد نيف على التسعين سنة ٣٤٥ هـ.

وفى شذرات الذهب (٢) قال عنه: كان من صلحاء الكبراء أما معروفة فإليه المنتهى قيل أعتق في عمره مائة ألف رقبة.

ومن كتاب هذه الدولة غير من ذكرنا الحسن بن رافع كان من كتاب موسى ابن طولون ومنهم أيضاً جعفر بن جدار وأحمد بن المؤمل ومحمد بن سهل المتوفى وكانوا مع العباس بن أحمد بن طولون حين خرج على أبيه.

ومن كتاب الدولة أيضاً أحمد بن أيمن ذكره ابن الداية في كتاب المكافأة، كما أن منهم أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية ولا نجد المؤرخين عنواناً بكتاب من كتاب هذه الدولة عنايتهم بأحمد هذا، ولعل ذلك لما كان يجمع في نفسه من الفضل ولما خلف من كتب عرف بها شأنه. لذلك نرى أن نفرده بحديث خاص نتناول فيه كتابه «المكافأة».

أحمد بن يوسف المصرى :

له سميّ بغدادى هو أحمد بن يوسف كاتب المأمون الذى يعد في الدرر من كتاب الدولة العباسية في عصرها الذهبي.

أما صاحبنا المصرى الذى نتحدث عنه فهو ليس بمصرى ميلاداً وإنما هو بغدادى انتقل به أبوه مع سائر أسرته إلى مصر، وأقام بها فنشأ ابنه هذا، ونسب إلى مصر لنشأته

(١) تاريخ بغداد ج ٣ ص ٧٩.

(٢) ج ٢ ص ٣٧١.

بها وخدمته لرؤسائها . كان أبوه يوسف بن إبراهيم في خدمة إبراهيم بن المهدي يتولى كتابة لإقطاعاته، فلما مات ابن المهدي سنة ٢٢٤ رأى أن «سر من رأى» لا تصلح لإقامته بعد ما اشتدت بها وطأة قواد الأتراك، فخرج إلى مصر بعياله وحاشيته يتقبل بها الصنيع من أصحاب الإقطاعات. ومن يومئذ عرف بيوسف بن إبراهيم المصرى صاحب إبراهيم ابن المهدي وعاش بمصر إلى ما بعد سنة ٢٦٠ هـ .

وكان يوسف هذا - مع كونه من كتاب الخراج - محبا للعلم والعلماء ميالا بخاصة إلى الطب؛ حكى عن عيسى بن حكيم الدمشقي الطبيب النسطوري وإسماعيل بن أبي سهل ابن نوبخت وجبريل بن بختيشوع وألف كتابا في أخبار المتطبين كما ألف آخر في الطبخ وآخر في أخبار ابن المهدي .

ولما حل بمصر أقبل عليه المصريون وأخبروه لفضله، وحدث أن أحمد بن طولون حبسه فكلمه بعض وجوه المصريين فأفرج عنه، ذكر ذلك ابنه في كتاب المكافأة .

أما أحمد ابنه فهو أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية، وإنما عرف بذلك لأن أباه يوسف كان ابن داية (ظئر) إبراهيم المهدي وكان هو (يوسف) رضيع المعتصم بن الرشيد، حتى لقد تزوج إليهم، فإن امرأته بنت ميمونة مولاة حمدونة أم محمد بنت الرشيد وقد صحبتته إلى مصر. فأحمد حين يسمى 'ابن الداية' فلما يكنى في ذلك بكنية أبيه .

نشأ أحمد بمصر فكان من فضلائها المشهورين، واتصل ببني طولون حتى نسب إليهم. وكان إلى جانب فضله المعروف في كتابة الإنشاء، الذي تجلّى في كتابه «المكافأة» من له باع في علوم كثيرة كالطب والنجامة والحساب والتاريخ وغير ذلك .

وقد عد له ياقوت عدة مؤلفات (١) منها «سيرة أحمد بن طولون» و«سيرة أبي الجيش خمارويه» و«سيرة هارون بن أبي الجليش» و«أخبار غلمان بني طولون» وكتاب «المكافأة» وكتاب «حسن العقبي» وكتاب «مختصر المنطق» وكتاب «الثمرة» و«كتاب أخبار المنجمين» و«كتاب ترجمته» وزاد ياقوت كتابي «أخبار إبراهيم بن المهدي» وكتاب «الطبيخ» وإنما هما لوالده يوسف كما ذكرنا آنفا .

ولا نعرف له من بين هذه الكتب اليوم إلا «سيرة أحمد بن طولون» و«المكافأة» وليس في كتاب سيرة بن طولون ما يستحق التعليق عليه؛ لأنها مجرد سرد لأخبار الرجل

(١) معجم الأديباء ج ٥ ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

ولعل كل ما فى الكتاب من الميزة أنه بقلم شاهد عيان روى الحوادث مما رآه بنفسه أو سمعه من أهله . فذلك كان الكتاب مصدرا جديرا بالاحترام والعناية لأخبار أحمد ابن طولون .

أما كتاب المكافأة فهو الذى يهمننا تفصيل الكلام عنه لأنه يمثل الناحية الأدبية فى مؤلفه ونحن فى هذا الباب إنما نعى بتلك الناحية .

كتاب المكافأة :

الوصف المختصر لهذا الكتاب أنه قصص قصيرة لحوادث جرت للمؤلف ، أو رواها عن غيره من القرييين من عهده ، وكلها يدور على المكافأة على الإحسان أو الإساءة، وقد جعل كلمة المكافأة شاملة للنوعين ، وهو وضع لغوى صادق ، فليست المكافأة إنما تكون فى الخير وحده كما يفهم ذلك بعض الناس .

ولذلك كان كتابه ثلاثة أقسام الأول « المكافأة على الحسن » والثانى « المكافأة على القبيح » وأورد فى الأول إحدى وثلاثين قصة وفى الثانى إحدى وعشرين .

ثم أتبع ذلك بالقسم الثالث وهو « حسن العقبي » ولعل هذا القسم هو الذى عده ياقوت كتابا مستقلا فيما رويناه لك من إحصائه لكتب أحمد بن يوسف ، وقد روى المؤلف فى هذا القسم تسع عشرة قصة ثم ختم الكتاب بحكم مروية عن السابقين فى قيمة الصبر واحتمال الشدة ، وقدم لهذا القسم بقوله :

وإذ وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح ما رجونا أن يكون عوننا للاستكثار من مواصلة الخير ، وتطلب العارفة فى الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وإبعادها عن سورة الانتقام فى القبيح . وقد قالوا الخير بالخير والبادى أخير والشر بالشر والبادى أظلم ، رأيت أن أصل ذلك حفظك الله بطرف من أخبار من ابتلى فصبر فكان ثمرة صبره حسن العقبي .

وفكرة الكتاب كله أخلاقية تحمل قارئه على التمسك بأهداب الإحسان ، لأن صاحبه لا يأمن الدهر ، فهو يجد مكافأة على إحسانه حين يحتاج إلى هذه المكافأة ، فإن لم ينلها فى نفسه نالها فى عقبه ، وهكذا لا يضيع الإحسان أينما وضع ، كما أن فيه إنذارا للمسيء بأن

يلقى جزاء إساءته لا يفلت من ذلك مهما احتاط وادعى القدرة على الخلاص ، فهو تحذير لمن تحدثه نفسه بالشر ويكون قويا عليه ، أن يقربه لأنه لا منجى له من سوء العاقبة ، كذلك فيه تجميل لخلق الصبر واحتمال المكاره ، حتى يلقي الإنسان حوادث دهره غير جازع ولا واهى العزم ، وفي ذلك ما فيه من الكمال المنشود للإنسان في هذه الحياة . فالكتاب كتاب أخلاق عدل فيه مؤلفه عن النظريات الفلسفية في تجميل الفضائل وتقبيح الرذائل ، إلى الحوادث الناطقة بنفسها المبينة بالبرهان الذي لا يعلو به شك أن الإحسان جزاؤه الإحسان والشر عاقبته الشر .

ولقد زاد هذه الحكايات قوة وجعلها أقوى على تأدية المقصود ، منها أن المؤلف يرويها عن نفسه وعن عشرائه ، مما يجعلها في باب التأثير بمنزلة الروايات التثيلية التي يراها الرائي ، فيجزم أنها حقائق واقعة وينسى أنه أمام مسرح محدود المساحة ، ويتوهم أن الدنيا قد ضاقت أفقها أمامه فجرت حوادثها بسمعه وبصره ، فهو لا يشك في أن ما يرى حقيقة لا خيال ، وواقع لا ادعاء .

أما عبارة الكتاب فهي سهلة مناسبة لموضوعه وهو انقصص ، حتى صار الكتاب بسهولة خليقا بأن يدرسه متوسطو طلاب العربية من غير ملل ولا شعور باستعصاء تراكيبه عليهم ، وهي ككل ما كتب المصريون إلى عهد المؤلف كلام مرسل لا محاولة فيه لزيئة لفظية .

وقد علمت أن ذلك أثر من آثار الثقافة المصرية الخالية من الفلسفة والمنطق وكل ماعقد الفكر واللفظ عند العراقيين ، بل ربما كان في مؤلف الكتاب تسامح ظاهر في استعمال ألفاظ عامية لا يرضاها كبار الكتاب لأنفسهم ولا يرضاها لهم قراؤهم الحريصون على سلامة التعابير من العجمة . فهو يستعمل كلمة «ديوانيان» بمعنى حافظ الديوان . قال في أول قصة من قصص المكافأة على الحسن ص ٤ : «قال كاتب خالد القسري أن «ديوانيان» خالد أخرج من ديوانه وثيقة على بعض المتضمنين فدفعها إليه بير يعجله له » وفي هذه المقالة يستعمل كلمة (فتدسس الديوانيان حتى دخل في جملتهم) ولا أظن أن هذه الصيغة عربية .

وكذلك يستعمل في ص ٨٢ كلمة تليس في قوله : « توجه يوم سبت إلى ميخائيل فأحضره ثم دعا بتليس من شعر ، يطوله ميخائيل فأدخل رجلاه في قرارته ثم أمر بالتليس فرفع وأقيم ميخائيل فيبلغ رأس التليس إلى رأسه » وكلمة تليس وإن وجدت في القاموس

المحيط بلفظ تليسة لما يتخذ من الخوص أو نحوه هي قبطية الأصل واستعمالها في حر الكلام ليس من شأن المجودين من الكتاب .

وكذلك يستعمل كلمة « التزليل » بمعنى ما يحمل من مائدة صديق أو قريب وهي عامة قال في ص ٩٥ (وأقلت أن يدعوني فأتحمل لهم «لعياله») .

كذلك يستعمل تعابير لانسب عريقا لها في العربية كقوله في ص ١١٢ ، واشتد الحصار ونزع السعر وتحلق المأكول (يريد إرتفاع السعر وعزة الطعام فعبّر بالتحلق عن الارتفاع وأراد به بعد التناول .

وليس معنى هذا أن الكتاب ساقط العبارة أو رذل التراكيب، بل هو كما قلنا يمتاز بالسهولة التي تقرب من حد الامتناع ، لأنه يؤدي المعنى في أقرب الألفاظ دلالة عليه ، وهذا أقصى ما يطلب من البليغ ، على أن الكتاب فيه تعابير ترتقي في سماء البلاغة العربية ، فمن ذلك ما ورد في ص ٩ « إذا رأيت رجلا أحاطت به خيل تريخ سلبه فذدتها عنه فقد كافأت عارفتي فانصرف مصاحباً » وما ورد في ص ١٧ « فقال يابني إن كنت تصبر على التذلي منه في محنة كما تتدلى في نعمه وإلا فاعتزله ولا تفضحننا بالعود عنه في نوابه » وما ورد في ص ٣١ « وترى في بلدك جماعة قد ارتفعوا أبناء خاملين فلا تنهرهم بدقة أصولهم والصدق عما كان عليه سلفهم فإنه يزرع لك المقت في قلوبهم » . وما ورد في ص ٤٠ « اتصل بي من ضيق يحيي ما كدر عيشي وذكرت إحسانه إلى وحسن صنيعه في فضاق بي العريض » .

وغير ذلك كثير لا يمكنك من جملة لا قراءة الكتاب كله مع ما تجده عليه هذه القراءة من إدراك حسن اتصال الكلام ببعضه وبعض وسبك في قالب محكم يجعله كما قلت من السهل الممتنع .

★ ★ ★

وأخيرا نقول إن أحمد بن يوسف كان يمثل ثقافة الكتاب في أيامه ، فهو يعرف التاريخ ويلم بالطب ، ويحذق العربية ، ويحيد الحساب ، وقد درس المنطق وألف فيه كما ألف في التنجيم . وكان من نتائج حذقه للعربية أنه كان شاعرا حتى أخرج من شعره أجزاء . دخل يوما على أبي علي الحسن بن المظفر الكرخي عامل خراج مصر مسلما عليه فقال له كيف حالك فقال على البديهة :

يكفيك من سوء حالى إن سألت به أنى على طبرىّ فى الكوانين (١)
مات رحمه الله سنة ٣٣٠ أو سنة ٣٤٠ هـ كما رجحه ياقوت فى معجمه .

خواص الكتابة فى العهد الطولونى : (٢)

نريد بهذه الخواص ما ذكره المتقدمون من الأساليب المتبعة فى البدء والختام فى الرسائل الديوانية والإخوانية .

١ — فمن ذلك افتتاح الرسائل الديوانية بقولهم : من فلان إلى فلان كما كتب ابن عبد كان إلى العباس بن أحمد بن طولون عن أبيه قال : « من أحمد بن طولون ، مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه الملم بذنبه » وستأتى الرسالة رمتها فى نماذج كتابة هذا العصر .

٢ — ومن ذلك افتتاح الإخوانيات بالدعاء بالبقاء وما فى معناه كما كتب ابن عبد كان : « أطل الله بقاءك فى إطلالته حياة الأنام وأنس الأيام والليالى . وأدام عزك فى إدامته دوام الشرف ونمو المعالى » .

٣ — أو الدعاء بدوام العمة كما كتب ابن عبد كان أيضا : « أسبغ الله عليك نعمه الراهنة بنعمه المنتظرة وصانها لديك بإيزاع الشكر عليها فلم أر والله الحمد نعمة قصدت مستقرها وتوخت وليها وتمنت كفئتها إلا نعمتك » .

٤ — ومنها الدعاء بجعلت فداك. كما كتب أيضا : « جعلت فداك فإن فى ذلك شرفا فى العاجل ، وذخر العقبى فى الآجل » .

٥ — ومنها أن تفتح بلفظ « كتابى » أو « كتبت » ، كما كتب أيضا : « كتابى إليك وأنا استعنت الأيام فيك ، وأصانع الزمان فى تقسريبك »

(١) الكوانين أشهر الشتاء . والطبرى ثلثا الدرهم فى اصطلاح أهل الشام . ويريد أنه فقير يعيش على هذا القدر القليل فى أيام الحاجة إلى كثرة النفقة وهى أيام الشتاء .
انظر رواية البيت فى ترجمة أحمد بن يوسف فى الجزء الخامس من معجم الادباء الطبعة المصرية وما كان من هذيان فى شرحها .
(٢) ملخصة عن كتاب صبح الأعشى ج ٨ ص ١٦٠ وما بعدها .

وكما كتب أيضا : « كتبت وأنا من حنين الصباية . إليك وإرزام الشوق نحوك . وأبهم التشوق إليك ولاعج الاوعة بك على ما أسأل الله أن يرحم ضعفى ويتصدق على برؤيتك » .

والأجوبة ابتداؤها كما فى صدور الإبتداءات ثم يقع التعرض لوصول الكتاب . وقد تصدر بوصوله وهو الأكثر كما كتب أيضا : « وصل كتابك فدفع تباريح الشوق وقمع كآبة البين وأطفأ لهيب الحرقة وبرد حر الصباية » .

أما الخواتم فتكون باستراحة الرأى إما بلفظ : « فإن رأيت » كما كتب أيضا : « فإن رأيت أن تأتى فيه مؤتفعا ما لم تزل تأتیه سلفا فعلت » .

وأما بلفظ « فأريك » كما كتب أيضا : « فأريك فيه بما أنت أهله فإن الرأى الذى أنت أهله فوق ما يلتسمه المسرف فى همته والمتبسط فى أمنيته » .

وكما كتب : « فأريك فى ذلك بما تقضى به الحق وتصل الذمام وتحفظ الحرمة » .

نماذج من كتابة الإنشاء

فى العهد الطولونى

١ - كتاب إلى خارج عن الطاعة :

وهو الذى كتبه ابن عبد كان عن أحمد بن طولون إلى ابنه العباس حين خرج عليه . قال : (١) من أحمد بن طولون ، مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه العاصى لربه الملم بذنبه ، المفسد لكسبه العادى لطوره الجاهل لقدره الناكص على عقبه ، المركوس (٢) فى فتنه المبخوس من حظ دنياه وآخرته .

(١) صبح الاعشى ج ٧ ص ٥ .

(٢) الردود منقلا .

سلام على كل منيب مستجيب ، نائب من قريب ، قبل الأخذ بالكظم (١) وحلول الغوث والندم ، وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل ، والطول الجليل . وأسأله مسألة مخلص فى رجائه ، مجتهد فى دعائه ، أن يصلى على محمد المصطفى ، وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبي ، صلى الله عليه وسلم .

أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تثير المدينة بقرنيها ، والنحلة يكون حنفها فى جناحيها وستعلم هبلتك الموابل (٢) أيها الأحمق الجاهل الذى ثنى على الغى عطفه ، واغتر بضجاج (٣) المواكب خلفه ، أى موردة هلكة بإذن الله توردت ، إذ على الله جل وعز تمردت وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلاً « قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

وإننا كنا نغربك إلينا وننسبك إلى بيوتنا ، طمعاً فى إنابتك وتأييلاً لفيثتك ، فلما طال فى الغى انهماكك ، وفى غمرة الجهل ارتباكك ، ولم نر الموعدة تلين كبك (٤) ولا التذكير يقيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلاً ، ولا لإضافتك إلينا موضعاً ومحلاً . بل لا تكنى بأبى العباس ألا تكرها ، وطمعاً بأن يهب الله منك خلفاً تقلده اسمك ، ونكنى به دونك ، ونعدك كنت نسباً منسياً ، ولم تكن شيئاً مقضياً .

فانظر — ولا نظر بك — إلى عار نسبته تقلدت ، وسخط من قبلنا تعرضت . واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلك ، والمكروه إن شاء الله قد أحاط بك . والعساكر بحمد الله قد أثلت كالسيل ، فى الليل ، تؤذن بحرب وبويل .

فإننا نقسم — ونرجو ألا نجور ونظلم — لانشئ عنك عناناً ، ولا نؤثر على شأنك شأنًا ، ولا تنوقل (٥) ذروة جبل ، ولا تلج بطن واد إلا عاجلناك بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أقمت منهما . منفقين فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسبك كل خطب

(١) الخلق أو مخرج النفس .

(٢) ثكلتك الثواكل .

(٣) الضجاج المشاغبة .

(٤) الكبك تلك القلدة فى جسم الانسان وغيره وهى توصف باللين والشدة كناية عن لين

صاحبها وشدته .

(٥) تصعد .

جليل حتى تستمر (١) من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت ، حين لا دافع بحول الله عنك ولا مزحزح لك عن ساحتك . وتعرف (٢) من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هبّت (٣) ولم تكن بالمعصية عجلت ، ولا رأى من أضلك من غواتك قبلت ، فحينئذ يتنرى (٤) بك الليل عن صبحه ، ويسفر لك الحق عن محضه ، فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما ، وتسمع بأذنين لا وقر فيهما (٥) . وتعلم أنك كنت متمسكاً بجبال غرور ، متهادياً في مقابح أمور . من عقوق لا ينالم طالبه ؛ وبغى لا ينتجو هاربه ، وغدر لا يتعش صريعه ، وكفران لا يودى قتيله (٦) وتقف على سوء رويتك ، وعظم جريرتك في تركك قبول الأمان إذ هو لك مبدول ، وأنت عليه محمول . وإذ السيف عنك مغمود ، وباب التوبة إليك مفتوح . وتلهف (٧) والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أحببت إليه (٨) مسرعاً ، وانقذت إليه متصيحاً .

وإن مما زاد في ذنبك عندي ، ما ورد به كتابك على بعد نفوذى عن الفسباط من التوبيهات والأعالي ، والعدا بالباطيل . من مصيرك بزعمك إلى إصلاح ما ذكرت أنه فسد على ، حتى ملت إلى الإسكندرية فأقمت بها طول هذه المدة ، واستظهاراً عليك بالحجة ، وقطعاً لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الأناة غير صادة ، ولا أنه خالجنى شك ولا عارضنى ريب فى أنك أردت التزوح والاحتياى لله رب ، والتزوع إلى بعض المواضع التى لعل قصدك إياها يوديك ، ولعل مصيرك إليها يكفينيك ، ويبلغ إلى أكثر من الإرادة فيك ، لأنك إن شاء الله لا تقصد موضعاً إلا تلوتك (٩) ولا تأتى بلداً

(١) تجده مرا .

(٢) معطوف على تستمر .

(٣) كان القياس أن يقال هبّت بالبناء المجهول لأن الأصل هبلك أمك ولكن صاحب لسان العرب نقل عن ابن الأعرابي أنه يقال هبّت (بالبناء للفاعل) .

(٤) ينقطع والمراد ينكشف .

(٥) صمم .

(٦) يؤخذ يثأره .

(٧) تنحسر .

(٨) أى باب التوبة .

(٩) تبتعت وكذلك قفوتك فى الفقرة بعدها .

إلا قفوتك . ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله عز وجل في جد حبها (١) وفصم عروتها . فإن أحداً لا يؤوى مثلك ولا ينصره إلا لأحد أمرين : من دنيا ودين . فأما الدين فأنت خارج من جملته لمقامك على الحقوق ، ومخالفة ربك وإسقاطه . وأما الدنيا فما أراه بقي معك من الحطام الذي سرقته وحملت نفسك على الإيثار به ، ما يتهياً لك مكائرتنا (٢) بمثله ، مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التي نستودعه تبارك وتعالى إياها ، ونرغب إليه في إنمائها ، إلى ما أنت مقیم عليه من البغى الذي هو صارعك والعقوق الذي هو طالبك .

وأما ما منيتناه (٣) من مصيرك إلينا في حشودك وجموعك ومن دخل في طاعتك لإصلاح عملنا ، ومكافحة أعدائنا بأمر أظهر وأبهر فيه الشامة بنا فما كان إلا بسببك . فأصلح أيها الصبي الأخرق أمر نفسك قبل إصلاحك عملنا واحزم امرك قبل استعمالك الحزم لنا . فما أحوجنا الله (وله الحمد) إلى نصرتك ومؤازرتك ، وإلا اضطررنا إلى التكثير بك على شقاقك ومعصيتك « وما كنت متخذ المصلين عضداً » .

وليت شعري على من تهول بالجنود ، وتمخرق (٤) بذكر الجيوش ، ومن هؤلاء المسخرون لك ، الباذلون دماءهم وأموالهم وأديانهم دونك !! دون رزق ترزقهم إياه ولا عطاء تدره عليهم . فقد علمت — إن كان لك تمييز أو عندك تحصيل — كيف كانت حالك في الواقعة التي كانت بناحية طرابلس ، وكيف خذللك أولياؤك والمرتقة معك حتى هزمت . فكيف تغتر بمن معك من الجنود الذين لا اسم لهم معك ولا رزق لهم على يدك . فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والمداراة لك والخوف من سلطانك ، فإنهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا ، وجودهم (٥) من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا مالا يجدونه عندك ، وإنهم لأحرى بخذللك والميل إلينا دونك ، ولو كانوا جميعاً معك ومقيمين على نصرتك لرجونا من الله أن يمكننا الله منك ومنهم . ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم . ويجرينا من عادته في النصر وإعزاز الأمر على ما لم يزل يتفضل بأمثاله علينا .

(١) قطع

(٢) مغالبتنا .

(٣) جعلنا نرجوه .

(٤) الخرقعة الإتيان بالباطل .

(٥) من وجد الشيء بمعنى حصل عليه .

ويتطول (١) بأشباهه . فما دعاني إلى الإرجاء (٢) لك والتسهيل من خناقك والإطالة من عنائك طول هذه المدة إلا أمران : أغلبهما كان على احتقار أمرك واستصغاره وقلة الاحتفال والاكتراث به وإنني اقتصرت من عقوبتك على ما أخلقته بنفسك من الإباق إلى أقاصي المغرب شريداً عن مترلك وبلدك ، فريداً عن أهلك وولدك ، والآخر أني علمت أن الوحشة دعيتك إلى الانحياز إلى ما انحزت إليه ، فأردت التسكين من نفارك والطمأنينة من جأشك وعملت على أنك تحن إلينا حنين الولد ، وتتوق إلى قربنا توقان (٣) ذى الرحم . فإن في رفقتنا بك ما يعطفك إلينا ، وفي تأخينا إياك ما يردك علينا . ولم يسمع منا سامع في خلاء ولا ملاء (٤) انتقاصاً بك ، ولا غضباً منك ، ولا قدحاً فيك . رقة عليك واستتماماً للنعمة عندك ، وتأميلاً لأن تكون الراجع من تلقاء نفسك ، والموفق بذلك لرشدك وحظك . فأما الآن مع اضطرابك إياي إلى ما اضطرتني إليه من الانزعاج نحوك ، وجسك رسلي النافذين بعهد كثير إلى ما قبلك ، واستعمالك المواربة والحداع فيما يجري عليه تدبيرك ، فما أنت بموضع للصيانة ولا أهل للإبقاء والمحافظة . بل اللعنة عليك حالة ، والذمة منك برية ، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق والقطيعة والإضاعة لرحم الأبوة .

فعليك من ولد عاق شاق لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ولا قبل ، الله لك صرفاً (٥) ولا عدلاً ، ولا ترك لك منقلباً ترجع إليه وخذلك خذلان من لا يؤبه له وأنكلك ولا أمهلك ولا حاطك ولا حفظك .

فوالله لأستعملن لعنك في دبر كل صلاة والدعاء عليك في آناء الليل والنهار ، والغدو والآصال ، ولأكتبن إلى مصر وأجناد الشامات والثغور وقنسرين والعواصم والجزيرة والحجاز ومكة والمدينة كتباً تقرأ على منابرها فيك باللعن لك والبراءة منك والدلالة على عقوقك وقطيعتك يتناقلها آخر عن أول ويأثرها (٦) غابر عن ماض وتخلد في بطون

(١) ينعم .

(٢) الامهال والتأخير .

(٣) شوق ولجوء .

(٤) الملا : التجمع بدزجيل ولعله هنا أراد أن يزواج بها كلمة خلاء فجعلها على وزنها

(٥) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية .

(٦) ينقلها .

الصحائف ، ويحملها الركبان ويتحدث بها في الآفاق ، وتلحق بك وبأعقابك عاراً ما اطرده الليل والنهار ، واختلف الظلام والأنوار ، فحيث تعلم — أيها المخالف أمر أبيه القاطع رحمه العاصي ربه — أي جناية على نفسك جنيت وأى كبيرة اقترفت واجتنتيت . وتنمى لو كانت فيك مسكة (١) أو فيك فضل إنسانية ، أنك لم تكن ولدت ولا في الخلق عرفت — إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع إلى ما قبلنا ، خاضعاً ذليلاً كما يلزمك فنيق الاستغفار مقام اللعنة والرقعة مقام الغلظة ، والسلام على من سمع الموعدة فوعاها وذكر الله فانتقاه إن شاء الله تعالى .

٢ — من رسائل ابن عبد كان الإخوانية :

إن قلت في كتبي إليك جمعائي الله فداك ، أكون قد بنيتك حظ إحسانك إلى وحق مفترضك على ، لأن نفسي لا توازي ساعة من يومك ، ولا تساوى طرفة من دهرك . وإنما يفتدى مثلك بالأنفس التي هي أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار الأرض .

٣ — من كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف . القصة الخامسة عشرة من قصص المكافأة على القبيح قال :

حدثني يوسف بن إبراهيم والدي قال حدثني إبراهيم بن المهدي أنه دخل على الخيزران أم الرشيد فوجدتها جالسة في الدار المعروفة بها وصارت إلى أم محمد بنت الرشيد بعدها ، على نمط (٢) أرمني والنمط على بساط أرمني ، وعن يمين النمط ويساره نمارق (٣) أرمنية وعلى أعلى نمرقة منها زينب بنت سليمان بن علي ، وعلى يسار النمارق أمهات أولاد المنصور ونسوة من نساء بني هاشم . إذ وقفت امرأة على طرف البساط فسلمت ثم قالت : يا زوج أمير المؤمنين أنا مربية زوج هشام بن عبد الملك م مروان ابن محمد من بعده نكبتها الزمان وزلت بها النعل (٤) حتى أصارها إلى عارية (٥) ما نستبر به مما عليها .

(١) عقل راجح .

(٢) النمط ظهارة أي فراش أو هو البساط .

(٣) النمرقة الوسادة .

(٤) عثرت والمراد وقعت في سوء الحال .

(٥) استعارة واقتراض .

فهبنت الدموع تدور في عين الخيزران، وخافت زينب أن تدخلها رقة فقطعت على مربية الكلام بأن قالت: يا أم أمير المؤمنين اتقى الله أن تدخلك رافة بهذه الملعونة فتنبؤي (١) مقعدك من النار. ثم التفت إلى مربية فقالت لها: بك فدام ما أنت فيه (٢) يا مربية كأنك نسيت دخولي عليك بحران (٣) وأنت جالسة بصحن دار مروان على هذا النمط، وتحت هذا البساط، وعن يمين نمطك ويساره هذه النمارق وعليها أمهات أولاد جبابرتكم، وقد مثلت في مثل هذا المكان الذي أنت فيه ما ثلثه، وأنا أسألك وأتضرع إليك في استيهاب (٤) جثة إبراهيم الإمام عن مروان لثلاث يمثل به، وقولك لي وأنت كالحلة (٥) في وجهي: ما للنساء والدخول في أمور الرجال؟ ثم أمرت بإخراجي من دارك بغلظة، فلبجأت إلى مروان فوجدته على حال أشد تعطفاً على رحمه منك وقال لي: لقد ساءتني وفاة ابن عمي وما دبرت المثلثة به. وقد خيرني بين إطلاق تجهيزه (٦) له وبين تسليمه إلى فاخترت تسليمه. وأمر له بجهاز فقبلته منه.

قال إبراهيم فالتفت مربية إلى زينب فقالت: كأنك يابنت سليمان حمدت لي عاقبة أمري في قطيعتي رحمتي فأردت أن تزييني قطيعة الرحم لأم أمير المؤمنين ثم التفتت إلى الخيزران فقالت « قد صدقت زينب فيما ذكرت غنى، وذلك الفعل مني أحلني هذا المحل والسعيد من اتعظ بغيره » وانصرفت. فبعثت إليها الخيزران ما أعاد إليها حالها وكف اختلالها.

ويلاحظ أن هذه النصوص (فيما عدا القصة) هي لابن عبدكان. وقد لا يعثر الباحث هذه الفترة بعد طول التنقيب على نص أدبي لغير هذا الكاتب. وذلك وإن كان تابعاً

(١) تبوأ المكان جلس فيه.

(٢) ترتيب الكلام دام بك ما أنت فيه. والفاء في فدام لتزيين اللفظ.

(٣) بلد بالشام والنسبة إليها حرانني ولا يقال حراني وإن كان القياس.

(٤) طلب الهبة.

(٥) مكشرة عابسة.

(٦) تكفينه.

لسنة بقاء الأصلح لأن هذا الكاتب كان خير كتاب هذا العهد . يفوت علينا كثيراً من الفوائد التي كان يجنيها تاريخ الأدب من وجود نصوص كثيرة لكتاب كثيرين ، فقد كان في ذلك مجال كبير للبحث والموازنة . ولكن هذا النقص يكاد يكون مائلا في كل العصور فلا ذكر إلا لأشهر المشهورين ولا إبقاء إلا على أجل الآثار .

العلم في الدولة الطولونية

كان العلم رائج السوق في أيام هذه الدولة ويرجع ذلك إلى أسباب منها :

١ - أن مصر كانت منذ الفتح الإسلامي مباءة لكثير من الصحابة ثم التابعين من بعدهم وهؤلاء هم نقلة الدين ورواة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذلك كانت مصر من الأمصار المشهورة برجال السنة فقصدها في مدة هذه الدولة طلاب الحديث والفقهاء من كل مكان ، قصدها أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦) (١) وأبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه (٢٧٣) . وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥) ، وعبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣) ، وهؤلاء هم أعلام السنة وأصحاب الكتب المعتمدة فيها .

وقصدها غيرهم من طلاب الحديث والفقهاء أيضاً كقاسم بن محمد الأموي (٢٧٩) الذي رحل إلى مصر رحلتين وتفقه على ابن عبد الحكم ، وعيسى بن مسكين (٢٩٥) قاضي القيروان الذي أخذ بمصر عن الحارث بن مسكين ، وجعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض (٣٠١) قاضي الدينور الذي كان كما يقال من أوعية العلم وكان مجلسه يحوى عشرة آلاف، أو أكثر (٢) .

٢ - كان لانتقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي إلى مصر أثر عظيم في نشاط الحركة العلمية بها ، فقد كان المذهب الوحيد الذي يعرفه المصريون هو مذهب الإمام مالك فلما حل الشافعي بمصر ونشر مذهبه بها ثارت الخصومة بين أتباعه وأتباع الإمام مالك وكان من أثرها ما كان من الجدل والنقاش في العلم . وهو لا شك يبعث فيه الحياة . وقد نبغ على يد الشافعي رضى الله عنه علماء طارت شهرتهم في أقطار الإسلام فقصدهم الناس من كل ناحية يتلقون عنهم ويقتبسون من فضلهم .

(١) تشير بهذا الوضع إلى سنة الوفاة .

(٢) شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٣٥ .

وأتباع الشافعي بمصر هم الذين حشاهم العلم حشواً كما يقول في حديثه عن الربيع ابن سليمان المرادي .

٣ - وإن همة أحمد بن طولون وعمله على منافسة العباسيين في مظاهر عظمتهم جعلاهم يجتهد في أن تكون مصر كعبة القصاد ومثابة العلماء والأدباء . فكان يخص أهل الفضل بكرامته حتى عرف عنه حبه للعلماء والجود عليهم . وهو الذي كان يبحث في كل سنة إلى القاضي بكار بن قتيبة (٢٧٠) بألف دينار خارجاً عن المقرر له من وظيفة القضاء . وقد ساعد على أن يكون ابن طولون بهذه المثابة من تقدير العلماء أنه كان في نفسه عالماً فاضلاً كما قدمنا لك .

٤ - أن العلم الديني وهو الذي كان رائجاً بمصر إبان هذه الدولة لا يحتاج إلى كثير من تشجيع الملوك ، لأن الخافز إليه غالباً هو الورع وحب إرضاء الله بنشر دينه وإنارة سبيل الخير للناس ، فالبخاري قضى حياته في تنقل بين البلاد ، فرحل في طلب الحديث إلى سائر الأمصار ، وكتب بخراسان والجهال ومدن العراق كلها والحجاز والشام ومصر وكان يقول كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة (١) وأبوداود السجستاني كتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والحرميين ، وكان كما قالوا في الدرجة العالية من النسك والصلاح (٢) . وعيسى بن مسكين الذي سمع بمصر من الحارث بن مسكين قالوا عنه أنه كان مستجاب الدعوة وأن ابن الأغلب أكرمه على تولى القضاء فولى له ولم يأخذ أجراً ، وكان يركب حماراً ويستقى الماء لبيته (٣) وغير هؤلاء كثير كان الزهد والرغبة في رضا الله يحفزهم إلى الجهد في طلب العلم الديني وتحمل الصبر في ذلك . فكان للعلم منهم أعظم النفع وصان الله بهم الدين وحفظ حديث رسول الله بعد الاجتهاد في تنقيته من كل ما شاب به .

٥ - أن للعصر حكمة في نشاط الحركة العلمية فإن القرن الثالث الهجري كان قرن الجهد في تحصيل العلم والسعي الخيث في تدوينه . فالعلوم الدنيوية من فلسفة وطب وغيرهما يشجع عليها الخلفاء والملوك في كل مكان ، ويبدل أحدهم وزن الكتاب ذهباً لترجمته كما كان يفعل المأمون ، والعلوم الدينية يدفع التقى والورع أصحابها إلى إذاعتها وصيانتها لأن الوازع الديني كان قد ضعف فاحتاج الناس إلى التذكير ، والمذاهب الجالحة شاعت فاحتاجت

(١) شذرات الذهب ج ٢ ص ١٣٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٠ .

الحقائق أن تجلى وتجرد مما علق بها . فكان ما عرفت من الجهد الشاق في طلب الصحيح من الأحاديث وتدوين الفقه وغير ذلك .

أنواع العلوم

لم تزد أنواع العلوم بمصر في عهد الدولة الطولونية عما كانت عليه قبل هذا العهد فهي

١ - الحديث : وقد كان رائجاً بمصر كل الرواج وكانت مصر بسببه مقصد طلابه من كل الأقطار يرحل إليها أهل المشرق من أقصاه كبخارى وسمرقند وبلاد الترك، وأهل المغرب من الأندلس والمغرب الأقصى فيجئ إليها القرطبي والغرناطي والطنجي وغيرهم ، يقصدونها إما عامدين ليقبوا بها مدة يتزودون فيها من حديث رسول الله المروى عن صحابته الذين نزلوا مصر منذ الفتح الإسلامي ، أو يعمرون بها في طريقتهم إلى الحج فيلقون رجال الحديث ويكتبون عنهم ما يمكنهم أن يكتبوه . وكذلك يفعلون وهم عائدون إلى بلادهم بعد حجهم . وقد علمت في الفصل الماضي أن رجال السنة الموثوق بهم قد استفادوا من رجال الحديث بمصر وعول كل منهم في تدوين سنده عليهم ، كالبخارى والنسائي وأبي داود وغيرهم .

٢ - الفقه : زاد فيه عنصر جديد هو رجال الحنفية ، فقد كانت مصر منذ عهد بعيد لا تعرف غير مذهب الإمام مالك ، ثم عرفت مذهب الشافعي بعد رحلته إلى مصر على رأس المائتين ، فكثرت أتباعه بعد ذلك وصاروا قوة لا يستهان بها أمام أصحاب مذهب مالك الذين بقوا حينئذ لا يعرفون لهم نداءً بمصر . وكان مذهب أبي حنيفة غير شائع بمصر حتى عرفه الأهلون من رجال القضاء الذين يوليهم الخلفاء العباسيون قضاء مصر ، فعرف هذا المذهب منذ ذلك وصار له بها أتباع . ولم تكن نستطيع في العهد الذي سبق الدولة الطولونية أن نعد منهم كثيرين ولكننا في العهد الطولوني نستطيع أن نذكر منهم ؛ بكار ابن قتيبة (٢٧٠) وأحمد بن أبي عمران (٢٨٥) والطحاوي (٣٢١) الذي يعد إمام المصريين في هذا المذهب ، وأبا جعفر التل وغيرهم .

٣ - التاريخ : في هذا العصر كان بمصر قصاص ومؤرخون خلفوا آثاراً عظيمة وإن لم تصل إلينا ، فمن المؤرخين عمارة بن وثيمة بن موسى أبو رفاعة الفارسي صاحب

التاريخ على السنين ولد بمصر ومات بها سنة ٢٨٩. (١) ومنهم ابن دحية الحسن بن قاسم ، كان إخبارياً (١) . وله في الأخبار مصنفات ، مات بمصر سنة ٣٢٧ وقد نيف على الثمانين ومنهم الإمام الطحاوي أحمد بن محمد بن سلامة الفقيه الحنفي ، وله مؤلفات في عصور كثيرة منها في التاريخ « التاريخ الكبير » . مات سنة ٣٢١ . (٣)

وعاش بمصر من القصاص أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد الواعظ البغدادي ثم المصري قال عنه ابن كثير : ارتحل إلى مصر فأقام بها وعرف بالمصري وكان له مجلس وعظ عظيم ، وله مصنفات كثيرة في الحديث والعظ والزهد مات سنة ٣٣٨ وله سبع وثمانون سنة (٣) .

٤ — النحو : أما النحوفإننا بمراجعة كتاب بغية الوعاة للسيوطي يمكننا أن نعد كثيرين من علماء النحو في هذا العصر بمصر ، على حين نرى السيوطي نفسه في كتاب حسن المحاضرة وقد تصدى لحصرهم يذكر رجلاً قبل عصر الطولونيين ثم ينتقل إلى من بعدهم فيترك فجوة كبيرة وثلمة واسعة .

وقد استعنا بالصبر في مراجعة كتاب البغية فوجدنا السيوطي قد ذكر كثيرين في عصر الطولونيين نذكرهم على الترتيب :

١ — الوليد بن محمد التميمي النحوي المعروف بولاد روى كتب اللغة والنحو وكان نحويًا مجوداً أصله من البصرة ونشأ بمصر ولم يكن شيئاً من كتب النحو واللغة قبله بمصر . أخذ عن المهلب تلميذ الخليل ثم عن الخليل نفسه ثم ناظر أستاذه المهلب ولم يكن من الخلق فغلبه فقال المهلب له : لقد نقيت بعدنا الخردل ، كناية عن توفيق ولاد وكثرة تنقيبه وصبره على البحث مات سنة ٢٦٣ (١) .

٢ — محمد بن حسان النحوي : قال بن يونس في تاريخ مصر كان نحويًا مجوداً روى

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٨ ، ٣١٩ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) البقية ص ٤٠٥ .

- عن أبي زرعة المؤذن وعبد الملك بن هشام مغازي ابن اسحاق . مات سنة ٢٧٢ (١) .
- ٣ — أحمد بن جعفر الدينوري : أحد النحاة المبرزين أخذ عن المازني كتاب سيبويه بالبصرة وعن المبرد ، وكان يخرج من دار ثعلب وهو جالس على بابها فيتخطى ثعلباً وطلبته ليتوجه إلى المبرد فيقرأ عليه وكان ثعلب يعاتبه فلا يلتفت إليه . دخل مصر فلما دخل إليها الأخفش الصغير عاد إلى بغداد فلما رجع إليها الأخفش عاد هو إلى مصر . صنّف المذهب في النحو . وضمائر القرآن ومات سنة ٢٨٩ (٢) .
- ٤ — محمد بن ولاد التميمي : أخذ بمصر عن أبي علي الدينوري ثم رحل إلى العراق وأخذ عن المبرد و ثعلب ، وله كتاب في النحو سماه « المنقح » مات بمصر سنة ٢٩٨ (٣) .
- ٥ — محمد بن عبد الله المعروف بالمملطي : قال ابن يونس في تاريخ مصر : كان نحويّاً يعلم أولاد الملوك النحو . مات سنة ٣٠٣ هـ (٤) .
- ٦ — يموت بن المزّج : نحوي أديب راوية ذكره الزبير في نحاة مصر ، أخذ من المازني وأبي حاتم السجستاني والأصمعي ، وكان من مشايخ العلم والشعر إخبارياً حسن الآداب . مات سنة ٣٠٤ (٥) .
- ٧ — الأخفش الأصغر : أبو الحسن على سليمان كان عالماً روى عن الم. د و ثعلب واليزيدي وأبي العيّن . شرح كتاب سيبويه وألف كتاب الأنوار وكتاب التثنية والجمع وكتاب المذهب . قدم إلى مصر سنة ٢٨٧ وخرج إلى حلب سنة ٣٠٦ ومات ببغداد سنة ٣١٧ (٦) .
- ٨ — محمد بن موسى الواسطي : قال ابن يونس : قدم إلى مصر وكان من أهل العلم باللغة وتفسير القرآن . مات بمصر سنة ٣٢٠ (٧) .
- ٩ — محمد بن إسحاق بن أسباط الكندي : مصري نحوي قال الزبيدي : أخذ عن

-
- (١) المرجع السابق ص ٣٨٧ .
 (٢) المرجع السابق ص ١٣٠ .
 (٣) البنية ص ١١٢ .
 (٤) البنية ص ٦٠ .
 (٥) البنية ص ٤٢٠ .
 (٦) البنية ص ٣٣٨ .
 (٧) البنية ص ١٠٩ .

الزجاج وله كتاب في النحو سماه « العيون والنكت » . وقال ياقوت : نزل أنطاكية ثم صار إلى مصر ، وكان شيخ أهل الأدب ، وله تقدم في المنطق وعلوم الأوائل وله في النحو « المغنى » .

لم يذكر السيوطي في البغية ولا ياقوت في معجمه تاريخ وفاته حتى نهتدى به إلى عده من رجال هذا العصر ولكننا نظرنا فوجدنا أنه كان تلميذ الزجاج والزجاج مات سنة ٨٣١ هـ وهو تاريخ قريب من عهد الدولة الطولونية فصيح في نظرنا كون الرجل من رجال هذا العصر .

★ ★ ★

لا نعلم أن شيئاً من الفلسفة والعلوم الأخرى كان يدرس بمصر إلى ذلك العهد فلنحمد الله على خلوص الثقافة المصرية للعلم والدين حتى نهاية العصر الطولوني .

تراجيم بعض العلماء

١ - أبو عبد الرحمن النسائي (١)

هو أبو عبد الرحمن أحمد بن علي النسائي الحافظ ، كان أعلم أهل زمانه بالحديث وله كتاب السنن ، سكن مصر وانتشرت فيها تصانيفه وأخذ عنه الناس .

قال محمد بن إسحاق الأصبهاني : سمعت مشايخنا بمصر يقولون : إن أبا عبد الرحمن فارق مصر في آخر عمره وخرج إلى دمشق فستل عن معاوية وما روى عن فضائله فقال : أما يرضى أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل !! وهذا القول منه من أثر التشيع فيه ، فما زال أهل دمشق يدفعون في حضنه حتى أخرجه من المسجد ، وفي رواية أخرى يدفعون في خصييه وداسوه ، فحمل إلى الرملة فدفن بها (الرملة من أرض فلسطين) وقيل إنه لما امتحن هذه المحنة بدمشق قال احملوني إلى مكة فحمل إليها وتوفي بها وإنه مدفون بين الصفا والمروة .

صنف كتاب « الخصائص » في فضل علي وأكثر روايته فيه عن ابن حنبل ويقال في سبب تأليفه : أنه لما دخل دمشق فوجد أكثر الناس بها منحرفاً عن علي أراد أن يهديهم الله بهذا الكتاب .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١ ، شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٣٩ .

والنساء نسبة إلى نسا وهي بلدة بخراسان .
توفي سنة ٣٠٣ هـ .

٢ - منصور التميمي (٢)

هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي المصري الفقيه الشافعي الضرير أصله من رأس عين بالجزيرة وأخذ الفقه عن أصحاب الشافعي، وله مصنفات في المذهب منها : الواجب ، والمستعمل ، والمسافر ، والهداية . ولا يوجد منها الآن شيء وله شعر جيد سائق منه قوله :

عاب التفقه قوم لا عقول لهم وما عليه إذا عابوه من حذر
ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر
ومن هنا أخذ المعري قوله :

والنجم تستصغر الأبصار رؤية والذنب للطرف لا للنجم في الصغر
ومن شعره أيضاً :

لي حيلة فيمن ينـم م وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقـو ل فحيتي فيه قليلة
وقوله :

الكلب أحسن عشرة وهو النهاية في الحساسنة
من ينـازع في الريـا سة قبل أوقات الرياسة
قدم مصر وسكنها ، وكان فقيهاً جليل القدر ، متصرفاً في كل علم شاعراً مجيداً لم يكن في زمانه بمصر مثله ، وكان من أكرم الناس على قاضي مصر أ. عبيد حتى كانت بينهما الجفوة بسبب مسألة الحامل المطلقة ثلاثاً .

وحكاية ذلك نوردها ، لأن فيها ذكراً لأسماء كثيرين من العلماء بمصر في هذا العصر . قالوا : كان لأبي عبيد القاضي في كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلاً من أهل العلم خلاً عشية يوم الجمعة فإنه كان يخلو فيها بنفسه ، فكان من العشايا عشية يخلو فيها بمنصور هذا وعشية يخلو فيها بعفان بن سليمان ، وعشية يخلو فيها بالسجستاني ، وعشية يجعلها للنظر مع الفقهاء عامة .

(١) وفیات الأعيان ج ٢ ص ١٢٥ وشذرات الذهب ج ٢ ص ٢٤٩ .

فجرى بينه وبين منصور في بعض العشايا ذكر الحامل المطلقة ثلاثاً ووجوب نفقتها فقال أبو عبيد : زعم قوم أنه لا نفقة لها في الثلاث وأن نفقتها في طلاق غير الثلاث ، فأنكر ذلك منصور وقال : قائل هذا ليس من أهل القبلة . ثم انصرف منصور وحكى الخبر للطحاوي فحكاه الطحاوي لأبي عبيد فأنكره وبلغ منصوراً فقال ، أنا أكذبه . واجتمع الناس عند القاضي أبي عبيد وقد تواعدوا لحضور ذلك المجلس : فلما حضروا لم يتكلم أحد فابتدأ أبو عبيد وقال : ما أريد أحدًا يدخل علي : ما أريد منصوراً ولا نصاراً ولا منتصراً أولئك قوم عميت بصائرهم كما عميت أبصارهم ، يحكون عنا ما لم نقل ، فقال منصور : قد علم الله الكاذب ونهض فلم يأخذ بيده أحد غير أبي بكر بن الحداد .

زاد الأمر بين منصور والقاضي وتعصب الأمير ذكاء وجماعة من الجند لمنصور وتعصب للقاضي جماعة ، وشهد محمد بن الربيع الجيزي على منصور بكلام سمعه منه يقال إن منصوراً حكاه عن النظام فقال القاضي : إن شهد عليه آخر بذلك ضرت عنقه . مات منصور سنة ٣٠٦ هـ ولم يحضر القاضي الصلاة عليه خوفاً على نفسه من الجند ويروى أن منصوراً قال في مرض موته

قضيت نحبي فسر قــــوم حمقى بهم غفلة وتــــوم
كان يــــومى على حتم وليس للشامتين يــــوم

٣ - الطحاوي (١)

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي الفقيه الحنفي . انتهت إليه الرئاسة لأصحاب مذهب أبي حنيفة بمصر ، وكان شافعي المذهب يقرأ على المزني فقال له يوما : والله لاجاء منك شيء فغضب أبو جعفر من ذلك وانتقل إلى ابن أبي عمران الحنفي واشتغل عليه فلما صنف مختصره قال : رحم الله أبا إبراهيم «يعني المزني» لو كان حيا لكفر عن يمينه .

وكان الطحاوي ابن أخت المزني ، قال الشروطي : قلت للطحاوي : لم خالفت خالك واخترت مذهب أبي حنيفة قال : لأنني كنت أراه يديم النظر في كتب أبي حنيفة فلذلك انتقلت إلى مذهبه

(١) وفیات الأعيان ج ١ ص ١٩ وشذرات الذهب ج ٢ ص ٢٨٨ .

صنف الطحاوى كتبها مفيدة منها : أحكام القرآن ، اختلاف العلماء ، معانى الآثار ، الشروط ، وله تاريخ كبير ، وبيان السنة ، والمحاضر والسجلات ، شرح مشكل حديث رسول الله (١) .

توفي بمصر سنة ٣٢١ ودفن بالقرافة وكانت ولادته سنة ٢٣٨ .

والطحاوى : نسبة إلى طحا وهي قرية بصعيد مصر والأزدى نسبة إلى الأزد وهي قبيلة مشهورة من قبائل اليمن .

(١) الموجود من هذه الكتب هو معانى الآثار وبيان السنة وهما مطبوعان أما الباقى فمفقود كما ذكر ذلك فى كتاب الأعلام للزركلى ج ١ ص ٦٥ .

لَفْصُلُ الْيَّسَادِ

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الإخشيدية

من سنة ٣٢٤ إلى سنة ٣٥٧ هـ

- نبذ تاريخي
- أسباب انتعاش الأدب
- الشعر
- الكتابة
- العلوم

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الإخشيدية

نبذ تاريخي عن هذه الدولة

انتهت الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ كما علمت فعادت مصر ولاية عباسية كما كانت قبل هذه الدولة ، وتولاها ولاية ضعفاء لم ترتق همهم إلى ما ارتقت إليه همة أحمد بن طولون . فانقضت على مصر ثلاثون عاما وهي في اضطراب أقل مافيه عدم استقرار الولاية بها ، وهذه حال كما علمت لاتسمح باستقامة أمر ولا تنفيذ خطة لإصلاح ، كما يكون الشأن مع أمير يعقد عزمه على أن تكون البلاد له ولأولاده من بعده ، فيدفع عنها العدوان ويوفر لها الطمأنينة ويثبت فيها الإصلاح ، فتزدهر على يديه وتبين آثار الإصلاح في كل شيء من نواحي الحياة في البلاد .

انقضت هذه الثلاثون سنة في اضطراب كان مظهره السيامي طمع الدولة الفاطمية القائمة بالمغرب وتطلعها إلى الاستيلاء على مصر حتى لقد وردت جيوشها إليها ودخلت الإسكندرية واستقرت فيها .

فلما ولي محمد بن طغج سمى نفسه إلى أن تكون مصر له كما فعل ابن طولون من قبله ، ولا غرو فهو تركى مثله ينتهى نسبه إلى ملك فرغانة ، وقد اتصل بابن طولون وخدمه وخدم ابنه خمارويه بمصر فانتفع بتجاربهما واقتدى بهما في همتهما . كان لابن طغج أعداء كثيرون في مصر ، وفي خارجها من قواد الدولة العباسية والأمراء المستقلين بولاياتهم ، وصاحب المغرب الذى تعلقته همته بمصر منذ سنين ، فعمل ابن طغج على التغلب عليهم .

عمل ابن طغج على كسب مودة الخليفة العباسي الراضى بالله فأهدى إليه كثيرا ،

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠٢ .

فمنحه لقب إخشيد (١) وهو لقب آبائه في مملكتهم ومعناه «ملك الملوك» وكذلك فعل من بعد الراضى مع المتنى فمنحه ولاية مصر ثلاثين عاما وولى ابنه أنوجور عهده من بعده ، واجتهد ابن طغج أن يحسن علاقاته بالقائم العلوى في بلاد المغرب فكتب إليه يعرض تزويج ابنته لابنه المنصور ، فقبل القائم ذلك ، فكانت هذه سياسة حكيمة قضى بها ابن طغج على أحقاد كثيرة كانت تقلق باله ، فتمكن من التفرغ لأعدائه الآخرين ، فتغلب على ابن رائق كبير أمراء الدولة العباسية الذى حارب ابن طغج بغير رضا الخليفة كما تغلب على سيف الدولة ابن حمدان الذى طمع فى الاستحواذ على بلاد الشام كلها . وبذلك استطاع أن يرد عن مصر كثيرا من الكيد الذى كان يدبر لها فيها وعن أيمانها وعن شوائبها .

خلفه محمد ابنه أنوجور ومعنى اسمه «محمود» ، ومنذ ذلك الحين قام كافور الإخشيدى بتدبير أمر المملكة ، ولم يكن لأبناء طغج شئ من الأمر .

وكان كافور سياسيا داهية عظيم الذكاء فعمل على حفظ الدولة لأبناء طغج لأن فى بقاء أمرهم بقاء السلطان له ، فخرج بابن الإخشيد إلى الخليفة المطيع لله وأصلح أمرهما معه ، وصار يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، كما يدعى بالطاعة لبني العباس ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء حتى استقام له الأمر (٢) أقام كافور يدبر أمر المملكة باسم بنى الإخشيد إحدى وعشرين سنة ثم أقام ملكا مستقلا بنفسه سنتين وكان على ما ذكرنا من الدهاء فضمن لمصر الهدوء السياسى والانصراف إلى الإصلاح ، كما ضمن لها انتعاشا أدبيا بما كان له من نظر فى العربية والعلم والأدب (٣) .

وقد انتهت الدولة الإخشيدية بموت كافور فى جمادى سنة ٣٥٧ ثم دخلت رايات المغاربة الواصاين مع جوهر القائد بليوش المعز لدين الله سنة ٣٥٨ .

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .

(٣) المصدر السابق .

أسباب انتعاش الأدب في الدولة الإخشيدية

إذا ذكرنا الدولة الإخشيدية في هذا المقام فلنما نعى كافورا الذي تولى أمرها ربيع قرن من الزمان على حين لم تعمر الدولة إلا ثلاثين عاما تقريبا .
كان في كافور تلك الصفات التي عهدناها تنعش الأداب في كل العهود وتلك الصفات هي :

(١) الجود :

قال الذهبي : كان كافور كريما كثير الخلع والهبات . وقال أبو المظفر في مرآة الزمان : كان كافور شجاعا مقداما جوادا يفضل على الفحول (١)

وقال أبو جعفر مسلم بن عبيد الله العلوي النسابة ، ما رأيت أكرم من كافور !! كنت أسايره وهو في موكب خفيف يريد التنزه فسقطت مقرعته ولم يرها خدمه فتزلت عن دابتي وتناولتها ثم دفعتها إليه فقال : أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية . ماظننت أن الزمان يبلغني حتى تفعل بي أنت هذا ، وكاد يبكي . فقلت أنا صنيعه الأستاذ ووليه . فلما بلغ داره ودعني فلما سرت التفت فإذا بالجنائب والبغال كلها خلني ولذا الأستاذ قد أمر بحمل مركبه كله إلى ، فكانت قيمة ذلك تزيد على خمسة عشر ألف دينار (٢) .

ويكفي أن يكون المتنبي قد قصد كافورا والمتنبي كما نعلم كثير المطاعم وقد عوده سيف الدولة العطاء الكثير ، وكانت همته كذلك عالية حتى لقد ترفع عن مدح الصاحب ابن عباد مع أنه قد جعل له في نظير ذلك أن يشاطره ماله . ولقد بلغ من طمع المتنبي

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤ .

في كافور وعرفانه بقدر مباحته أن تجاوزت مطامعه المال والخلع إلى طلب الولايات فأشار إلى ذلك في قوله .

وليس بعيدا أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقيين واليا

(٢) النظر في العلوم وحب الأدب :

قال الذهبي : كان كافور يدني الشعراء ويحيزهم (١) وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وله ندماء . وكان فطنا ذكيا جيد العقل ذكر في «العيون الدعج في دولة آل طغج» (٢) أن كافورا لما وقف على قول المتنبي:

فجاءت بنا لإنسان عين زمانه وخلت بياضا خلفها ومآقيا

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

سر وطرب استحسانا ثم قال : ألا إن أبا الطيب هجن القصيدة بقوله في أولها :

كنى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وما ينبغي لمن قصد الملوك في نجاح حاجة أن يكون أول ما يخاطبهم به مثل هذا وقال ابن خلكان (٣) :

حكى عن المتنبي أنه قال : كنت إذا دخلت على كافور وأنشدته يضحك إلى ويبش إلى أن أنشدته :

ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلى أنه بعض الأنعام

قال فما ضحكك بعدها في وجهي إلى أن فارقت فعبجت من فطنته وذكائه .

وكانت مجالس كافور تحفل بالعلماء والأدباء ويمر بينهم من الفكاهات والنوادر الأدبية ما يدل على رغبة هذا الرجل في الأدب والعلم ورجاهما . فمن ذلك (٤) :

(١) المراجع السابق ص ٢ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥ .

(٢) مخطوط بدار الكتب وهو ما اشتمل عليه كتاب «المغرب في حل أمل المغرب» لابن سعيد المغربي .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٢ .

(٤) المصدر السابق .

دخل رجل على كافور ودعا له فقال في دعائه : أدام الله أيام مولانا بكسر الميم من أيام ، فتحدث جماعة الحاضرين في ذلك وعابوه فقام رجل من أوساط الناس (هو أبو إسحق إبراهيم بن عبيد الله بن حنيس النجيري اللغوي والأخباري كاتب كافور) وأنشد :

لا غرو أن لحن الداعي لسيدنا أو غص من دهش بالريق أو بهر
فتلك هيته حالت جلالتها بين الأديب وبين القول بالحصر
فإن يكن خفض الأيام من غلط في موضع النصب لا عن قلة النظر
فقد تفاءلت في هذا لسيدنا والفأل مأثورة عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب وأن أوقاته صفو بلا كدر

ومما يروى عن مجالس كافور الأدبية أن حضر أبو القاسم بن أبي العتير الأنصاري مجلس كافور فأنشد قصيدة ميمية أولها :

« نظر المحب إلى الحبيب غرام »

فقال المتنبي له : العرب لا تقول إليه غرام وإنما تقول له فقال الأنصاري تقول : إليه ولديه وله حروف الخفض ينوب بعضها من بعض ، وكان الوزيران الروزباري وابن الفرات حاضرين فأنشد الأنصاري مرتجلاً قصيدة ومنها في التعريض بالمتنبي :
لما تعرض لي بمقت حاسدي أبدى الملام وكيف يرضى الحاسد
مازال ينشد قائماً حتى إذا أنشدت عارضني لأني قاعد

وكان المتنبي يجرى مع كافور في أنشاده شعره على طريقة غير التي كان عليها مع سيف الدولة . ذلك أنه كان يقف بين يدي كافور وفي رجله خفان وفي وسطه سيف ومنطقة وكان ينشد سيف الدولة قاعداً .

(٣) وهذا سبب خاص وهو في نظرنا ذنابة أصل كافور وكونه عبداً أسود بصاص اللون مشقوق الشفة السفلى عظيم البطن ثقيل البدن لافرق بينه وبين الأمة الحلي ، اشتراه سيده محمد الإخشيد بثمانية عشر ديناراً من الزياتين ، وكان سيده الأول يربط في رأسه حبلاً إذا أراد النوم فإذا أحب تنبيهه جلد به منه لأنه لم يكن يستيقظ بالصياح . وكان غلمان ابن طنج يصفعونه في السوق كلما رأوه فيضحك فقالوا : هذا الأسود خفيف الروح ووصفوه لسيدهم فاشتراه (١)

(١) شرح البازجي لديوان المتنبي ج ٢ ص ٤٧١ .

فمثل هذا إذا ملك البيض الغضاريف احتاج إلى ما يرفع شأنه في نظرهم ويحدث له هبة في قلوبهم ، وإذا كان السيد المتحدر من أصلاب الملوك الصيد يحتاج إلى الشعر ليحطم مكانته في النفوس فكيف بهذا الذي عملت في أذنه يد النحاس وكان قدره يزيد وينقص بالفلس والفلسين .

لذلك رأينا كافورا (وقد كان شديد الذكاء) قد عرف حاجة مثله إلى المدح فبذل في سبيل الشعر كثيرا ، وقد ذكروا أنه احتال على المتنبي حتى قدم عليه مادحا ، ولولا خوفه من مطامعه لأنس إليه أكثر مما أنس ولما جعله يفكر في ترك جواره .

وقد رأينا كافورا يدرك في كل حين خسة أصله ، وفي قصة مسلم العلوي وبكاء كافور ما يدل على أنه لم ينس قدره وقياسه إلى أقدار الناس ، لذلك كان دائما على تكميل هذا القصص والزكاة عن هذه الرفعة التي صار إليها متخطيا الأشراف الأجناد .

وهذه قصة أخرى يجود فيها كافور على من يذمه ، وكأنه يدرك أنه حقيق بالدم ، وأن الناس معدودون في ذلك ، فهو يتلافى ذلك بالإحسان الذي يرضيهم عنه وينسيهم هذا القديم المزرى .

ذكروا أن واعظا بمصر قال يوما في قصصه : انظروا إلى هوان الدنيا على الله أعطاها لمقصوصين ضعيفين : ابن بويه في بغداد وهو أشل ، وكافور عندنا بمصر وهو خصي ، فرفع قوله إليه وظنوا أنه يعاقبه فتقدم له بخلعة ومائة دينار (١) .

(٤) وهذا سبب خاص أيضا بشخص كافور وهو أن انتماءه إلى جنس السودان جعله طروبا كثير النشاط ، يفرح للقليل الضعيف من الموسيقى ، ويغتر كذلك بالمدح وهي طبيعة في كل هذا الجنس ذكرها لهم ابن خلدون في مقدمته ، وروى عن جالينوس أنه ذكر من خصال السود « كثرة الطرب » .

فهذا الطرب الذي يسرع إلى هذا الجنس من الناس جعل كافورا حريصا على مجالس الغناء ، وقد قالوا عنه « وله ندماء وجوار مغنيات » كما كان حريصا على مجالس الأدب ، ففي الأولى يسمع الغناء وفي الثانية يسمع الثناء وكلاهما تطرب له النفوس ونفس مثل كافور أشد طربا .

ومن شدة طربه ما حكوا من أنه كان جالسا على تحت ملكه، وأرباب دولته وخدامه واقفون بين يديه، فسمع من الطريق صوت آلات وإيقاعا منسجما فحرك كتفه على إيقاع الصوت، ففطن إلى ذلك أرباب الدولة وخشى من انتقادهم فاتخذها عادة له (١).

(٢) أخبار الأول ص ١٦٩ وكتاب المغرب في حل المغرب ج ٤ ص ٤٨ طبع ليدن مع اختلاف بسيط في القصة إذ الذي في المغرب أنه كان يسير فسمع هذا الإيقاع.

الشعر في الدولة الإخشيدية

أولا - المتنبي في مصر

١ - مع كافور (١) .

كان المتنبي ملازما سيف الدولة بحلب فجري له ماحمله على تركه مغاضبا له ؛ ذلك أنه كان يوما في مجلس سيف الدولة وفي المجلس أبو الطيب اللغوى وابن خالويه ، فتكلم المتنبي في مسألة لغوية جرت المناقشة فيها بين أبي الطيب اللغوى وابن خالويه ، فكان كلام المتنبي تضحيفا لرأى ابن خالويه فأخرج هذا من كفه مفتاحا من حديد يلوح به في وجه المتنبي فقال له المتنبي : ويحك اسكت أنت أعجمى وأصهلك خوزى فمالك والعرب فضرب ابن خالويه وجه المتنبي بالمفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه فغضب المتنبي وزاد في غضبه أن سيف الدولة لم ينتصر له لا قولاً ولا فعلاً فكان ذلك أحد أسباب مفارقتة له .

رحل المتنبي من حلب سنة ٣٤٦ فقصد دمشق لأنها أقرب بلد ليست من مملكة سيف الدولة ، وكانت تابعة لمملكة مصر ، وكان بها يهودى يسمى ابن ملك من قبل كافور الإخشيدى ، فطلب من المتنبي أن يمدحه فلم يلتفت المتنبي إليه .

علم كافور بتزول المتنبي دمشق فطلب من ابن ملك أن يحمله على قصد بمصر فحمل الغضب ابن ملك أن يشى بالمتنبي عند كافور فقال له ، إن المتنبي قال إذا قصدت مصر فإنما أمدح ابن سيد كافور لا كافورا .

نبت دمشق بالمتنبي فسار إلى الرملة فحمل إليه أميرها الحسن بن طغج هدايا نفيسة ، وخلع عليه وحمله على فرس بموكب ثقل وقلده سيفاً محلى .

وكان كافور يقول لأصحابه أترونها يبلغ الرملة ولا يقصدنا ، وبلغ المتنبي أنه حاقده

(١) هذا البحث مستقى من شرح ديوان المتنبي لليازجى ج ٢ ص ٤٧١ ، وكتاب الوفيات ج ١ ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .

عليه ، ثم كتب كافور إلى صاحب الرملة يطلب منه المتنبي فصار إليه ، فلما قدم المتنبي على كافور أمر له بمنزله ووكل به جماعة وأظهر التهمة له وطالبه بمدحه فلم بمدحه فخلع عليه فمدحه ، وكان أول ما مدحه به هذه القصيدة :

كفى بك دار أن نرى الموت شاقبا وحسب المنيا أن يكن أمانيا
وقد مرت ملاحظة كافور على هذا البيت بعد سروره من قوله :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا لإنسان عين زمانه ونلت بياضا خلفها ومآقيا
ثم جعل بمدحه في مناسبات كثيرة
وقدم كناه أبا المسك في قوله :

وأضى سلاح قلد المرء نفسه رجاء أبي المسك الكريم وقصده
وقوله :

أبا المسك أرجو منك نصرا على العدا وآمل عزا يخضب البيض بالدم
ومدحه في شوال سنة ٣٤٧ بقصيدة مطلعها :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
وفيها يقول :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه وإن لم أشأ تملى على وأكتب
إذا ترك الإنسان أهلا وراءه ويمم كافورا فما يتغرب
ومنها :

يضاحك في ذا العيد كل حبيبه حداثي وأبكى من أحب وأندب
أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم واين من المشتاق عنقاء معزب
فإنك أحلى في فؤادي وأعذب فإنك أحلى في فؤادي وأعذب
وكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب
وآخر ما أنشده إياه وكان ذلك في شوال سنة ٣٤٩ ولم يلقه بعده ، قصيدته التي شأها
بالعتب ومطلعها :

منى كن لي أن البياض خضاب فيخفى بتبييض القرون شباب
ومنها :

أرى لى بقرى منك عينا قريرة وإن كان قربا بالبعاد يشاب
 وهل نافعى أن ترفع الحجب بيتنا ودون الذى أملت منك حجاب
 أقل سلامى حب ماخف عنكمو وأسكت كيما لا يكون جواب
 وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب

ثم أقام المتنبي بعد ذلك سنة لا يلقى كافورا غضبا عليه ، لكنه يركب فى خدمته خوفا
 منه ، ولا يجتمع ، به واستعد للرحيل وجهاز كل ما يحتاج إليه ، وقال فى يوم عرفة سنة
 ٣٥٠ قبل مفارقتة مصر بيوم واحد قصيدته الدالية التى هجا فيها كافورا وفى آخرها :

من علم الأسود الخصى مكرمة أقومه البيض أم آبائهم الصيد
 أم أذنه فى يد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود
 وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الحمل فكيف الحصية السود

وقد أكثر المتنبي من هجاء كافور بعد خروجه من مصر فأتى فى ذلك بمعان كلها
 أبكار فمن ذلك قوله :

تظن ابتساماتى رجاء وغبطة وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
 وتعجبني رجلاك فى النعل إننى رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
 وإنك لا تدري ألونك أسود من الجهل أم قد صار أبيض صافيا
 ويدكرنى تخييط كعبك شقه ومشيك فى ثوب من الزيت عاريا
 ولولا فضول الناس جئتكم مادحا بما كنت فى سرى به لك هاجيا
 فأصبحت مسرورا بما أنا منشد وإن كان بالإنشاد هجوك غاليا
 فإن كنت لا خيرا أفدت فإننى أفدت بلحظى مشفريك الملاهيا
 ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

وقوله :

أخذت بملحه فرأيت لها مقالى للأحيمق يا حلـيم
 ولما أن هجوت رأيت عيا مقالى لابن آوى يالكـيم

وقد هجا مصر والمصريين من أجله فقال :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأ عبد القزم
 أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكك من جهلها الأمم

وقال :

أكلما اغتال عبد سوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصى إمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بضمن وما تفنى العناقيد
والبيت الذي يجمع هجاء كافور والمصريين معا هو قوله :

وقد ضل قوم بأصنامهم فأما بزق رياح فلا (١)

٢ - المتنبي مع أبي شجاع فائك

أبو شجاع رومى أخذ صغيرا من بلاد الروم فتعلم الخط بفلسطين ثم أخذه الإخشيد من سيده صاحب الرملة كرها بلا ثمن فأعتقه سيده فصار عند الإخشيد حرا في عداد المماليك . نشأ كريم النفس بعيد الهمة شجاعا كثيرا الإقدام ولذلك لقب بالجبون .

كان رفيق كافور في خدمة الإخشيد فلما مات سيده وتقرر كافور في خدمة ابن الإخشيد أنف فائك أن يقيم في مصر كيلا يفرط إلى الركوب في خدمة كافور لأنه صار أعلى منه مرتبة ، فانتقل إلى القيوم وكانت إقطاعا له ولكنه استوخمها فاعتل جسمه بها وأحوجته العلة إلى دخول مصر فدخلها وأبو الطيب المتنبي بها ضيفا على كافور ، وكان المتنبي يسمع بكرم فائك لكنه لا يقدر على مدحه خوفا من كافور . ثم التقيا مصادفة بالصحرَاء وجرت بينهما مفاوضات فلما رجع فائك إلى داره حمل لأبي الطيب من ساعته هدية قيمتها ألف دينار ثم أتبعها بغيرها - فاستأذن المتنبي كافورا أن يمدح فائكا فأذن له فمدحه في جمادى الآخرة سنة ٣٤٨ بقصيدته المشهورة :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

وعنها قوله :

لا يدرك المجد إلا سيد فطن لما يشق على السادات فعـال
لا وارث جهلت يمتناه ما وهبت ولا كسوب بغير السيف سأل

(١) يقول عهدنا في الناس من ضل فعبد الضمن معتقدا أنه ينفعه ولم نر من فتن بزق منتفخ بالريـح . يقرع المصريين على خضوعهم لكافور وهو ليس في نظر المتنبي إلا قرية ملوثة هواء .

قال الزمان له قولاً فأفهمه
تدري القناة اذا لاهتزت براحتة
كفاتك ودخول الكاف منقصة
كالشمس قلت ومالشمس أمثال
ثم توفي فاتك في شوال سنة ٣٥٠ وكان المتنبى قد خرج من مصر فلما سمع بوفاة
قال يرثيه :

الحزن يقلق والتجمل يردع
يتنازعان دموع عين مسهد
النوم يعد أبى شجاع نافر
والدمع بينهما عصي طيع
هذا يجيء بها وهذا يرجع
والليل معي والكواكب ظلع
ومنها :

كنا نظن دياره مملوءة
وإذا المكارم والصوارم والقنا
وقال بالكوفة يرثيه ويذكر خروجه من مصر
لا فاتك آخر في مصر نقصده ولا له خلف في الناس كلهم

ثانياً — شعراء الدولة الإخشيدية

يهمنا أول الأمر أن نخصي من عرفنا من كل من قال شعراً في هذه الدولة ، وذلك
لأننا نجد في كتب التاريخ والأدب نقصاً كبيراً وتقصيراً زائداً في إحصاء شعراء هذه
الدولة . وليس هذا أمراً خاصاً بها بل هو عام في كل الدول التي قامت بمصر إلى عهد
هذه الدولة . وليس هذا أيضاً خاصاً بالشعراء بل هو يشمل الكتاب والعلماء ، كما لمست
ذلك فيما كتبنا عن العهود التي سبقت هذا العصر بمصر ، اللهم إلا فيما يتعلق بعلماء الدين
فقد كانت بهم عناية خاصة أظهرت أسماءهم وأفصححت عن آثارهم وجميع أحوالهم
فطالت بذلك تراجمهم في الكتب ، على حين يضمن على الكاتب أو الشاعر بذكر تاريخ
وفاته أو شيء عن نشأته أو برواية مقدار كاف من شعره . وأكثر من عرفنا بل كشفنا
من شعراء هذه الدول إنما عرفناه من بعض قوله . وسرى فيمن نخصيهم من شعراء الدولة
الإخشيدية كثيراً منهم إنما استدللنا على نسبتهم لهذه الدولة بأشياء عرضت في شعرهم
أو ملابسات اهتمينا بها إلى ذلك ؛ كأن يقال في عرض ذكر أحدهم أنه كتب إلى فلان
يستهديه أو يدعوه ، ويكون فلان هذا قد عرف عندنا بأنه من شعراء هذه الدولة

بطريقى مثل هذا. وهكذا فإذا قمنا بسرد أسماء من قالوا الشعر في هذه الدولة فليس عملنا هذا بغير ذى بال ، بل هو يهيم الأديب جداً لأنه يستطيع أن يضع يده على شعراء دولة كان لا يجد في الكتب نسبتهم إلى تلك الدولة. فعملنا هذا إنما هو جهد وتوفيق نحمد الله عليه. وقد تلافينا ما فات الثعالبى وغيره ممن كان همهم اختيار شعر جيد للشاعر فحسب ، كأنهم كانوا يظنوننا عاشرين معهم نعرف مثلهم كل ما يعرفون عن شعراء عصرهم .

وهذا بيان نحصى فيه أحوال ستة عشر شاعراً من شعراء هذه الدولة ذاكرين تاريخ الوفاة لمن وقفنا له على تاريخ وفاة مبينين طريقة الاستدلال على كونه من شعراء هذه الدولة :

- ١ — أحمد بن محمد بن إسماعيل الرسى ، المعروف بابن طباطبا والمتوفى في سنة ، ٣٤٥ ، كما في ترجمة ابن خلكان له في الوفيات ج ١ ص ٣٩ وفى سنة ٣٥٢ ، كما في ترجمة المغرب في حلى المغرب ج ٤ ص ٥١ .
- ٢ — القاسم بن أحمد بن طباطبا ، لقيه صالح بن رشدين ، وصالح هذا إخشيدى كما ستعرف .
- ٣ — أبو الفضل جعفر بن الفرات ٣٩١ ، ترجم له ابن خلكان ج ١ ص ١١٠ .
- ٤ — صالح بن رشدين ، قال عنه في اليتيمة « صاحب المتنبي وروى شعره »
- ٥ — سعيد إقاضى البقر ، في المغرب ج ٤ ص ١٠٣ « أنه كان من شعراء الإخشيد »
- ٦ — أحمد بن عصام أو أحمد بن أبي العصام ، وفى المغرب ج ٤ ص ١٠٤ « أنه كان من شعراء الإخشيد ».. وفى اليتيمة ج ١ ص ٣٦١ أنه رثى صالح بن رشدين .
- ٧ — الحسن بن محمد السهواجى (١) ، قال عنه في اليتيمة ج ١ ص ٣٥٥ أنه كتب إلى صالح بن رشدين يستهديه مشروباً في يوم نيروز .
- ٨ — أحمد بن صدقة ، قال عنه في اليتيمة ج ١ ص ٣٨١ « كتب إلى صالح بن رشدين يستهديه » .

(١) السهواجى هذا غير السهواجى المترجم له في فوات الوفيات ج ١ ص ١٧٠ وفى معجم الادباء ج ١ ص ١٦٠ فإنه فاطمى مات سنة ٤٠٠ واسمه الحسين لا الحسن أما صاحبنا الحسن فإننا لم نطلع له على ترجمة يذكر فيها تاريخ وفاته ولا نعلم عنه إلا ما ذكره صاحب اليتيمة .

- ٩ - أبو تميم سليمان بن جعفر ، ذكر عنه في اليتيمة ج ١ ص ٣٥٧ علاقات له بصالح بن رشدين .
- ١٠ - الحسن بن علي الأسدي كاتب السر ، في اليتيمة ج ١ ص ٣٦٨ أنه كتب إلى أحمد ابن محمد بن إسماعيل يطلب منه كتابه المعروف بالأنيس ، وأنه كانت بينه وبين أبي الحسن جنبك الأخشيدي مودة .
- ١١ - إبراهيم بن أحمد الرسي ، هو أخو القاسم المذكور في هذا البيان رقم ٢ .
- ١٢ - القاسم بن أبي العفير الأنصاري ، ناقش المتنبي في مجلس كافور وقد مر بك ذلك .
- ١٣ - محمد بن الوزير الحافظ . في يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧٥ أنه أهدى إلى الأخشيدي خاتماً .
- ١٤ - صالح بن مؤنس ، مدح صالح بن رشدين وهاجى بن أبي الجوع (اليتيمة ج ١ ص ٣٤٦ ، ٣٤٨) .
- ١٥ - العباس بن البصري ، خدم أنوجور بن الإخشيد كما ذكر صاحب كتاب الديارات ص ١٣٠ .
- ١٦ - عبد الله بن محمد بن أبي الجوع ، أحد رواة المتنبي وأصحابه كما ذكر صاحب اليتيمة ج ١ ص ٣٥٣ .

ثالثاً - تراجم بعض شعراء الدولة الإخشيدية

١ - أحمد بن طباطبا :

من كتاب « مشارع الصفا في حلى الشرفا » أنه أبو القاسم أحمد بن إسماعيل الرسي ابن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا ... بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه وكان من السرور والنبل وجلالة القدر على ما هو معروف مشهور ، وله أدب واسع وشعر في الزهد والغزل مليح . وكانت نقابة الطالبين بمصر إليه .

ومن مليح شعره قوله :

لعمرك إنى لأثريا لحاسداً وإنى على ريب الزمان لواجد
أبقى جميعاً شملها وهى ستة وأفقد من أحبته وهو واحد

وقوله :

أأترك الشرب والأنواء دائمة
والغصن يهتر كالنشوان في طرب
لا والتي تركتني يوم فرقتها

وقوله :

قل للذي حسنت منه خلأفته
أما ترى الغيم مجموعاً ومفترقا
كعاشق زار معشوقاً يودعه

وقوله :

غيرتني بالنوم جوراً وظلماً
اسمعي حجتي وإن كنت أدرى
لم أنم لذة ولا نمت إلا

وقوله : (١)

قالت : لطيف خيال زارني ومضى
فقال : أبصرته لو مات من ظمأ
قالت : صدقت. الوفا في الحب عادته

قيل وكان من حضر العقد لأبي القاسم أونوجور بن الإخشيد بالفسطاط وأنه قال
في ذلك - وقد طمع في الأمر أبو المظفر بن طعج وغيره وتشعبت الأهواء :

مات إخشيدنا فها نحن في
كلكم طالب يمد وحرص
يا ولادة الأمور إن لم تنبوا

ومن قوله في الغزل :

بشتم وخطم أننى متغـير
لا والذي جعل الدموع بمقلتي

(١) قال ابن خلكان ج ١ ص ٤٠ إن صاحب اليتيمة روي هذا الشعر له وإن كان
قد نسبته في أول الكتاب لذي القرنين الحمداني .

ما اخترت تبديل المودة ساعة بعد الذى هجر الحمى وجفانى
أنا ذاك لا عهدى يغير بالنوى أبدا ولا وجهى يميل لثان
وإذا وثقت بود من أحبيته فبعاده ودنوه سيان

مات سنة ٣٥٢ على حسب رواية المغرب وسنة ٣٤٥ على حسب رواية ابن خلكان وطباطبا بفتح الطاءين لقب جده إبراهيم وقيل له ذلك لأنه كان يلثغ فيجعل القاف طاء فقال يوماً لغلامه وقد قال له أجبني بدراعة لا طباطبا يريد قباقبا فبقى عليه لقباً . والرسي نسبته إلى بطن من بطون السادة العلوية .

٢ - صالح بن مؤنس :

قدمنا الدليل على أنه لإخشيدي بكونه معاصراً لابن رشدين وابن أبي الجوع . وليس لدينا من دليل على إخشيديته غير هذا .

أورده صاحب اليتيمة وأكثر من رواية شعره ، وهو يدور على الغزل وذكر الخمر شأن شعراء هذا العصر ، وقد خالط شعره هجاء لابن أبي الجوع ويفهم من قول صالح أن مهجوه ناقضه ولكن لم نر في المروى من شعر ابن أبي الجوع شيئاً من هذه المناقضة ولا ندرى سبب هذا التهاجي .

قال في صالح بن رشدين متغزلاً وإن لم يعنون الثعالبي أقوال صالح في صالح بهذا العنوان لكننا نرى ما قاله في صاحبه غزلاً صرفاً . قال .

بك يا صالح أرضى عن زمانى حين أسخط
فأدم لي الوصل لاني بك في العالم أغبط
أنت والرحمن منذ كن ت على قلبي مسط
ومصيب أنا في الحبيب ومن بعدى يغبط
وقال فيه أيضاً :

يفديك بالمهجة يا صالح من كل ما تكرهه صالح
فانت غصن صيغ من درة على ذراه قمم لائح
وقال فيه بديها :

شربنا مثل ماء البور د في الطيب على البور
ونادمت ابن رشديـن فما جدت عن الرشيد

فتى كالسيدر فى الرفعة والإشراق والسعد
كأنى منه فى الجنة لو أظفر بالحد
وقال فى الخمر :

سأدمن شرب الراح مادمت باقيا وأمدح من شرابها كل مدمن
فما تكمل الأوقات إلا بقهوة ولا تحسن الأيام إلا المحسن
وقال فى غلام صوفى :

عشقت صوفيا له شاهد يقيم عندى عندى
قد قصد الله بأحواله فليسته يقصد فى حالى
وقال متغزلا :

بعين الله أنت فلن عيني إذا ما غبت دامية الخفون
كأنك مهجى فإذا تدانى فراقك حم لى ريب المنون
وسأله بن رشد بن أن يسير معه إلى القاش فقال مرعجلا :

يا آمرى بالمسير فى بلحج النيل كأن سمخرت لى الريح
ماجمد الماء لى فأركبه كلا ولا صامت انما صيح
وله فى العناق :

لى سيد ما مثله سيد تصدت الحمى له فاشتكى
عانقته عند موافاتها والآفق بالليل قد احلولا
فجاءت الحمى كعادتها فلم تجد ما بيننا مسلكا

وقال فى البنفسج والورد :

بنفسج جاء فى حداد ووردنا فى معصفرات
فاشرب على مأتم وعرس جلا جميعاً عن الصفات

وقال يمدح بعض آل الفرات :

قد مر عيد وعيد ما اخضر لى فيه عود
وكيف نخضر عودى والماء منه بعيد
يامن له عدد المجىد كنهواو العديسد

آل الفـرات نـداهم
وأنت فضلك فيهم
وكل يوم لغيري
هل لي إلى الرزق ذنب
ما الناس إلا شقي
على الفـرات يزيـد
عليك منه شهود
من راحتك مدود
إن كان منه صدود ؟
في دهمـرنا وسعيد

وقال يهجو عبد الله بن أبي الجوع من قصيدة أولها :

هاجيك فيما قاله مـسـادح
وما يقوت الفيـل من بقة
ورب من ترفعه خزينة
ففخر عبد الله في الناس أن
يابن أبي الجوع قدحت امرأ
لقد تعرضت على غـرة
فاركب ذلول الأمر أو صعبه
وعق من أهلك من شتته
واغد بما تهوى ورح لئني
يأبها الصعو الذي لم يزل

فأنت في صفقتك الرابعـح
أمثالها في فمه طائـح
ميسها في وجهه لائح
يقول قد ناقضني صالـح
من فكره يحترق القـادح
قريحة صاحبها قـارح
في فقد جـدبك المـسـازح
فلنما أنت له قاضـح
غاد بما تكرهه رائـح
يرقص حتى دقه الجـارح (١)

وقال فيه أيضاً :

إذا الذي عن رشده قد عمي
لو كنت شهماً حازماً ضابطاً
ما أنت في فعلك إلا كمن
كيف يخوض البحر من مثله
قائت أو اجزع كل ذا واحد
استقدر الله على كل ما
تجاسر الجـوع على صالح
وفاه باسمي مفصلاً بعد ما

لو كنت جلدا حدثت عن أسهمي
لما تقلبت على الشيهم (٢)
تطعمم الريق من الأرقم
يغرق في دائرة الدرهم
لا عاصم اليوم لمستعصم
ألصق بـمـنك الأنف بالمرغم
تجاسر الكلب على الضسيغم
تركته أسكت من أبكم

(١) الصعو : العصفور الصغير .

(٢) الشيهم ذكر القنائف أو ماعظم شوكة من ذكرانها .

وقال قوم قد غدا شاعرا
فقلت لا لوم على مثله
أنا الذى ألبسته حسرة
والله لا يجهل من بعدها
أبين به من ميسم واضح
فليت شعري كيف رام العلا
والشعر لا يعرف للمفحم
من أخذ الصنع قفاه حمى
بما جرى من ذكره فى فمى
وفى قفاه للردى ميسم
يضىء كالغرة فى الأدهم
وهم أن يرقى بلاسلسم

٣ - الحسن بن علي الأسدي :

يلقب بكتاب السر ، كتب إليه أحمد بن طباطبا المتقدم يطلب منه كتابه الذى ألفه
وسماه الأنيس ، فأنفذ إليه الجزء الأول منه وكتب إليه :

قد بعثنا بمؤنس لك فى الوحش
فيه ما يشتهى الأديب من العلا
فيه ماشئت من بدور معان
والنفيس البهى ما زال يهلى
مخل يدعى كتاب الأنيس
م وفيه جلاءهم النفوس
ضاحكات إلى وجوه شمس
كل حين إلى البهى النفيس

فلما قرأ ابن طباطبا رقعته كتب إليه على ظهرها ارتجالا :

قد قرأت الكتاب ياخل نفسى
وهو تأليف ذى ذكاء وفهم
فهو لى مؤنس وأنت الأنيس
وهو وقف على العلوم حبيب

حدث الحسن بن علي قال : كان أبو الحسين جنبك الإخشيدى من كرماء الناس
وكانت بينى وبينه مودة وكنت أغشاه كثيراً للحوائج التى تعرض فاستخدم يوماً بواباً
فحجبتى غير مرة فكتبت إليه :

يا علم المكرمات والسودد
يعدنى كلما دنوت ، وما
فى كل يوم ألقى بطلعتيه
وجه شتيم بكل فاحشة
كلب يهر الضيوف إن طرقوا
أبعده واننى الحبيب عنك كما
إليك أشكو بوابك الأسود
حق كريم الوداد أن يبعد
طالع نحس يسوءنى أنكد
عليه من كل مشهد يشهد
فناءك الرحب كالح اعقد
بنى القذى عنه خالص العسجد

أولا فلن تستطيع تنظم ما عنك من المكرمات قد بدد
وما انتفاع الورى ببحر ندى تزداد عنه العطاش لا تورد
فما كان من أبى الحسين إلا أن أرسل إليه الحاجب الأسود مع خادم يسمى بشيرا
وأمره أن يضربه بحضرة الأسدى ثلاثين مقربة ففعل بعد استعفاء من الأسدى وتشديد
من أبى الحسين .

٤ - أبو الحسن محمد بن الوزير الحافظ :

كتب إلى صديق له يستدعيه ارتجالا :

لنا مُسَمِّعة حُلُوه ولون يفتق الشَّهوه
فبالبارع من مجدد لك إن لم تجب الدعوه
وأهدى إلى بعض إخوانه مقطا وكتب إليه :

إني بعثت مقطا غير محتشم ولو بعثت سوادى ناظرى هـ
فأقبله واجعله مما يستعان به فإنه خادم السكين والقلـم
وقال يصف نرجسا :

خـواتم من بلجين فصوصها كابـراء
وليس تضحكك إلا إذا بكتها السـماء
وأهدى إلى الأخشيـد خاتما وكتب معه :

وذى عنق لم يطل ومتين قـد خـصرا
وقد زاد فى ضمـره وأسفله فضـة
بعثت بـه معسرا ولاغزو أن يهـدى المقـل إلى المكـر
على قـدر الخـنصر (١) على الفرس المضمـر
وأعـلاه من جـوهر إلى ملك مـوسر

(١) القدر - بفتح الدال كالقدر بسكونها .

وقال في الوداع :

قد قلت إذ سار السفين بهم والشوق ينهب مهجتي نهبا
لو أن لي عزاً أصول به لأخذت كل سفينة غصبا

٥- سعيد قاضي البقر :

كان من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه به لما كان فيه من الحلاوة والتقدير والمزل
مع علو السميت وموارثة الدولة ومن شعره :

حي على الكأس في الصباح مطرحة نصيح كل لاح
وانتهب العيش ماتتني فأنت منه على جناح
يارب ، دعني بلا صلاح يارب ذرتي بلا صلاح
يدى ملدى الدهر فوق دف وراحتي تحت كاس راح

قالوا عنه : أنه كان من شعراء أبي الجيوش بن طولون (وكان في آخر عشر التسعين)
ثم كان يبيت عند الإخشيد ويحادثه ويسامره (١)

٦ - صالح بن رشدين :

قال عنه ابن سعيد المغربي صاحب المغرب (٢) ، وجدته في تاريخ القرطبي
موصوفاً بالكاتب المصري ؛ وأنه قال : كتب إلى أبو علي أحمد بن صدقة الكاتب
يدعوني سنة ٣٥٣ :

بالله يا صالح قم مسرعاً إلى عسقار أدركت تبعاً
تساعده الليلة في شربها وخذ من السكر بها مصرعاً
فقد بدلنا لك أرواحنا لما رأيناك لها موضعاً

فجاوبته :

ياسيداً يسمع ما قد دعا خذني بما ألزمته مسرعاً

(١) المغرب ج ٤ ص ٣٣ .

(٢) ج ٤ ص ٨٧ .

وقال فيه أيضاً :

أذكرتني يادير من قد مضى من أهل ودى ومصافى
كم كان لى فيك وفيهم معا من طيب أيام وليلات
أشكو إلى الله مصابى بهم وفقدنا أهل المروءات

ونكتفى بهذا فقد استطعنا أن نصور لك العصر في شعر شرائه ويمكنك الرجوع إلى ما لم نذكر بدلالة البيان الذى قدمناه لك قبل هذه التراجم .

رابعاً - وصف الشعر في هذا العصر

قدمنا لك من الأمثلة ما ينطق بحالة الشعر في هذا العصر : فهو شعر طرب ومرح وحياة وادعة تقضى بين الرياض والغياض في مجالس الشراب على بسط الأعشاب وفي جموع الأحباب . وهى حياة ترف كل ساعاتها فراغ ولهو وكل ما بين الأصحاب فيها إنما هو استدعاء أو إهداء أو استهداء . برع فيها شعراء في التناذر والفكاهة حتى على كبر السن وعلو السمى ، وعرف كثير منهم بإدمان الشراب ، وأحب الملوك منهم ذلك . فسعيد قاضى البقر يتصل بالإخشيذ ويزيد اختصاصه به لحلاوة فكاهته وكثرة هزله « وابن أبى العصام » يشتهر بالإدمان لشرب الخمر حتى ما يكاد يفيق ولعله كان سكران حين رثى صالح بن رشدين بقوله : (راجع شعره ص ١٨٢) .

قد أفسد الموت على صالح كل الذى أصلحه صالح

فهل سمعنا يمثل هذا الكلام فى رثاء قط .. ؟ أو هل تصور الشاعر الموت إلا واغلا أو رقبيا يدخل على القوم فيفسد عليهم مجلسهم ويكدر صفوهم فحسب ، فهذا ما تنطوى عليه هذه الألفاظ الخنثية الناعمة ، وهل بقي صالح بعد الموت فلم يضره إلا لإفساد ما كان قد أصلحه وأعدده للذاته .. ؟ ! يا لله إن لغة اللهو وأسلوبه قد غلبا على الرجل فأضحك حين أراد أن يبكى .

أما الذى يؤكد لى أنه قال هذا الشعر وهو سكران فهو قوله (وانصراف البواب عن بابه) كأن انصراف البواب هو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى التى حلت بأهل الدار ، لا فقدهم عائلتهم وموت كاسبهم وتيم صغيرهم وضياع فقيرهم ومحتاجهم !! .

ثم كيف يتصور وضع الحمد والشكر لله في مقام الرثاء إلا أن يكون الشاعر هازلا أو متعمدا الفكاهة بقلب الأوضاع جاعلا الموت نعمة على الميت أو على أهله فهو يستوجب الشكر العاجل . أما ألفاظ الصبر واحتمال المكروه والرضا بالواقع والتأسي بالناس فتلك بعيدة عن ذهن الشاعر ، لأنه لا شك سكران أو هو لم يعتد القول في هذه المآسى ، لأنه لم يخالط محزونين وإنما قضى حياته كلها في ضحك ولعب ولهو . وقد رأيت أن الشعراء وبلخوا الأديرة وقصفوا فيها وإن كنا لم ننقل لك كثيرا مما قيل فيها ، لأن الشعراء الذين أكثروا من ذلك لم يثبت لدينا بالبرهان أنهم إختشيدون ، ونحن لا نلقى الكلام على عواهنة وإن شئت فاسمع كلاما لا يختلف في روحه ولفظه عما سمعت من شعر الشعراء الذين سقنا لك شعرهم يثبت لك على وجه التقريب - إلى أن نهتدي إلى زمانهم بالضبط - أن الشعراء في أيام هذه الدولة وما قاربها أكثروا من وصف هذه الأديرة .

جاء في كتاب الديارات غير ما نقلنا إليك سابقا من شعر ابن أبي العصام ، قول محمد بن عاصم (١) في دير القصير :

إن دير القصير هاج أذكاري	هو أيامي الحسان القصار
وزمانا مضى حميدا سريعا	وشبابا مثل الرداء المعار
عرفتني ربوعه بعد نكر	فعرفت الربوع بالإنكار
فلو ان الديار تشكو اشتياقا	لشكت جفوتي وبعد مزارى
ولكادت نحوى تسير لما قد	كنت فيها سيرت من أشعارى

وهى طويلة .

ولابن الزنبقي المصري (٢) في هذا الدير من شعر طويل :

يا حسرة في القلب ما أقتلها	كأنها في القلب أطراف الأسل
دير القصير الفرد في صفاته	يا من رأى الجنة في رأس جبل
أشربها راحا شمولا قرقفا	تدب في الجسم صباحي والأصل
يديرها ذو غنج بطرفه	يحى من شاء ومن شاء قتل
كأنه غصن من البان وقد	زاد عليه بالاقوام المعتدل
الثغ حثف النفس وفي لثغته	تاه بها على الورى تيه مدل

(١) ، (٢) لم نستطع التوصل إلى معرفة الزمن الذى عاش فيه ولا عثرنا بذكر علاقة لهم مع شخصية معروفة في هذا العصر .

إن قال نار قال ناغ أو يقل
ويضرب الناقوس فيه راهب
فاحت كأس الراح يا ساقينا
من قبل أن يطرقنا بين فلا
نور يقل نوع^١ بدل وغزل
ضربا على ريث وضربا بعجل
واغتم الدهر فللدهر دول
ينفع عند البين ليت ولعل

ولعباس بن البصرى في دير ما رحنا : (١)

يا حامل الكأس أدرها واسقني
أما ترى البركة ما أحسنها
أما ترى أنوارها أما ترى
كأنما صفر الدنانير بها
قد ذعر الشوق لفؤادي فاندعر
إذا تداعى الطير فيها فصفر
حسن مسيل مأها إذا انحدر
مبدولة ليس لها من متجر
نثر في تلك النواحي فانتثر
كأنما الجواهر في ألوانه

وله أيضاً في دير نهيا :

يامن إذا سكر النديم بكأسه
طلع الصباح فسقني تلك التي
غربت لوحظه بسكر الفئيق
ظلمت فشبه لونها بالزنبق

ولابن عاصم في دير طمويه :

اشرب بطمويه من صهباء صافية
على رياض من النوار زاهرة
كأن نبت الشقيق العصفري بها
كاسات خمر بدت في إثر كاسات
تزرى بخمر قرى هيت وعانات
تجري الجداول منها بين جنات

والذي يدلنا على غلبة اللهو وشيوعه في تلك الأيام أن نقيب الأشراف وسيد السادات العلويين بمصر - ومكانه مكان تجلة وموقفه موقف تزمت وتخرج - لم يستطع كبت ما في نفسه من نزوع إلى اللهو وطيران إلى اللذة ولولذة القول وحدها، فقال وأكثر من الغزل وآلى ألا يترك الشراب، وكانت حلفته بضم حبه وهو محبوبته التي تركته يوم الفراق، « كأنما الرمل في عينيه منثور » أنظر شعره ص ١٧٣ .

أفلا يقال بعد كل هذا أن العصر كان عصر مرح وإفلات من قيود الدين وأن الشعر كان فيه أصدق دليل على ذلك .

ثم ألا يقال إن شعراء هذا العصر استطاعوا أن يصوروا الحياة في عصرهم تصويراً

(١) أثبتنا من قبل أن العباس بن البصرى من شعراء الاخشيدية بما ذكرنا من علاقته بأنوجور .

صادقاً فعرفنا من شعرهم ما كان في مصر من ملاحه ومقاصف وما كان لطبقة الشعراء من فراغ وعكوف على اللهو ، وما كان في أولى الأمر من تسامح في أن يذاع ويقال كل ما قيل وأذيع .. ١١٩

خامساً - الشعراء الطارئون على مصر في عهد الدولة الإخشيدية

طراً على مصر في عهد هذه الدولة شعراء كما طرءوا عليها في كل حين قبل ذلك يحدوهم ما يسمعون عن جود ولاية مصر أو ملوكها ، كما كان لمصر حديث بين الناس في كل قطر يشوق محبي الاطلاع والمولعين بمناظر الطبيعة الفاتنة ، أن يقصدوا هذه البلاد. لذلك قصد في هذا العصر شعراء اشتهر من بينهم كشاجم محمود بن محمد بن الحسين المكنى بأبي نصر الملقب بكشاجم (١) ، والناشي الأصغر على بن عبد الله بن وصيف . على قلة ما ورد عنهم ما يختص بحياتهم في مصر ١١

أما الناشي الأصغر فلا نروى له شعراً قاله في مصر يمدح أميراً أو عظيماً أو يصف معنى من مغانيها ، وكل ما يدلنا على قدومه إلى مصر قول ياقوت الحموي أنه « قصد كافوراً الإخشيدى ومدحه ومدح ابن خنزابه وكان يناديه (٢) » ومع إطلالته في ترجمته لم يذكر لنا بيتاً واحداً أنشده في مدح أحد هذين أو نادم به ثانيهما .

مات الناشي الأصغر سنة ٣٦١ هـ ببغداد .

أما كشاجم فقد ذكر السيوطي في حسن المحاضرة (٣) أنه « أقام بمصر مدة فاستطابها ثم رحل عنها فكان يتشوق إليها ثم عاد إليها فقال :

قد كان شوقي إلى مصر يؤرقني فالآن عدت وعادت مصر لي دارا

واقصر السيوطي على هذا البيت ، وبعده (٤)

أغدو إلى الجزيرة الفيحاء مصطبحا طورا وطورا أزجي السير طيارا

(١) في شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٨ أنه هو الذي لقب نفسه بهذا اللقب فقال الكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والميم من جواد والميم من منجم ، قيل ثم طلب الطب فزيد في اسمه طاء فقليل طكشاجم ولكن لم يشتهر .

(٢) معجم الادباء ج ١٣ ص ٢٨٢ .

(٣) ج ١ ص ٣٢٢ .

(٤) ص ٦٤ من الديوان .

بيناً أسامي رئيساً في رياسته
أما الشباب فقد صاحب شرفته
من شادن من بني الأقباط يعقد ما
بين الكتيب وبين الخصر زانرا
إذ رحت أحسب في الحانات خمرا
وقد قضيت لبانات وأوطارا

وما دام كشاجم معجباً بمصر ميلا إلى جمالها فقد كان له فيها حياة مرح ولهو
فقصد إلى أديرتها ووصفها فقال في دير القصير :

سلام على دير القصير وسفحه
منازل كانت لي بين مآرب
إذا جئتها كان الجياد مراكبي
فاقتص بالأسحار وحشى عينها
معى كل بسام أغر مساعد
وجرد عناق كالظباء ضوامر
ولحمان ما قد أمسكت كلابنا
طعام إذا ما شئت بادرت طبخه
وصفراء مثل الثبر يحمل كأسها
كأن قضيب البان عند اهترازه
هنالك تصفو لي مشارب لذى
فيجنات حلوان إلى النخلات
وكانت مواخيرى ومنتهاني
ومنصرفي في السفن منحدرات
وأغدو على الإنسى في الظلمات
على كل ما يهوى النديم موات
يبادرن في مضمارها القصببات
علينا ومما صيد بالشبكبات
على كثرة من غلقت وطهاني
شديد فتور الطرف والمحظبات
تعلم من أعطافها الحركات
وتصحب أيام السرور حياتي

ومما قال في مصر : (١)

أما ترى مصر كيف قد جمعت
السوسن الغض والبنفسج والورد
كأنها الجنة التي جمعت
كأنما الأرض أليست حللا
وقد أحاطت بها شقائقها
من فخر العبقري والسندس
كأنها من عقائق أكسوس

ويظهر أن كافورا لم يعطه ما يطمع فيه فقال يعرض به : (٢)

تراه في الصدر ، من خساسته
كأنه في أواخر المجلس

(١) ص ١٠٣ من الديوان .

(٢) ص ١٠٤ من الديوان .

لا يفهم القول والخطاب ولا يفهمه فهو أبكم أخرس
يحكم في مصر والشام وقد كان كثيراً مثله يحرس
مات كشاجم سنة ٣٥٠ هـ على ما في كتاب الأعلام للزركلي وسنة ٣٦٠ على ما في
الشذرات (١) .

(١) الأعلام ج ٢ ص ١٠١٨ ، الشذرات ج ٣ ص ٢٧ .

الكتابة في عهد الدولة الإخشيدية

قد عرفت فيما مضى ما هو المراد من قولنا كتابة الإنشاء ، كما عرفت موقف رئيس ديوان الإنشاء من صاحب الأمر .

ولا نعيد القول فيما كانت تفتح به الرسائل وتختتم ، فإن ذلك لم يتغير عما كان عليه الحال في الدولة الطولونية لقرب العهد بين الدولتين .

أما الذي يذكر هنا فهو أن لقب الوزير لزم ذلك الكاتب الذي كان يتولى رئاسة ديوان الإنشاء فعلى حين لم يكن ابن عبد كان يلقب إلا بكاتب ابن طولون لا نرى لإبراهيم ابن عبد الله بن محمد النجيري زعيم كتاب الإخشيديين إلا ملقباً بلقب وزير وما ذلك إلا لتقدم الحضارة وشيوع ذلك اللقب في نواحي الدولة .

وقد قرأنا سيرة آل الإخشيد فلم نعر بكاتب لهم إلا إبراهيم هذا ومحمد بن كلا الذي كان يسفر بين الإخشيد ومحمد بن رائق ، ولا بد أن يكون محمد هذا كاتباً يعمل تحت رئاسة إبراهيم النجيري لأنهما كانا متعاصرين .

أما النجيري فهو أبو إسحاق النحوي اللغوي أخذ عنه أبو الحسين المهلبى وجنادة اللغوي الهروي وكثير من أهل العلم بمصر ، وكان هو قد أخذ عن الزجاج بالبصرة وكان ماهراً في الكتابة عالماً بوجوهها ، حكى أنه ورد إلى الإخشيد كتاب من المانوس ملك الروم يفتخر فيه عليه ، ويزعم أنه له عليه المنة في أن يخاطبه إذ قد جرت عادته ألا يخاطب إلا خليفة ، فقرأ الخطاب على الإخشيد فأمر بالإجابة عنه فأجاب عنه جماعة فلم يختر إلا جواب إبراهيم بن عبد الله النجيري .

وكان إبراهيم معجباً بكتابه جداً حتى إنه نسخ منه نسخاً وأنفذه إلى البصرة لإظهار مقدرته عند إخوانه ومن يعرفونه هناك . (١)

والنجيري هذا هو الذي كان حاضراً مجلس كافور فدخل عليه رجل يدعو له ويقول أدام الله أيام سيدنا (بكسر مهم أيام) فتبسم كافور إلى إبراهيم فقال من فوره :

لا غرو أن لحن الداعى لسيدنا وغص من هية بالريق والبحر
وقد مرت القصة ونزید هنا أن كافوراً أمر لإبراهيم بثلاثمائة دينار وبمثلها للداعى له .
أما جوابه الذى كان موضوع فخره فسنورده فيما بعد .
أما محمد على بن كلا فقد ورد عنه فى المغرب ما يلى : -

« سار الإخشيد لقتال ابن رائق واستخلف أخاه أبا المظفر وسار حتى نزل القرما
وتقدمت طلائع محمد بن رائق فكانت بينهم مناوشة ومفر الحسن بن طاهر العلوى بين
الإخشيد وبين محمد بن رائق فى الصلح وأنفذ الإخشيد كاتبه محمد بن كلا للرملة للموافقة
على شرائط بينهما وتم الصلح » (١) .

ونعتقد أن الذين قاموا بالكتابة لهذه الدولة كثيرون ولكن أخبارهم كما ترى غامضة
حتى إن الحموى ترجم ترجمة للتجريمى فلم يذكر أنه كتب للإخشيديين .

نماذج الكتابة الإنشائية فى عهد الدولة الإخشيدية

لا نذكر هنا إلا كتاب إبراهيم التجيرمى الذى قدمنا أنه فاخر به أهل عصره حتى
نسخ منه عدة نسخ وأرسلها إلى البصرة ليطلع عليه أهلها .
وها هى تلك صورة الجواب :

من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين إلى المانوس عظيم الروم ومن يليه .
سلام بقدر ما أنتم مستحقون ، فإننا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ونسأله أن يصلى على
محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقول وإسحاق رسوليك فوجدناه مفتتحاً بذكر
فضيلة الرحمة وما نرى عنا إليك ، وصح من شيمنا فيها لديك ، وبما نحن عليه من المعدلة
وحسن السيرة فى رعايانا ، وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخليص
الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه .

فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فمن سيد القول الذى يليق بذوى الفضل والتبلى ،

(١) المغرب ج ٤ ص ٢٥ .

ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون، وإليه راغبون، وعليه باعثون، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون، وبه متواضعون وعالمون. وإياه نسأل التوفيق لمرشد الأمور وجوامع المصالح بمنه وقدرته.

أما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة فلما نرغب إلى الله جل وعلا الذي تفرد بكمال هذه الفضيلة وهبها لأولياؤه ثم أثابهم عليها، أن يوفقنا لها ويجعلنا من أهلها ويسرنا للاجتهاد فيها والاعتصام من زيغ الهوى عنها وعرة القسوة بها (١)، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفا على طاعته وموجبات مرضاته حتى نكون أهلا لما وصفتنا به، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه، ومن يستحق الزلنى من الله تعالى فلما فقراء إلى رحمته. وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا وحمله من جسيم الأمر ما حملنا وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا بعمولنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، أن يتهل إلى الله تعالى في معونته لذلك وتوفيقه وإرشاده فإن ذلك إليه وبيده. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وأما ما وصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون الخليفة في المكاتب لما يقتضيه عظم ملككم، وأنه الملك القديم الموهوب من الله الباقي على الدهر، وأنت إنما اختصاصتنا بالمكاتب لما تحققته من حالنا عندك، فإن ذلك لو كان حقاً وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصرنا عن منزلة من تكاتبه، وكان لك في ترك مكاتبتنا غم ورشد، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد، وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ولا يراه وصمة ولا نقيصة ولا عيباً، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة. فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته.

والذي تجشمت من مكاتبتنا إن كان كما وصفته، فهو أمر سهل يسير لأمر عظيم خطير وجل نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم، لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسينين فمن كان منا في أيديكم فهو على بينة من ربه وعزيمة صادقة من أمره وبصيرة فيما هو بسبيله، وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه وحמיד عاقبته، ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن يفتنه ولم يعده من أن يتليه. هذا إلى أوامر الإنجيل الذي هو أمامكم، وما توجه عليكم سياستكم والتوصل

(١) معنى هذه الجملة أنه يدعو الله أن ييسره للاجتهاد في تحصيل فضيلة الرحمة وأن يعصمه من أن يزيغ به الهوى عنها كما يعصمه من عار القسوة ولصوق وصفها به إذا لم يتبع سبيل الرحمة ويستمسك بأهدائها.

إلى استنقاذ أسرائكم ، ولولا أن إيضاح القول في الصواب ، أولى بنا من المساحة في الجواب لأضربنا عن ذلك صفحا .

وبقية الكتاب على هذا النمط فاطلبه في كتاب المغرب وفي صبح الأعشى (١) .

★ ★ ★

والذي نراه في هذا الكتاب أن عبارته لا زينة فيها مطلقاً، ولا فضيلة فيها للفظ أو حسن صياغة ، وكأنما أراد الكاتب أن يفرغ معانيه في أي قالب يظهرها واضحة جلية .

فهو بهذه المثابة يكاد يفقد شرط كتابة الإنشاء أو النثر الفني وهو التفوق في التعبير والتخير للألفاظ ، وعندى أن عذر الكاتب في هذا واضح لأنه يعلم أن كتابه سيجرم والترجمة لا تبقى على شيء من جمال اللفظ وزينته ، فرأى الكاتب أن من العبث أن يتعب نفسه في ذلك ، وجعل اهتمامه منصرفاً إلى المعنى الذي يحرص أن يصل إلى المكتوب إليه سليماً واضحاً . لذلك ترى قوة الحجّة واضحة وترتيب المعاني منسجماً .

فكنا بحاجة إلى نموذج آخر من كتابة النجيري مي ويكون قد كتبه إلى قارئ للعربية حتى نرى مقدار تفوقه في عباراته وعنايته بحسن صياغتها .

وإن نظرة إلى هذا النص مع كثر الطرف إلى النموذج الذي أوردناه لابن عبد كان ، لتجلى لك ما قررناه من الحكم على نموذج النجيري مي . حقاً إن كتابة المصريين لا تتملى بالزخارف ككتابة العراقيين ، ولكن لا ينتهي لإهمال الصناعة في الصياغة إلى الحد الذي وصل إليه النجيري مي ، فإنه يخيل إلينا أنه لو استطاع أن يقيم المعاني بلا ألفاظ ويؤدي المراد بلا تعبير لآثر ذلك .

(١) المغرب ص ١٨ ج ٤ و صبح الأعشى ج ٧ ص ١١ وما بعدها .

العلوم في الدولة الإخشيدية

انتهينا في الكلام عن الدولة الطولونية إلى أن العلوم فيها كانت هي العلوم الدينية واللغوية والتاريخ ، وأنها لم تكن بعد قد عرفت علوم الفلسفة ولا المنطق ، مما تورط فيه أهل العراق فأفسد عليهم دينهم ولغتهم .

وقد بلغ من بعد مصر عن المذاهب الناشئة في بغداد أن كانت سنية لا تعرف الاعتزال حتى لقد قالوا عن سيبويه المصري (٣٥٨) الذي لحقته السوداء فاختلط عقله : إنه كان يظهر الكلام في الاعتزال في الأسواق فكان يحتمل لما هو فيه (١) ، فكأنهم كانوا لا ينتظرون هذا التطرف ولا يحتملون هذا الكلام إلا من أدركه لطف الله فاختلط عقله . مع أن الاعتزال في بغداد كان معادلاً للسنية لا غرابة فيه عند الناس .

ونقول إن حال العلوم في الدولة الإخشيدية كان كمحالتها في الطولونية ، فلم تزد أنواع العلوم عما كانت عليه ولم يتغير نهج المصريين في دراستهم لها .

وكذلك ظلت الدوافع الدينية هي أقوى الأسباب لحفز العلماء إلى تحصيل العلم والصبر على ذلك معناه الرحلة في سبيله ، وظل رجال الدولة يعطفون على العلماء ويوفرون لهم الاحترام والتجلة ويرفعون مجالسهم في حضرتهم ويرفّهون عن فقيرهم ، لا يألون في ذلك جهداً ، لأنهم يرون في رفعة العلم رفعة الدولة وفي حياته حياة الدين الذي يدعون الناس باسمه وتقوم ممالكهم على أسسه .

ولم يكونوا يكتفون بذلك بل طمعوا أن يكونوا شركاء العلماء في فضيلة العلم فتعلموه صغاراً وظلّوا على اتصال به بعد تمام السن والقيام بأعباء الملك ، يعقدون مجالسه ويحضرون دروسه ويشتركون في مناقشاته ، ويحملون العلماء على التأليف ويثيبونهم على ذلك .

كان ذلك شأن القائمين بأمر الدولة الإخشيدية ، فكافور وهو الذي استبد بجملة عمر الدولة كان محباً للعلماء مكرماً لهم ، مجزلاً لثوبتهم عارفاً بقدرهم حضر جنازة ابن الحداد الفقيه هو وأنوجور الإخشيدى (٢) ، واقترح على محمد بن يوسف الكندي المصري (٣٥٠)

(١) البنية ص ١٠٨ .

(٢) وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٨ .

أن يؤلف كتاباً في « فضائل مصر » فألفه ، وهو على صغر حجمه عظيم الفائدة ، ذكر فيه على سبيل السرد من دخل مصر من الخلفاء والفقهاء والشعراء ، ومن كان بها من العلماء والفقهاء وغيرهم وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

وكان ابن خنزابة (٣٩١) وزير الدولة الإخشيدية ، عالماً فاضلاً حدث عن محمد بن هرون الحضرمي وطبقته من البغداديين وغيرهم . وكان يذكر أنه سمع من عبد الله ابن محمد البغوي مجلساً ولم يكن عنده فكان يقول : من جاءني به أغنيته . وقد قصده الأفاضل من البلدان الشاسعة يطلبون عليه العلم ويروون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مع اشتغاله بالوزارة يدرس الحديث بمصر . وقد وجد مع مشاغله الكثيرة بالوزارة زمناً ألف فيه مسنداً ، وله غيره تأليف في أسماء الرجال والأنساب وغير ذلك (١) .

راجت العلوم بمصر وكثرت الرحلة منها إلى العراق للحصول كما فعل ابن ولاد (٢٣٢) تلميذ الزجاج البصري ببغداد وكان حظياً عنده ، فكان يقول لكل من قدم عليه من مصر لي عندكم تلميذ من صفته كذا وكذا (٢) . وكذلك قصده أبو جعفر النحاس (٣٣٨) ببغداد وأخذ عن الزجاج والأخفش الأصغر والمبرد ونفطويه ، وعاد فانتفع به المصريون وحبب إليهم الأخذ عنه (٣) وكذلك رحل إلى مصر كثير من فضلاء العلماء ، ولا شك أن الدوافع لهذه الرحلة كثيرة منها ما بمصر من أفاضل العلماء الذين يحرص كل متعلم على الأخذ عنهم خصوصاً في علوم الدين ، ومنها ما يجد هؤلاء القادمون إلى مصر من ترحيب بهم ورعاية لقدرهم وإدراك للخير عليهم .

قدمها على بن الحسين المسعودي المؤرخ الكبير فرضيها مقاماً له إلى أن مات بها سنة ٣٤٥ (٤) . وقدمها المحدث عن بن عمر الدارقطني (٣٥٨) الذي انفرد بالإمامة في علم الحديث في عصره ، ولم ينازعه في ذلك أحد نظرائه ، قصدها حين علم أن أبا الفضل جعفر بن الفرات عازم على تأليف مسنده فحضر إليه ليساعده عليه ، وأقام عنده مدة فبالغ أبو الفضل في إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئاً كثيراً ، وحصل له بسببه مال جزيل . (٥) .

-
- (١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١١ .
 - (٢) البنية ص ١٦٩ .
 - (٣) البنية ص ١٥٧ .
 - (٤) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣١٥ .
 - (٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣١ .

ونشأ بمصر من العلماء كثيرون يخطئهم العد وكان منهم غير من ذكرنا عبد الرحمن ابن أبي الحسن الصديقي (٣٤٧) وقد خلف أثرين جليلين في التاريخ أحدهما وهو الأكبر يختص بالمصريين الناشئين بمصر ، والثاني وهو صغير يشتمل على ذكر الغرباء الواردين عليها وقد ذيلهما الحصري ، وقد فقدنا هذه الآثار .

ومنهم الكندي المذكور سابقاً وقد خلف كتباً : « تسمية ولاية مصر » و « أخبار قضاة مصر » وهما مطبوعان ، و « فضائل مصر » وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، وقد سبق أن ألفه بإشارة كافور ، ولكنه جعله مختصراً مقتصرأ على سرد الأسماء وباليته أطال وفصل حتى كنا اليوم نحصل على ثروة عظيمة من رجال مصر أصليين وطارئین ، لأننا نقرأ هذا الكتاب فنجد به أسماء لا نهتدى إلى معرفة شيء عنها في الكتب الأخرى التي بين أيدينا فيفوتنا بذلك علم كثير .

ونحن ننقل لك نموذجاً من هذا الكتاب لتقف على مدى اختصاره وإدماجه .

قطعة من كتاب فضائل مصر المحروسة :

« أخبرنا محمد بن يوسف الكندي قال : هذا الكتاب أمر بجمعه وحض على تأليفه الأستاذ أبو المسك كافور . ومنه :

وأما من دخلها من الفقهاء وغيرهم فالشعبي الشافعي وحفص الفرد وإبراهيم بن أدهم ومنصور بن عمار المتكلم . ودخلها من الخلفاء معاوية ومروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ومروان بن محمد والسفاح والمنصور والمأمون والمعتصم والوائق .

ودخلها من الشعراء نصيب وجميل بثينة وكثير عزة وابن قيس الرقيات والأحوص وأبو ذؤيب ومعل الطائي وأبو نواس ودعبل بن علي والغيداق ويزيد ، وأبو صعصعة وأبو حجلة وابن جرار وغيرهم .

وأما من كان بها من العلماء منهم يزيد بن حبيب والليث بن سعد وله مذهب منفرد به وعبد الله بن وهب وعبد الله بن لهيعة وأشهب وابن القاسم وعبد الله بن الحكم وأسد بن موسى ومحمد بن عبد الحكم والمزني وربيع المؤذن وأحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي ولكل واحد منهم من الكتب المصنفة ما يعجز عن نظائرها سائر أهل الدنيا .

ومنهم سعيد بن عفير ويحيى بن عثمان وابن فريد ومحمد بن يوسف الكندي والميسري وابن أبي خثيمة وكل واحد منهم قد فاق أهل عصره وبرز عليهم في الفقه والعلم والأخبار وأيام الناس والافتنان في سائر العلوم .

ويحسن الرجوع إلى الكتاب ذاته ليتحقق المطلع عليه من قولنا أن به أعلاماً كثيرة لا نعرف عن مسمياتها شيئاً .

تراجم بعض العلماء

— ابن الحداد الفقيه الشافعي

هو محمد بن أحمد بن جعفر كان مجتهداً في مذهبه له فيه وجه . ولد يوم وفاة المزي وسرع من النسائي ولزمه ومن ابن أبي الدنيا والقرطبي وغيرهم .

كان مفتناً في العلوم تولى بمصر القضاء والتدريس وكانت الملوك والرايا تكرمه وتعظمه وتقصد في الفتاوى والحوادث . وكان يقال في زمانه : عجائب الدنيا ثلاث ، غضب الجلال ونظافة السماء والرد على ابن الحداد . (١)

قال الأسنوي عنه : به افتخرت مصر على سائر الأمصار وكاثرت بعلمه بجرها بل جميع البحار ، إليه غاية التحقيق ونهاية التدقيق وله الإمامة في علوم كثيرة خصوصاً الفقه . ومؤلفاته تدل عليه .

قال عن مؤلفاته : صنف كتاب الباهر في الفقه في مائة جزء كتاب جامع الفقه وكتاب أدب القضاء في أربعين جزءاً ، وكتاب الفروع والمولدات وهو مشهور اعتنى الأئمة بشرحه (٢) وكان منصرفاً في علوم كثيرة من علوم القرآن والشعر أيام العرب والنحو واللغة .

عاش ثمانين سنة وحج في آخر عمره فمرض في رجوعه منه ومات يوم دخل الحجاج مصر سنة ٣٤٤ وقيل ٣٤٥ .

ولما مات حضر جنازته الأمير أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد وكافور وجماعة من أعيان البلد (٣) والحداد نسبة إلى أحد أجداده كان يعمل الحديد وبيعه .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٨ .

(٢) شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٨ .

٢ — عبد الرحمن الصّدّيق

هو أبو سعيد عبد الرحمن بن أبي الحسن بن أحمد بن أبي موسى يونس بن عبد الأعلى الصّدّيق المؤرخ المصري الخبير بأحوال الناس المطلع على تواريخهم ، جمع لمصر تاريخين أحدهما وهو الكبير يختص بالمصريين ، والآخر وهو الصغير يشتمل على ذكر الغرباء الواردين على مصر (١) وهو حفيد يونس بن عبد الأعلى صاحب الشافعي رضى الله عنه والناقل لأقواله في مصر كما مر بك .

مات أبو سعيد وله ست وستون سنة وقد تلقى عن أحمد بن حماد زغبة ، وكان أقدم شيوخه (٢) وكان أبو سعيد إلى جانب معرفته بالتاريخ محمداً ثقة حافظاً وثبتاً يقظاً ، ولما مات رثاه أبو عيسى الخولاني الملقب بالخشاب المصري بقوله :

بثت علمك تصنيفاً وتقريباً وعدت بعد لذيذ العيش مندوباً
أبا سعيد وما نألوك أن نشرت عنك الدواوين تصديقاً وتصويباً
مازلت تلهج بالتاريخ تكتبه حتى رأيناك في التاريخ مكتوباً
والصدّيق نسبة إلى الصدف بن سهل وهي قبيلة كبيرة من حمير نزلت بمصر (٣) .
توفي سنة ٣٤٧ ومولده ووفاته بالفسطاط .

٣ — ابن ولاد

هو أحمد بن محمد بن الوليد بن محمد ويعرف بابن ولاد .
أصله من البصرة انتقل جده إلى مصر وهو نحوي ابن نحوي وكان نحوي مصر وفاضلها : خرج إلى البصرة وسمع من أبي إسحاق الزجاج وطبقته .
وكان الزجاج يفضلّه ويقدمه على أبي جعفر النحاس وكانا جميعاً تلميذيه وكان الزجاج لا يزال يثنى عليه عند من يقدم بغداد من المصريين ويقول لهم : لي عندكم تلميذ من شأنه وحاله كذا وكذا ، فيقال له أبو جعفر النحاس فيقول : بل هو أبو العباس بن ولاد .
رجع ابن ولاد إلى مصر فجعل يفيد أهلها تدريجاً وتأليفاً إلى أن مات ، وكان له

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٣) ابن خلكان بالبيان السابق .

سماح كثير وكان يقول : (ديوان رؤية رواية لى عن أبى عن جدى) (١)
ومع كونه تلميذ أبى إسحاق الزجاج كان أبو إسحاق يسأله عن مسائل فيستنبط لها
أجوبة يستفيدها أبو إسحاق منه . (٢)
كان أبو العباس قد قرأ كتاب سيبويه على أستاذه الزجاج فأثقنه ودقق في فهمه ثم
ألف كتاب الانتصار لسيبويه من المبرد . وله أيضاً كتاب المقصور والمدود على حروف
المعجم ، وكان قد أملى كتاباً في معاني القرآن فتوفى ولم يخرج منه إلا بعض سورة البقرة .
وكان هو وأبو جعفر النحاس متعاصرين فجمع بينهما بعض ملوك مصر وأمرهما
بالمناظرة أمامه فقال ابن النحاس لابن ولاد كيف تبنى مثال أفعلكوت من رमित فقال
ابن ولاد أقول أرميت فخطأه أبو جعفر وقال ليس في الكلالم العرب أفعلكوت
ولا افعليت . فقال أبو العباس إنما سألتني أن أمثل لك بناء ففعلت . وكان أبو
جعفر إنما تغفله بذلك (٣) .
قال الزبيدي : ولقد أحسن أبو العباس في قياسه حين قلب الواو ياء . وقد كان أبو
الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش يبنى من الأمثلة مالا مثال له في كلام العرب .
مات ابن ولاد رحمه الله سنة ٣٣٢ .

٤ — المسعودى المؤرخ

على بن الحسين بن على ، من ولد عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله
عليه وسلم . أصله من بغداد وأقام بها زماناً وطاف بالبلدان ثم دخل مصر فأقام بها أكثر
بما أقام ببغداد ثم مات بها .
كان أخبارياً يذكر في كتبه كثيراً من مشاهداته التي كانت تقع له بما طاف به من
البلدان فيقول رأيت أيام كوني بمصر كيت وكيت ومن ذلك ما ذكره في كتابه مروج
الذهب « سألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر من أهل الخبرة عن
تفسير « فرعون » فلم يخبروني عن معنى ذلك (٤) له من الكتب : « مروج الذهب
ومعادن الجواهر » وهو مطبوع في أربعة أجزاء . وكتاب « التنبيه والإشراف » وهو

(١) ، (٢) كتاب أنباء الرواة ج ١ ص ٩٢ .

(٣) معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٤) ج ١ ص ٢١١ .

مطبوع ببلدين ثم طبع بمصر و « أخبار الزمان ومن أباداه الحدثنان » في ثلاثين مجلداً وهو مفقود ما عدا الجزء الأول منه فإنه بقينا و « ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور » و « الرسائل والاستذكار بما مر في سالف الأعصار » و « أخبار الأمم من العرب والعجم » و « خزائن الملوك وسر العالمين » و « المقالات في أصول الديانات » و « البيان في أسماء الأئمة » و « المسائل والعلل في المذاهب والملل » و « الإبانة عن أحوال الديانة » و « سر الحياة » و « الاستبصار في الإمامة » و « السياحة المدنية في السياسة والاجتماع » (١) و « أخبار الخوارج » (٢) وهذه كلها مفقودة .

وله كتب غير هذه ذكرها في مواضع من كتابه مروج الذهب منها كتاب « المبادئ والتركيب » وكتاب « الرؤوس السبعة » و « الزاهي » و « سر الحياة » و « مزارع الأخبار وطرائف الآثار » و « طب النفوس » وكثير غيرها .

مات المسعودي بمصر سنة ٣٤٥ على ما ذكره في شلرات الذهب (٣) سنة ٣٤٦ كما في معجم الأدباء (٤) لياقوت .

٥ — سيبويه المصري

هو محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي المصري ويعرف بابن الجني . كان عارفاً بالنحو والغريب حتى لقب بسيبويه لذلك ، وله معرفة بأخبار الناس والنوادر والأشعار والفقه على مذهب الشافعي ، جالس ابن الحداد الذي مر بك ذكره وتلمذ له وسمع من النسائي والطحاوي .

وكان يتكلم في الزهد وأحوال الصالحين ويظهر الاعتزال ، واجتمعت فيه مزايا الأدباء والفقهاء والصلحاء ، وبلغ من ذلك مبلغاً جالس به الملوك (٥) وكان يتكلم في الأسواق في الاعتزال فيحتمل ذلك منه لما هو عليه (٦) ، ولحقته السوداء واختلط عقله واتصل به ذلك إلى أن مات .

(١) ذكر هذه الكتب كلها كتاب الأعلام للزركلي ج ٢ ص ٦٦٦ .

(٢) انفرد بهذا الكتاب معجم الأدباء ج ١٣ ص ٩٤ .

(٣) ج ٢ ص ٣٧١ .

(٤) ج ١٣ ص ٩٠ .

(٥) معجم الأدباء ج ١٩ ص ٦١ .

(٦) البغية ص ١٠٨ .

قال تعالى في اليتيمة (١) أنه كان يشبه في حضور جوايه وبيان خطابه وحسن عبارته وكثرة درايته بأبى العناء وكان قد تناول البلاذرفعرضت له منه لوثة وكان الناس يتبعونه ويكتبون عنه مايقول . قال يوما للمصريين :

« يا أهل مصر أصحابنا البغداديون أحزم منكم لا يقولون باتخاذ الولد حتى يقتنوا له العقد والعدد فهم أبدا يعزبون ولا يقولون باتخاذ العتار خوفا أن يملكهم شر الجار فهم أبدا يكتزون ولا يقولون بإظهار الغنى في موضع عرفوا فيه بالفقر فهم أبدا يسافرون » ووقف يوما بالجامع وقد أخذت الحلق مأخذها فقال « يا أهل مصر حيطان المقابر أنفع منكم يستند إليها ويستلذى بها من الريح ويستظل من الشمس ، والبهاائم خير منكم تمتطى ظهورها وتؤكل لحومها وتحتذى جلودها »

وكان ابن خنزاية الوزير ربما رفع أنفه تيهها فقال له سيبويه وقد رآه فعل ذلك : يشم الوزير رائحة كريهة فيشم أنفه ٢٢ فأطرق واستعمل النهوض فخرج سيبويه فقال له رجل من أين أقبلت قال من عند هذا الزاهى بنفسه المدل بعرسه ، المستطيل على أبناء جنسه . وكانت زوجة الوزير ابنة الإخشيد .

وأخلى الحمام يوما لمقلح فجاء سيبويه ليدخل فمنع وقيل له الأمير مقلح داخل فقال لا أتى الله مغسوله ، ولا بلغه سوله ، ولا وقاه من العذاب مهوله .

وكان جيد الشعر فمن ذلك قوله (٢)

أعددا أخاك على رداة خطه	واغفر رداة خطه بلودة ضبطه
فالخط ليس يراد من تحسينه	وبيانه إلا إبانة سبطه
فإذا أبان عن المعاني سبطه	كانت ملاحظته زيادة شرطه

ومن شعره أيضا (٣)

من لم يكن يومه الذى هو فيه	أفضل من أمسه ودون غمده
فالمرت خير له وأروح من	حياة سوء تفت في عضده

مات سيبويه المصرى سنة ٣٥٨ هـ .

(١) ج ١ ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) البنية ص ١٠٨ .

الفصل السابع

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الفاطمية

من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٥٦٦ هـ

- نبذة تاريخية
- أسباب انتعاش الأدب
- شأن الشعر
- الكتابة
- العلوم

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الفاطمية

نبذ تاريخي عن الدولة الفاطمية

حكمت هذه الدولة بعد سابقتها الإخشيدية ، انتزعت منها الملك وكانت من قديم تتطلع إلى مصر ، وطالما قدمت جيوشها فاحتلت الإسكندرية ولكن دهاء كافور وحسن استعداده كانا يحولان دون فتح الفاطميين لمصر . فلما مات كافور تهيأت لهم كل أسباب هذا الفتح .

علم المعز لدين الله الفاطمي بما صارت إليه مصر من تفكك الكلمة وتخاذل الأمر فتأهب لفتحها . وقيل إن بعض المصريين كتبوا إليه يطلبون القدوم فجهز قائده جوهرًا في مائة ألف مقاتل (١) . « فدخلوا مصر في شعبان سنة ٣٥٨ وأخذها جوهر بلا ضربة » ولا طعنة . (٢)

وقدم المعز بعد هذا الفتح فجعل مصر مستقره وولى على المغرب من قبله ، وأقام خليفة بمصر ثلاث سنين ثم خلفه ابنه العزيز بالله فدامت له الخلافة إحدى وعشرين سنة . ثم قام بعده الحاكم بأمر الله . وهوسه وسوء تدبيره مشهوران متعارفان ، حتى إنه كان يأمر بالشيء ، ثم ينهى عنه ، ويهدم الكنائس والبيع ثم يبنّيها ويوصل به الحال أن ادعى الألوهية فكان المصريون يقومون على أقدامهم صفوفًا لإعظاما للذكر اسمه في المساجد ثم يخرون سجدا حتى كان يسجد من سجودهم أهل الأسواق . (٣) فلقى

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ص ١٧ .

الناس منه عتلا لم يلقوه من حاكم لمصر منذ الفراعنة (١) وبقيت البلاد تعاني من جنونه كل مهول حتى قتل بعد أن حكم خمسا وعشرين سنة .

ثم ولى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله وكانت فيه رافة بالرقية وعدل وعفة وحلم وتواضع وقد أزال الرسوم التي أقامها الحاكم . ولم يكن يغالى فى تشييعه مغالاة أبيه وجده فاستقام له الأمر وأقام خليفة ست عشرة سنة . ثم ولى المستنصر بالله ، واسمه أبو تميم معد وهو ابن الظاهر . ولى الخلافة ستين سنة . ولا يعلم فى الإسلام أحد طالّت مدته من الخلفاء أو السلاطين مثل المستنصر .

وفى أيامه كان الرفض وسب الصحابة شائعا فاشيا (٢) والسنة والإسلام غريبين ، ولكن بغداد كانت قد ضعفت وعانت من بعض الخارجين على الخلافة فيها المتشيعين للخلافة بمصر ، شدة شديدة فخطب للمستنصر على منابر بغداد أربعين خطبة فى أربعين جمعة (٣) .

وهو الذى غنته مغنية بالبيتين

يابنى العباس صدوا ملك الأمر معد
ملككم كان معاروا والعوارى تسترد

فطرب لذلك ووهب لما أرضا بمصر جائزة (٤)

وولى بعده ابنه أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله فبقى سبع سنين ثم أعقبه ابنه الأمر بأحكام الله وكانت مدته تسعا وعشرين سنة وكان سيئ الرأي جائر السيرة مستهترا مظاهرا باللاهو واللعب وظلم الناس وأخذ أموالهم ، وارتكب المحظورات واستحسن القبائح فقتل وابتهج الناس يقتله .

ثم ولى الحافظ لدين الله ابن المستنصر لأن الأمر لم يعقب ذكرا ، وقد غلبه على الأمر وزيره أحمد بن الأفضل أمير الجيوش ودعا لنفسه على المنابر بلقب ناصر لإمام الحق . وقد بقى الحافظ عشرين سنة . ثم أعقبه ابنه الظاهر وكانت أيامه مضطربة لحدائنه

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣ .

(٣) خطط المقرئ ج ١ ص ٣٥٦ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢ .

سنه واشتغاله باللهو وبقي أربع سنوات ثم جاء بعده الفائز فدام سبع سنين ثم العاضد فدام إحدى عشرة سنة وبه انتهت الخلافة الفاطمية بمصر على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٦ هـ وقد بدأ ضعف الدولة من أيام المستنصر فلم يكن له ولا لمن بعده من الخلافة سوى الاسم لاستيلاء وزراءهم على الأمور وحجرهم عليهم، وقد تلقب هؤلاء الوزراء بألقاب الملوك فكانوا معهم كخلفاء بغداد مع بني بويه.

أسباب انتعاش الأدب في عهد الدولة الفاطمية

تجمعت في هذه الدولة أسباب انتعاش الأدب ، وقد كان قويا فيها قوة لم تعهدها مصر قبل هذه الدولة وذلك للأسباب الآتية .

١ - غنى الدولة :

كانت الدولة الفاطمية غنية مؤتلة الغنى قبل حضورها إلى مصر ، إذ ملكت بلاد المغرب إلى المحيط الأخضر « الإبتلاتى » ودان لها الحاكم المسلم الوالى على جزيرة صقلية وبلغ من وفرة الغنى عند هؤلاء الملوك أن جيش المعز لدين الله الذى كان يقوده جوهر الصقلى ، كان مؤلفا من مائة ألف مقاتل (١) مهدت لهم السبل إلى مصر وحفرت الآبار وأعدت المنازل لراحة الجند فى الطريق ، وخول جوهر أربعة وعشرين ألف ألف دينار ينفق منها على جنده (٢) .

واتفق أن كانت مصر تعالج أمورا شديدة فى أواخر الدولة الإخشيدية ، وكان منها القحط فأرسل إليها سفنا تحمل المئوثة وراقب التجار فى معاملاتهم للناس . (٣)

ولما بلغ المعز فتح مصر أخرج من قصور أبائه بالمهدية من الأموال ما هو حمولة خمسمائة جمل ثم سار بها نحو الديار المصرية . (٤)

وقد عمات الدولة على الإصلاح والتعمير منذ دخولها البلاد ، فإن جوهر - فى المدة التى حكم فيها مصر قبل قدوم المعز - لم يأل جهدا فى ذلك وربما كان أول دأبل على مانقول أنه لم يكذب يدخل مصر حتى أمر ببناء القاهرة . فخطت بالليل .

قال بن خلكان (٥) « ودخل جوهر قبل العصر وطبولة وبنوده بين يديه ، وعليه

(١) و (٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥ .

(٣) خطط المقرئى ج ١ ص ٣٥٢ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧١ .

(٥) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٠ .

ثياب ديباج مثقل وتحتته فرس أصفر وشق مصر ونزل في مناخه « موضع القاهرة اليوم » واختط القاهرة . ولما أصبح المصريون حضروا إلى القائد للهنا ، فوجدوه قد حفر أساس القصر بالليل وكان فيه زورات جاءت غير معتدلة فلم يعجبه ثم قال « حفرت في ساعة سعيدة فلا أغيرها » .

وما زال خلفاء الدولة يعملون في إصلاح أمور الناس بحفر الترع وإقامة الجسور والاعتدال في جباية الخراج حتى شمل مصر رضاء لم يمر بها ، وكذلك عملوا على توسيع رقعة ملكهم فخصعت لهم بلاد النوبة ودخلت في حوزتهم الشام ومكة والمدينة . وكانت ملكة العزيز بالله بن المعز تمتد من المحيط الأخضر « الإلتاني » إلى شرق الحجاز ومن اليمن إلى أعلى القرات . وزاد اتساع الدولة في العراق أيام المستنصر حتى دانت له بغداد وخطب له أربعون خطبة في أربعين جمعة كما ذكرنا سابقا وهرب خليفته العباسي .

وقد أثبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها كما يقول الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرأينا الدولة الفاطمية يزداد بلذخها ويعظم غناها وتفخم مظاهرها في معيشة خلفائها ووزرائهم وقوادهم وما ابتنوا من قصور واقتنوا من نفائس ، وملكوا من عبيد وما خلفوا بعد موتهم من أموال .

ورد في المقرئى « أن الفاطميين رصعوا بالجواهر آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعا كذلك وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس . وصاغوا من الذهب المرصع تماثيل آدمية ووحشية : من الفيلة والزرافات وغيرها .

. وكانت لهم دور بالقاهرة يخزنون فيها أدوات الترف ويسمونهم « الخزائن » فمما أخرجوه من خزانة الجواهر أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (المتوفى سنة ٤٨٧) صندوق فيه سبعة أمداد زمرد ، سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا : إنما تعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجودا . وخلفت رشيدة بنت المعز ما قيمته ألف ألف وسبعمائة ألف دينار . ومن ذلك بيت هارون الرشيد الذى مات فيه بطوس وكان من الخبز الأسود وأهدت السيدة الشريفة ست الملكة أخت الحاكم بأمر الله إلى أخيها هدايا من جملتها ثلاثون فرسا من الذهب بمراكبها منها مركب ، واحد مرصع ومركب من البلور ، وتاج مرصع بنفيس الجواهر وبستان من الفضة مزروع بأنواع الشجر .

ولا موضع للعجب في هذا فقد رواه الثقات بل شهد به بعضهم ، ومنهم ابن الأثير المؤرخ الشهير فقد ذكروا في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التى أقام فيها السلطان صلاح الدين

الخطبة للعباسيين واستولى على ما كان باقيا في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما أصابها من النهب. في فتنة المستنصر وغيره ، قال « وحمل الجميع إلى صلاح الدين ، وكان من كثرتة يخرج عن الإحصاء وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ماتخلو الدنيا من مثله ، فمنه جبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا أنا لا أشك لأني رأيته ووزنته . (١)

كذلك كان من مظاهر الثروة الطائلة ما شهدته التاريخ وبقيت بعض آثاره إلى اليوم من المباني الفخمة التي تنافس فيها ملوك هذه الدولة ، فمن ذلك القصران : الكبير الشرقى وهو منزل سكنى الخليفة ومحل حرمه وموضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وغير ذلك ، والآخر تجاهه ويعرف بالقصر الغربى وكان يشرف على البستان الكافورى ويتحول إليه الخليفة في أيام النيل للترهة على الخليج وعلى ما كان بجانب الخليج من البركة التي يقال لها بطن البقرة ، ومن البستان المعروف بالبغدادية وغيره من البساتين التي كانت تتمصل بأرض اللوق ، وجنان الزهرى .

ومما ابتدعه الفاطميون بمصر بناء المناظر وهى مشرفة يجلس فيها الخليفة في المواسم والأعياد ليشرف منها على الناس ، وبعضها كان بأطراف المدينة وخارجها ، يتخذها الخليفة للترهة ويقضى فيها أوقات مسراته حين يزدهر الربيع ويفيض النيل . وقد كانت كثيرة منها :

منظرة الجامع الأزهر ومنظرة اللؤلؤة ومنظرة الدكة ومنظرة المقس ومنظرة بركة الحبش ومنظرة الأندلس .. وغيرها قال المقرئى في وصف منظرة اللؤلؤة (٢) « وكان للخلفاء الفاطميين منظرة تعرف بقصر اللؤلؤة على الخليج بالقرب من باب القنطرة ، وكان قصرا من أحسن القصور وأعظمها زخرفة وهو أحد متزهات الدنيا المذكورة ، كان يشرف من شرقيه على البستان الكافورى ويطل من غربيه على الخليج وكان غربى الخليج إذ ذاك ليس فيه من المباني شىء ، وإنما كان بساتين عظيمة وبركة تعرف ببطن البقرة ٥١ » .

(١) تاريخ ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٨ .

(٢) ج ١ ص ٤٦٧ .

٢ - فصاحة الفاطميين وجودهم :

كان خلفاء هذه الدولة عربا فيهم السماحة والكرم وكانت لهم أريحية العربي :
يهتز لسماع المديح فيجود بما استطاع .

قالوا عن المعز « كان أدبيا جرادا ممدحا (١) وقالوا عن ركوبه صلاة الجمعة »
ومن حين يركب من القصر إلى الجامع حتى يعود والصدقات تعم الناس » (٢)

وقالوا عن العزيز « كان كريما وفيه رفق بالرعية وكان أدبيا فاضلا (٣) » وقالوا:
عنه أيضا « كان حازما فصيحاً » (٤) وهو الذي قال لعمه حيدرة « يا عم: أحب أن أرى
النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ولهم الخيل واللباس
والضياع والعقار وأن يكون كله من عندي (٥) »

وقالوا عن الظاهر : « كان جوادا ممدحا سمحا حلما محببا إلى الرعية » (٦) . وقد
مر بك ماجاد به المستنصر على الطبالة التي غنته .

وأما ملكاتهم في العربية فقد كانت ملكات قوية ينشئون بها القول نثرا وشعرا
ويزنون بها ما يسمعون فيغلون قيمة جيده ويردون زيف زائفة .

ذكر السيوطي في حسن المحاضرة : أن المعز لدين الله توجه من المغرب في شوال
سنة ٣٦١ هـ فوصل الإسكندرية في شعبان سنة ٣٦٢ وتلقاه أعيان مصر فخطب هناك
خطبة بليغة . (٧)

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : إنه لما لقي أهل الإسكندرية وعظهم وطول حتى
أبكى بعضهم (٨) وقالوا أيضا عن المعز هذا إنه قد أتقن فنونا من الأدب والعلم ومن
شعره قوله (٩) .

لله ما صنعت بنا	تلك المهاجر في المعاجر (١٠)
أمدى وأقصى في	النفوس من الخناجر في الخناجر
ولقد تعبت ببيتكم	تعب المهاجر في الهواجر

- | | |
|-----------------------------|------------------------------|
| (١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٨ | (٢) المصدر السابق ص ١٠٤ |
| (٣) المصدر السابق ١١٣ | (٤) المصدر السابق ص ١٢٤ |
| (٥) المصدر السابق ص ١٢٥ | (٦) المصدر السابق ص ٢٥٤ |
| (٧) ج ٢ ص ١٦ | (٨) ج ٤ ص ٧١ |
| (٩) المصدر السابق ص ٧٩ | (١٠) المعاجر : ضرب من الثياب |

وجاء في يتيمة الدهر عن العزيز نزار . (١) قال « أنشد في أبو حفص بن علي
نفقيه لأبي منصور نزار بن معد أبي تميم ، وقد وافق بعض الأعياد وفاة ابنه وعقد
المآتم عليه :

نحن بنو المصطفى ذوو نحن يجرعها في الحياة كاظمنا
عجيبة في الأنعام محتننا أولنا مبتلى وآخرنا
يفرح هذا الوري بعيدهم طراً وأفراحنا مآتمنا
وفي كتاب وفيات الأعيان (٢) في ترجمة أبي علي تميم بن المعز : وكان تميم
المذكور شاعراً فاضلاً ماهراً ثم روى له :

ما بان عذرى فيه حتى عذرا ومشى الدجى في خده فتحيرا
همت تقباه عقارب صدغه فإستل ناظره عليها خنجرا
والله لولا أن يقال كغيرا وصبا وأن كان التصابي أجدر
لأعدت تفاح الحدود بنفسجا لثماً ، وكافور الترائب عنبرا
روى له أيضا :

وما أم خشف ظل يوما و ليلة ببلقة يبداء ظمان صاديا
تهم فلا تدرى إلى أين تنتهى مولدة حيرى تجوب القيايا
أضر بها حر الهجير فلم تجد لغلتها من بارد الماء شافيا
فلما دنت من خشقها أنعطفت له فألفته ملهوف الجوانح طاويا
بأوجع منى يوم شدت حمولهم ونادى منادى الحى : أن لا تلاقيا
ثم قال : وأشعاره كلها حسنة :

وكما كان خلفاء هذه الدولة بهذه المثابة في الشعر كانوا كذلك يلهجون بالخطب
ويحيدون مواقفها ويحرصون عليها .

ذكروا أن الأمر بأحكام الله كان فيه هوج إذا خطب ، فأراد وزيره أن يمنعه من
الخطبة فاحتال للأمر حتى أنابه عنه فيها فكان يخطب بدله أيام الجمع وهي ثلاث في

(١) النجوم الراهرة ج ١ ص ٢٥٤

(٢) ج ١ ص ٩٧

الشهر جرى على ذلك كل الخلفاء وجعوا الجمعة في كل شهر راحة لا يخطب فيها الخليفة ،
ولكن الأمر عاد فاشتاق إلى الخطابة فكان يخطب في الأعياد (١) .

٣ - استقرار الأحوال :

كانت الدولة مستقرة الأحوال في غالب أيامها فقد أمن الناس في أسرابهم وابتسمت
لهم الحياة فأقبلوا على مباهجتها لا يتركون لذة إلا استوفوها وشربوا كأسها حتى ثملتها .
والمصريون بطبعهم ميالون للسرور متأنقون في أسبابه ، وقد صادف ذلك منهم ميل
الخلفاء الفاطميين إلى تعظيم شأن الدولة وإظهار أبيهتها .

قال المقرئى « وكانت مدة خلافة الظاهر خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياما
وكان مشغوفا باللهو محبا للغناء فتأنق الناس في أيامه بمصر واتخذوا المغنيات والراقصات
وبلغوا من ذلك مبلغا عظيما » .

وإذا ادعى مدع أن أيام هذه الدولة كانت كلها مواسم وأعيادا لم يكن مبالغا فإن
هذه المواسم عندهم كانت كثيرة جدا ذكر منها المقرئى (٢) :

موسم رأس السنة . موسم أول العام . يوم عاشوراء . مولد النبي عليه الصلاة
والسلام . مولد على . مولد الحسن . مولد الحسين . مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنهم .
مولد الخليفة الحاضر . ليلة أول رجب . ليلة نصف رجب . أول شعبان . نصفه .
موسم رمضان . غرة رمضان . سماط رمضان ليلة الختم . موسم عيد الفطر . عيد النحر .
عيد الغدير . كسوة الشتاء . كسوة الصيف . فتح الخليج . يوم النوروز . يوم الغطاس .
يوم الميلاد . خميس العرس . أيام الركوبات .

وفي كثير من هذه المواسم تمتد مواعيد الخليفة يقتحمها الناس لافرق بين عظيم وحقيق
وغنى وفقير ، وفيها يبعث الخليفة إلى أهل بيته وكبار دولته بالألطاف والهدايا وربما
خرج في بعضها بركبه العظيم وأبيهته البالغة .

وهذا بيان ما كانت تحتاج إليه دار الفطرة التي كان من مراسم الدولة أن توزع على
الناس من رجال الدولة وغيرهم في العيد .

(١) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٤

(٢) الخطط ج ١ ص ٤٩٠

دقيق ، ألف حملة . سكر ، سبعمائة قنطار . قلب فستق ، ستة قناطير . قلب لوز . ثمانية قناطير . قلب بندق ، أربعة قناطير . تمر ، أربعمائة أردب . زبيب ثلثمائة أردب . خل ، ثلاثة قناطير . عسل نحل ، خمسة عشر قنطارا . شيرج ، مائة قنطار . خطب ، ألف ومائتا حملة . سمس ، أردبان . آنسون ، أردبان . زيت طيب برسم الوقود ، ثلاثون قنطارا . ماء ورد ، خمسون رطلا . مسك ، خمس نوافج . كافور قديم ، عشرة مثاقيل . زعفران مطحون ، مائة وخمسون درهما .

وكان العمل في الفطرة يبدأ من أول رجب إلى آخر رمضان . وكانت توزع على الأمراء وأرباب الرسومات وعلى طبقات الناس حتى تعم الكبير والصغير والقوى والضعيف .

قالوا : وكان الفراشون لا يزالون يخرجون بالطيافير (الصينيّات) ملأى ويدخلون بها فارغة فيمقدار ما تحمل المائة الأولى تعباً المائة الثانية . لا يفتر ذلك حتى تنتهي التفرقة . وقد كان الجود في خلفاء هذه الدولة طبعاً يرجع إلى كونهم عرباً يرتاحون للمكارم فقد ورد في كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» (١) أن الحاكم بأمر الله اتصل به عن أمين الأمانة أبي عبد الله الحسن بن طاهر الوزان وزيره أنه توقف في تنفيذ توقيعاته بالعتاء فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله كما هو أهله ومستحقه

أصبحت لا أرجو ولا أتق إلا إلهي وله الفضل
جلدي نبي وإمامي أبي وديني الإخلاص والعدل

ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، والمال مال الله ، والخلق عيال الله ، ونحن أمناؤه في الأرض . أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام .

ولقد ساعد على المرح والانطلاق في أسباب اللهو مدة هذه الدولة ما عرف عند خلفائها من رغبة في الترفيه عن الأهالي وكسب مودتهم بكثرة ما يقيمون لهم من المآدب وما يجودون عليهم به من المال في المناسبات المرتبة في الأعياد وغيرها مما كان يطرأ لحينه . كما ذكر وأن الظاهر تصدق بمائة ألف دينار من أجل أنه سقط عن قرسه وسلم (٢)

(١) ص ٢٩

(٢) خطط المقرئ ج ١ ص ٢٥٥

كما أن ولي العهد المستنصر بالله أبا تميم معدا مر من القاهرة إلى مصر وقد زينت له الطرقات فنثر على العامة خمسة آلاف دينار فكان يوما عظيما .

وقد كان شرب الخمر مباحا لا إنكار عليه إلا في شهر رمضان (١) ، فكثرت شربها حتى شربها الناس أمام الخلفاء في المجامع العامة وشربها الخلفاء أنفسهم على تلك الحال .

فقد كان من عادة المستنصر بالله أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة (٢) - وهو بظاهر القاهرة من بحريها وهو موضع نزهة - بهيئة أنه خارج للحج على سبيل اللعب والمجانة . وربما حمل معه الخمر في الروايا بدل الماء يسقيه من معه . أنشده مرة الشريف أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدرة العقيلي في يوم عرفة .

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ولا تضح ضحى إلا بصهباء
أدرك حجيج الندامى قبل نفرهمو إلى منى قصفهم مع كل هيفاء
وعج على مكة الروحاء مبتكرا فطف بها حول ركن العود والناء

قال ابن دحية فخرج من ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاحى وتساق ، حتى أنفاخ بعين شمس في كبكبة من الفساق . فأقام فيها سوق الفسق على ساق .

وفي وصف القاضي الفاضل ليوم النوروز أيام الدولة الفاطمية ، دليل على تلك الإباحة المطلقة التي أفلت فيها المصريون من كل قيد وأطلقوا لطبعهم المرح العنان حتى أتوا بما لا نكاد نسمع مثله اليوم عن أكثر الأمم إباحتها قال : (٣) كان يوم النوروز بمصر في الأيام الماضية من مواسم بطالاتهم ومواقيت ضلالتهم ، فكانت المنكرات ظاهرة والفواحش صريحة . في يومه يتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاحى وترتفع الأصوات وتشرب الخمر والمزرا شربا ظاهرا بينهم في الطرقات ويتراش الناس بالماء والخمر وبالماء ممزوجا بالأفذار . فإن غلط مستور وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمة . فلما فدى نفسه ولما افتضح .

ولقد أعان على ذلك أيضا كثرة المنتزهات التي أعدها خلفاء هذه الدولة حول القاهرة على النيل متصلة بالصحراء وأقاموا لأنفسهم فيها مناظر لتكون مجالسهم أيام

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ٩١

(٢) المرجع السابق ص ٨٩

(٣) المرجع ذاته ص ٩٣

الفيضان وهو موسم الفرح والطرب . على ظهر النيل في السفن المعدة لذلك . وقد عددها لك سابقا . ونسوق لك هنا حديثا مطولا عن إحداها وهي بركة الحبش وليست بخيرها . كانت في ظاهر مدينة القسطاط من قبلها بين الجبل والنيل ومن أحسن ما وصفت به قول عيسى بن موسى أمير مصر وقد خرج إلى الصحراء فرآها فقال لمن معه : أتأملون الذي أرى ؟ قالوا وما الذي يرى الأمير ؟ قال : أرى ميدان رهان وجنان نخل وبستان شجر ومنازل سكنى وذروة جبل وجبانة أموات ونهرا عجاجا وأرض زرع ومراعى ماشية ومرتع خيل وساحل بحر وصائد نهر وقانص وحش وملاح سفينة وحادى إبل ومغارة رمل وسهلا وجبلا . فهذه ثمانية عشر متتراها في أقل من ميل في ميل .

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ؟ وفي أيام النيل تكون أرض مصر أحسن شيء منظرا . ولا سيما متنتها المشهورة ودياراتها المطروقة كالجيزة والحيزة وبركة الحبش وما جرى مجراها من المواضع التي يطرقها أهل الخلاعة والقصف ، ويتناولها ذوو الآداب والظرف .

وقد اتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش وافترشنا من زهرها أحسن بساط واستظللنا من دوحها بأوفى رواق فظللنا نتعاطى من زجاجات الأقداح شموسا في خلع بدور ، وجسوم نار في غلائل نور إلى أن جرى ذهب الأصيل على بلين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء فقال بعضهم (هو أمية نفسه) .

والأفق بين الضياء والغيش	لله يومى ببركة الحبش
كصارم في يمين مرتعش	والنيل تحت الرياح مضطرب
دبج بالنور عطفها ووشى	ونحن في روضة مفوفة
فنحن من نسجها على فرش	قد نسجتها يد الغمام لنا
من سورة اليم غير متعش	فعاطنى الراح إن تاركها
دعاه داعى الهوى فلم يطش	وأثقل الناس كلهم رجل
فهي أشنى لشدة العطش	فأسقى بالكبار مترعة

وقال أيضا :

وباكر الراح بالبانات والنخب	علل فؤادك باللذات والطرب
وشيا من النور حاكته يد السحب	أما ترى البركة الغناء الابسة
قد أبرز القطر منها كل محتجب	وأصبحت من جديد الروض في حلل

من سوسن شرق بالطل محجره
فانظر إلى العود يحكى خلد محتشم
والنيل من ذهب يطفو على ورق
ورب يوم نقعنا فيه غلطنا
شمس من الراح حيانا بها قمر
أرخی ذؤابته واهتز منعطفها
فاطرب فدونكها فاشرب فقد بعث
على التصابي دواعي اللهو والطرب

ومن متنتهاهم العجيبة البديعة بناء بناء الأمر بأحكام الله بجزيرة القسطنطينية
«الروضة» وسماء «الهودج» وكان ذلك لحيوبته البدوية . قال القرطبي في تاريخه .

تذاكر الناس في حديث البدوية وابن مياح من بني عمها وما يتعلق بذكر الأمر
بأحكام الله حتى صارت أحاديثهم في هذا الشأن كأحاديث البطال ، وألف ليلة وليلة ،
وجملة هذا الحديث . أن الأمر كان قد بلى بعشق الجوارى البدويات وصارت له عيون
بالبوادي قبله أن جارية بالصعيد شاعرة من أكل العرب وأظرفهم . فيقال أنه تزيا بزى
بداة الأعراب وكان يجول في الأحياء حتى انتهى إلى حيها وبات في ضائفة هناك ونحى
حتى عاينها فما ملك صبره ورجع إلى مقر ملكه وأرسل إلى أهلها يخطبها فترجها .
فلما وصلت إليه صعب عليها مفارقة ما اعتادته وأجبت أن تسرح طرفها في الفضاء
ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة فبنى لها البناء المشهور بالهودج وكان غريب الشكل
على شط النيل ولسنا بحاجة إلى أن نكرر لك ما تقرر في نفسك منذ قديم من أن غنى
الدولة وروعة مظاهرها وجليل آثارها . من مبان ومغارس نبات دعائم قوية لصرح
الأدب .

فهل غرد طائر إلا على فنن مورك ، فوق جدول جار ، أمام حب منشور ، في
دعة وأمن لمن ختل الخائل المترىض ؟ !

وهذا ولا شك حال هذه الدولة في أكثر أيامها . يسر شامل وترفيه من الخلفاء
على الناس ومرح في المواسم العامة وقصور شائخة وأبهة للدولة ترويح الناظرين ،
ومنتزهات يروح إليها الناس في أيام الربيع وحين يفيض النيل ، وتبتسم حوله الرياض .
فيرتعون ويلعبون ويقصفون ويلهون ومعهم وسائل السرور من قيان وزقاق خمر
وندماء .

فهناك تحت سماء هذه الحرية وبين هذه المناظر البهيجة ، وبنشوة هذه الحمر ،
وعلى أصوات هذه القيان تنطلق الشاعرية من مكانها في النفوس . فتسمع المرقص والمطرب
ويسجل التاريخ لدولة الأدب مفاخر تبقى على الأيام . فتكون عوضا عن هذا الماضي
الحجيد لمن كان يتشوف إلى مناظره الجميلة ويتسمع لألحانه الشجية .

شأن الشعر في عهد الدولة الفاطمية

كانت أسباب نهضة الشعر متوافرة في هذه الدولة ، ذكرنا لك كثيرا منها فيما مضى ونزيد عليها هنا ، أن الدولة الفاطمية كانت تنافس الدولة العباسية فجعلت تبارى خلفاءها في البذل للشعراء وتقريب مجيدينهم ، حتى يكونوا عنوان عظمته ومظهر فخامتها .

وإن في حديث ابن هانيء مع المعز لدين الله لدلالة واضحة على ما نقول . روى صاحب كتاب « هبة الأيام » في باب نواذر الصلات والجوائز ، قال (١) : ويروى أن المعز العلوي سمع شعر أبي القاسم الحسن بن هانيء المغربي الأندلسي ، فأنفذ إليه وأوفده إليه ، رغبة في الأدب ، ومنافسة على شرف الرتب ، فلما اتصل بخدمته مدحه بقصائد يتضمنها ديوانه ، فكان كلما مدحه بقصيدة أعطاه ضيعة . فلما خرج مملوكه جوهر وأخذ مصر خرج المعز ، فلما جلس للهناء دخل عليه ابن هانيء واستأذن في الإيراد فأذن له فأنشده قصيدة يقول فيها :

ألا إنما الأيام أيامك التي لك الشطر من نعماتها ولنا الشطر

فالتفت إلى وزيره وقال . اكتب له بالإسكندرية وسلموها إليه بمن فيها فهي شطر وقد خصصناه به وأول هذه القصيدة :

يقول بنو العباس : هل فتحت مصر	فقل لبني العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جوهر	تطالع البشري ويقدمه النصر
وقد أوفدت مصر إليه وفودها	وزيد إلى المعقود من جسر جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت	وأيديكم منها ومن غيرها صفر
فلا تكثروا ذكر الزمان الذي خلا	فذلك عصر قد تقضى وذا عصر

ونحن لم نورد هذه القصيدة على ما أوردناها عليه إلا لئلا يدرك من نتائج تستنبط منها بأيسر محاولة . فمنها .

(١) ص ٢٨ ، ٢٩ .

١ - استدراج الخليفة المعز للشاعر حتى أقدمه عليه واختص به بعد أن سمع شعره وعرف قدره ، فعلم أنه جدير بأن يضمن به .

٢ - توسع الخليفة في الجود حتى لم تكن عطاياه دارهم أو دنائير ، وإنما كانت ضياعا لكل قصيدة ضيعة . وكانت الإسكندرية إحدى هبات الخليفة للشاعر وهذا أمر عجيبي لم يسمع به قبل المعز ولا بعده .

٣ - أن الشاعر عرف ما تنطوى عليه نفس الخليفة من المنافسة للعباسيين ومناهضتهم ومحاولة استئلال ملكهم منهم فجعل شطرا كبيرا من القصيدة في تساؤل العباسيين عن فتح مصر ورده عليهم بأن الأمر قد قضى إلى آخر ماتراه في الأبيات . ويضاف إلى هذه القصة أن المعز لما بلغه موت بن هانيء في طريقه إلى مصر حزن عليه حزنا شديدا وقال . كنا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك . وهذه التهمة توضح بجلالة ما ذكرناه من أمر المنافسة للعباسيين وقد اشتهرت هذه الدولة ببذل المال ونثره على الجماعات المحتشدة لها في اجتماعاتها أو في طرقها إلى نزلها ، فيلتقط الناس ما استطاعوا ويضيع في الرمل ما زاد على ذلك ، حتى يأتي المغربون فيغربوا الرمل لاستخراج ما به من دنائير . ولم يذكر مؤرخ أنم كانوا يجودون بما دونها . وإن دولة هذه شهرتها مع ما عرفت لها من حسن تقدير للأدب وولع بالشعر يقوله خلفاؤها وأمرؤها ، لابد أن يكون ما نال الشعراء منها كثيرا جدا يفوق الحصر .

ولقد بلغ من عنايتها بالشعراء أن حصرت أسماءهم ورتبتهم على أقدارهم وجعلت لهم نظاما في الإنشاد يتعاقبون عليه في المواسم والأعياد .

ذكر المقرئ عند الكلام على فتح الخليج . أنه بعد جلوس الخليفة يستأذن صاحب الباب لحضور الشعراء للخدمة ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ولهم منازل على أقدارهم . الواحد يتقدم الآخر بخطوة في الإنشاد وهو أمر معروف عند مستخدم يقال له النائب .

وأدل من ذلك على عنايتها بالشعراء أنهم لم يكونوا معروفين عند الدولة بأسمائهم وأقدارهم فحسب بل عرفتهم كذلك بصورهم ، فكان في منظره بركة الحبش (وقد تقدم وصفها طاقات وعليها صور الشعراء . كل شاعر واسمه واسم بلده . وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر الشاعر في المرح ، وعلى الجانب الآخر رف ظريف مذهب ، فإذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار

أمر أن توضع على كل رف صرة محتومة فيها خمسون ديناراً وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده (١) أما كثرة الشعراء في هذه الدولة فهذا أمر مستتبع لهذه العناية التي فصلنا مناحيها . والتاريخ إلى جانب ذلك يؤيد هذا الاستنباط ، فيذكر ابن خلكان في ترجمة الوزير ابن كلثوم أنه غداة دفن زار الشعراء قبره فرتاه مائة شاعر وأجيزوا جميعاً .

كما ذكر صاحب المغرب في كلامه عن أبي العباس أحمد بن مفرج أن الشعراء كانوا قد أمروا في مدة الحافظ أن يختصروا ما ينشدونه في موقف الإمامة فقال أبو العباس :
أمرتنا أن نصوغ المدح مختصراً لم لا أمرت ندى كفيفك يختصر
والله لا بد أن تجرى سوابقنا حتى يبين لها في مدحك الأثر
فأمروا بالعودة إلى ما كانوا عليه وجعل لهم الرسم يوماً كاملاً . (٢)

ولعل هذه القصة أبان على سابقها في الدلالة على كثرة الشعراء في هذه الدولة ووفرة ما ينتجون من الشعر ، فإن الأمر لا يصدر بالاختصار إلا من أثر الملل الذي يصيب الخليفة من جراء الاستماع إلى منشديه . ثم لما سمح لهم أن يقولوا على سجيته لم يكنهم إلا يوم كامل يتعاقبون فيه على الإنشاد حتى يفرغوا جميعاً .
ولعل أبان من هذا في الدلالة على كثرة الشعر ونفاق سوقه في هذه الدولة أن تعلم أن أحد وزرائها وهو الصالح بن زريك وزير القائد ثم العاضد آخر خلفائها ، كان له شعراء اختصوا به وبأل بيته حتى عقد لهم صاحب خريدة القصر « بابا خاصاً » وكذلك فعل غيره من المؤلفين .

وكان الصالح هذا يغري بين الشعراء ويحرض بعضهم على بعض ، ليستفيد هو من وراء ذلك مدحاً قد جوده ذلك التحريش الذي كان الوزير يصطنعه وقد ذكر صاحب الخريدة أيضاً أن الشاعر أبا محمد الحسن بن علي بن الزبير قال : يعرض بشاعر من شعراء الصالح يعرف باسم « المفيد » :

فيا شاعراً قد قال ألف قصيدة ولكنها من بيته ليس تسبح
ليهنك (لاهيت) أن قصائدي مع النجم تسرى أو مع الريح تسرح

(١) خطط المقرئ ج ١ ص ٤٨٦ إلى ٤٨٧ .

(٢) في المجلد الثاني من كتاب المغرب - وقد ذكرها أيضاً العماد الأصفهاني في الخريدة

جزء ٢ ص ٦٤ .

وأنه قال مرة يخاطب الصالح :

يأيها الملك الذى أوصافه غرر تجلت لازمان الأسفح
لاتطمع الشعراء فى فإنى لو شئت لم أجبن ولم أنخس
إن لم أكن ملء العيون فإنى بالقول يابن الصيد ملء المسبح

وقد رأينا من أثار هذه الكثرة أن المؤلفين فى أدب هذه الدولة كانوا يقسمون الشعراء طوائف ويميزونهم أصنافا ؛ فشعراء العلماء ، وشعراء الكتاب ، وشعراء الشرفاء ، وشعراء الوزراء ، ثم شعراء طارئون على البلاد ، وآخرون نشثوا فيها ، وغيرهم رحاوا عنها .

ترى هذه الفصول فى كتاب خريدة القصر وكتاب المغرب فى حلى المغرب وغيرهما .

شعراء الدولة الفاطمية

هم كثير ، وقد رأينا أن نحصى فى كتابنا هذا من استطعنا أن نثبت مصرته (أصالة أو طروءا) ثم معاصرتة لهذه الدولة .

ونعتقد أننا بذلك قد قدمنا للباحث خلاصة تنقيب كثير ومراجعة متعبة .

وسنقدم لك بيانا نبدؤه بذكر كل من وقفنا له على تاريخ وفاة ثم نعقب ذلك بذكر من لم نعرف لهم تاريخ وفاة مضبوط ودلت القرائن على كونهم من شعراء مصر فى أيام هذه الدولة .

وهذا هو البيان :

١ - على بن النعمان القيروانى ، (- ٣٧٤) ، كان قاضى القضاة للفاطميين بمصر وشاعرا مجودا (١) .

٢ - الحسن بن على بن وكيع التنيسى ، (- ٣٩٣) ، مصرى . ذكر فى الوفيات ج ١ ص ١٣٧ .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٣

- ٣ - أحمد بن محمد الأنطاكي « أبو الرقعمق » ، (٣٩٩) ، طارىء ذكر في الوفيات ج ١ ص ٤٠ .
- ٤ - الحسن بن محمد السهواجي ، (٤٠٠) ، مصرى ذكر في الفوات ج ١ ص ١٧٠
- ٥ - صريع الدلاء ، (٤١٢) ، طارىء ذكر في الوفيات ج ١ ص ٣٥٩ .
- ٦ - ابن الضيف حيدرة بن عبد الظاهر ، (٥١٠) ، من دعاة الفاطميين ذكر في لخريدة .
- ٧ - علي بن عباد الإسكندري ، (٥٢٥) ، مدح ابن الأفضل وقتل معه لما قتله الحافظ (١) .
- ٨ - أبو الصلت أمية ، (٥٢٨) ، طارىء ذكر في الشنرات ح ٤ ص ٨٣ .
- ٩ - ظافر الحداد ، (٥٢٩) ، اسكندري ذكر في الشنرات ج ٤ ص ٩١ (٢) .
- ١٠ - محمد بن علي الهاشمي (أبو الغمر) ، (٥٤٤) ، إسنائي قال في الخريدة « أشعر أهل زمانه » (٣) .
- ١١ - محمود بن قادوس ، (٥٥١) ، دمياطي كاتب الإنشاء بمصر وشيخ القاضي الفاضل (٤) .
- ١٢ - الجليس بن الحباب ، (٥٦١) ، مصرى سمى بالجليس لأنه كان يجالس صاحب مصر (٥)
- ١٣ - المهذب بن الزبير ، (٥٦١) ، مصرى مدح الصالح بن رزيك (٦)
- ١٤ - الرشيد بن الزبير ، (٥٦٣) ، « أسواني » ذكر في الشنرات ج ٤ ص ١٩٧ .
- ١٥ - يوسف بن محمد (ابن الخلال) ، (٥٦٦) ، مصرى صاحب ديوان الإنشاء أيام الحافظ (٧) .

-
- (١) المرجع السابق ص ٣٢٤ .
 - (٢) وكذلك في الوفيات ج ١ ص ٢٤١ .
 - (٣) وذكره السيوطي في حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٤ .
 - (٤) المرجع السابق .
 - (٥) المرجع السابق .
 - (٦) وذكره بن خلكان في ترجمة أخيه الرشيد بن الزبير ج ١ ص ٥١ .
 - (٧) الوفيات ج ٢ ص ٤٠٧

- ١٦ - نصر الله (ابن قلاؤس) ، (٥٦٧) ، مصرى إسكندرى ذكر فى الوفيات
ج ٢ ص ١٥٦ .
- ١٧ - عمارة اليمنى ، (٥٦٩) ، طارىء دخل مصر مرتين فى سفارة ودخلها فى
المرّة الثانية سنة ٦٥٢ فبقى بها إلى أن شق .
- ١٨ - محمد بن القاسم بن عاصم ، مصرى شاعر الحاكم ذكر فى حسن المحاضرة
ج ١ ص ٣٢٤ .
- ١٩ - مسعود الدولة ، مقدم الشعراء أيام ابن الأفضل بن أمير الجيوش (١) .
- ٢٠ - أبو المظفر بن أحمد المصرى ، كان يعيش سنة ٥٧٦ ولقيه صاحب الخريدة بمصر
- ٢١ - شرف الدولة يحيى بن حسن ، ملحق صانع بن رزيك . ذكره فى الخريدة .
- ٢٢ - طلائع الآمرى ، كان قريبا من الأفضل ذكره فى الخريدة .
- ٢٣ - الناجى المصرى ، هجا الأفضل . ذكره فى الخريدة .
- ٢٤ - النجيب بن وزير المصرى ، كان يعيش سنة ٥٧٣ ولقيه صاحب الخريدة .
- ٢٥ - أبو العباس أحمد بن مفرج ، من شعراء الحفاظ ذكره فى الخريدة .
- ٢٦ - حسن بن زبيد أو على بن الزبد ، دس عليه هجاء الحسن بن الحفاظ وسعى
به فقتل .
- ٢٧ - على بن محمد بن النصر ، من شعراء زمن الأفضل ذكره فى الخريدة .
- ٢٨ - على بن البرقى ، من شعراء زمن الأفضل ذكره فى الخريدة .
- ٢٩ - عبد الله بن الطباخ ، من شعراء زمن الأفضل ذكره فى الخريدة .
- ٣٠ - محمود بن ناصر الإسكندراني ، من شعراء زمن الأفضل ذكره فى الخريدة .
- ٣١ - مروان بن عثمان اللكى ، من شعراء زمن الأفضل ذكره فى الخريدة .
- ٣٢ - أبو الفتيان مفضل العسقلاني ، قدم مصر ذكره فى الخريدة .
- ٣٣ - هبة الله بن الصياد ، من شعراء الصلاح بن رزيك .
- ٣٤ - الحسين بن الجمل الأصغر ، من أهل الفسطاط من شعراء المائة الرابعة (٢) .
- ٣٥ - على بن الحسين العقيلي ، متأخر عن المائة الرابعة (٣) .

(١) الخريدة .

(٢) المغرب ج ٤ ص ١٠٢

(٣) المرجع السابق ص ٥٢

- ٣٦ — علم الملك (النحاس المصرى) ، كان يعيش سنة ٥٦١ ذكره فى الخريدة .
 ٣٧ — على بن أحمد بن الزبير ، ابن الرشيد بن الزبير .
 ٣٨ — ناصر الدين بن شاوور ، وزير العاضد . ذكره فى المغرب ج ٤ ص ٩٢ .
 ٣٩ — أبو الفتح البينى ، تجاوز المائة الرابعة . ذكره فى المغرب ج ٤ ص ١٠٣ .
 ٤٠ — الماهر المحجوب المصرى ، مصرى من شعراء المائة الخامسة رحل عن مصر قال عنه الباخرزى : ما طرأ علينا أعذب منه عذبة لسان ولا أبرع منه براعة بيان .
 ٤١ — القاسم بن أحمد الرسى ، هجا ابن كلس مخاطبا المعز (١) .
 ٤٢ — أبو القاسم عبد الغفار ، شاعر الحاكم مدح الفضل بن صالح قائده (٢) .

تراجم بعض الشعراء فى الدولة الفاطمية

١ — تميم بن مسعد :

ملاحظة : لم نذكره مع الشعراء فى البيان السابق ونبدأ به الحديث عن الشعراء لأنه فى مكانته الشعرية جدير أن يكون حامل لواء الشعر فى هذا العصر . هو أبو على تميم ابن مسعد ، وهو ابن صاحب مصر المعز لدين الله ، لم يل الخلافة . كما يقول ابن خلكان لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز فوليها بعد أبيه (٣) .
 كان شاعرا مجيدا وصفه ابن فضل الله العمري فقال « تشبه بابن عمه ابن المعتز وتثبت بذيله وهو إن لم يزاحمه لم يقع دون مطاره » .
 شعره كثير (٤) . أورد له الثعالبي فى اليتيمة مقطوعات دلت على علو كعبه فى البلاغة وتغلغل فكره فى الخيال وقد طرق فى شعره أغلب أغراض الشعر ولكن يغلب عليه الغزل وهو أليق الأغراض بأمير مترف كتميم . وقد رق غزله حتى كان منه ما يتغنى به كقوله :

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧١

(٢) اليتيمة ١ ص ٣٨٩ والوفيات ج ٢ ص ٣٣٦ .

(٣) الوفيات ج ١ ص ٩٧

(٤) طبعت دار الكتب المصرية ديوانه

والبين صعب على الأحباب موقعه
قواه عن حمل مافيه وأضله
من شت شمل الهوى بالبين يجمعه
عريق بحر يرى الشاطى فيمنعه

قالت وقد نالها للبين أوجعه
لجعل يدبك على قلبي فقد ضعفت
واعطف على المطايا ساعة فعسى
كأننى يوم ولت حسرة وأسى

ومن غزله قوله :

آخرها مشبه لأولاهـ
وألم الشمس من عيـها
بأكؤس السكر وهى عيناها
بآخر اللحظ فى فمى فاهـ
وليس ألا الحدود مأواها
ونقلها الأثم حين أسقاها
بدار حزوى ما كان أحلاها
والعز من فجرها ومغداها
أو صعبت خطة حويناها

وليلة بنتها على طرب
أقبل البرق من ترائبها
سقتنى الراح وهى خـداها
إذا أدارت مزاجها جعلت
فيها قهوة معتقة
حبا بها الثغر حين تمزج لى
لله أيامنا التى سلفت
لذ نجتنى اللهو من أصائلها
إن عرضت لذة ملكناها

وقوله :

سقيانى فلسـت أصغى لعذلـ ليس إلا تعالـة النفس شغلى
أطـيع الرسول فى ضد ما أهـوى كأنى أتـمت رأى وعقلى
عللانى بها فقد أقبل الـليلـ كلون الصدود من بعد وصل
وانجلى الغيم بعد ما أضـحـك الروض بكاء السحاب فيه يوبـل
عن هلال كـصبـولـحـان نضـار فى سماء كأنها جام ذبـل(١)
وقد ظهرت فى شعره نـفـثـات من الشكوى لأن الخلافة لم تكن من نصيبه ، ولم ترض
همته أن يحرم منها . فمما يشتم منه رائحة الشكوى قوله :

أما الذى لا يملك الأمن غيره ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلما لإعلانها عندى أشد وألم
وبى كل ماتشكو العيون أقله وإن كنت دائما أتبسم

(١) الذبل : عظام دواب بحرية تتخذ منها الأساور والأمشاط والخواتم : عن الديوان .

ومن قوله يذكر نيل مصر :

أما ترى الرعد بكى فاشتكى والبرق قد أومض فاستضحكا
فاشرب على غيم كصبغ الدجا أضحك وجه الأرض لما بكى
وانظر لماء النيل في مده كأنه صُندل أو مُسكا

مات سنة ٣٦٨ هـ .

٢ — أبو الرقعمق

هو أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المتبوز بأبي الرقعمق ، من شعراء الشام قصد مصر وأقام بها زماناً طويلاً ، حتى إن معظم شعره كان في ملوكها ورؤسائها . مدح المعز ، وولده العزيز ، والحاكم ، وجوهر القائد ، والوزير يعقوب بن كلس وغيرهم من أعيان مصر . (١)

ويرجح ابن خلكان أنه مات بمصر (٢)

أما شعره فتغلب عليه الفكاهة التي كان طبع الرجل قد اشتهر بها منذ أيامه بالشام حتى قيل : هو بالشام كابن حجاج بالعراق . وابن حجاج هذا هو الذي يقال في شأنه وشأن ابن سكرة : إن زمانا جاد بابن سكرة وابن حجاج لسخي جدا .

قال عنه الثعالبي (٣) هو نادرة الزمان وجملة الإحسان ومن تصرف بالشعر الجزل . في أنواع الجدل والهزل وأحرز قصب الفضل ، وهو أحد المداح المجيدين والفضلاء المحسنين .

وقد كان يخلط جد شعره بالهزل فيجعل الهزل مفتتح قصائده ويخاطب المحبوبة خطاباً مضحكاً ويذكر أنه تعرض من أجلها لصفع القفا وعانى في سبيل هجرها تنف السبال وهكذا مستبيحاً في ذلك إستعمال الألفاظ المولدة حتى يحسن وقع فكاهته في نفوس سامعيه . فإذا هو انتقل إلى المدح أو غرضه الجدى من القصيدة رأيته شاعراً مجيداً حصيف الرأي ، غائصاً على المعاني الكريمة . ملتصقاً للألفاظ الجزلة . وتستطيع أن تمثل ذلك في قصيدته .

كفى ملاملك يا ذات الملامات فما أريد بديلاً بالرقاعات

(٢) القيمة ج ١ ص ٢٦٩

(٤) الوفيات ج ١ ص ٥٢٦ .

(١) الوفيات ج ١ ص ٤١

(٣) الوفيات ج ١ ص ٤١

كأننى وجنود الصفع تتبعنى
قسيس دبر تلا زماره سحراً
وقد مجت وعلمت المحجون فما
وذاك أنى رأيت العقل مطرحا
أفدى الذين نأوا والدار دائية
كم قد نثفت سبلى فى صدورهم
وقد تلوت مزامير الرطانات
على القسوس بترجيع ورنات
أدعى بشيء سوى رب المجانات
فجئت أهل زمانى بالحماقات
وشتتوا بالحقا شمل المودات
والصد أصعب من نثف السبالات

ومنها فى المدح

لونيل بالجد فى العلياء منزلة
يرمى الخطوب برأى يستضاء به
لنال بالجد أعنان السموات
إذا دجا الرأى من أهل البصيرات
فلست تلقاه إلا عند عارفة
أو واقفا فى صدور السمهرات

وقد يسفل فى فكاكته فيذكر العورات ويطل ويجعل ذلك مفتتح قصائده فى مدح
العظماء ، وكأنهم كانوا يتقبلون ذلك منه لما اشتهر به من دعاية .

قال بمدح الأمير تيمما (اليتيمة ج ١ ص ٢٨٢)

كل يوم أنبا من شيسى فى أمر عجاب
ليس يخلىنى من هم وحزن واكتئاب
لم يدع لى ذهابا إلا رميا به بذهاب
هل يجير لى منه أهل ودى وصيحابى
أنبا مبللى من بلايا ه بنصب وعذاب
أنا لولاه لألفيت قليل الإضطراب

ولما طال انتراحي من بلادى واغترابى

ومنها فى مدح الأمير

وباحسان تميم عدت من عظم مصابى
بالأمير السيد الما جد والقرم اللباب
والإمام المنعم المفضل والبحر العباب
والذى لا فرق بين جداه والسحاب

مات سنة ٣٩٩ هـ

٣ - أبو الصلت أمية

هو ابن عبد العزيز الأندلسي الداني . كان فاضلا في علوم الآداب ، صنف كتابا سماه الخديقة على أسلوب يتيمة الدهر ورسالة (الأسطربلاب) والوجيز في علم الهيئة والأدوية المفردة وديوان شعر وكل ذلك مفقود . وتقويم الذهن في المنطق وهو مطبوع (١) وكان كما ترى من تأليفه عارفاً بعلوم الحكمة فكان يقال له « الأديب الحكيم »

انتقل من الأندلس وسكن الإسكندرية ، ومن شعره قوله

إذا كان أصلي من تراب فكُلها - بلادى وكل العالمين أقاربى
ولا بد لي أن أسأل العيس حاجة - تشق على شم الذرا والغوارب

وقوله

وقائلة ما بال مثلك خاملاً - أنت ضعيف الرأي أم أنت عاجز
فقلت لها ذنبي إلى القوم أننى - لما لم يحوزوه من الجسد حائر
وما فاتنى شيء سوى الحظ وحده - وأما المعالي فهى عندى غرائب

وقوله

ومنهف شركت محاسن وجهه - ما بجه في الكأس من إبريقه
ففعالها من مقلتيه ، ولونهم - من وجنتيه ، وطعمها من ريقه

قال ابن خلكان (٢) : وشعره كثير جيد

انتقل في آخر أيامه إلى المهديّة ومات بها سنة ٥٢٩ .

٤ - ظافر الحداد

هو أبو منصور ظافر بن القاسم الجذامي الإسكندري المعروف بالحداد كان من الشعراء المحيدين وله ديوان شعر مخطوط (٣) وأكثر شعره جيد ، وكان صاحب بديهة .

(١) الأعلام للزركلي ج ١ ص ١٣١

(٢) الوفيات ج ١ ص ٨٠

(٣) الأعلام ج ٢ ص ٤٥٤

ومن شعره قوله

لو كان بالصبر الجميل ملاذه
ما زال جيش الحب يغزو قلبه
لم يبق منه مع الغرام بقية
من كان يرغب في السلامة فليكن
لا تخدعك بالفتور فإنــــه
يأبى الرشأ الذي من طرفه
در يلوح بفيك منه نظامه
وقناة ذاك القدر كيف تقوم
رفقا بجسمك لا يدوب فإننى
هاروت يعجز عن مواقع سحره
تالله ما علقت محاسنك امرأ
أغریت حبك بالقلوب فأذعن
مالي أتيت الحظ من أبوابه
أيك من طمع المنى ، فعزيره

ماسح وإبل دمعته ورذاذه
حتى وهى وتقطعت أفلاذه
إلا رسيس يحتويه جــــذاذه
أبدا من الحديق المراض عياده
نظر يضر بقلبك استــــلــــذاذه
سهم إلى حب القلوب نفاذه
خمر يحول عليه ، من نبتــــذاذه
وسنان ذاك اللحظ ما فولاده
أخشى بأن يجفو عليه لاذه (١)
وهو الإمام فمن ترى أستاذه
إلا وعز على الورى استنقاده
طوعا وقد أودى بها استحواذه
جهدى فدام نفاذه ولــــواذه
كذليله ، وغنيته شحــــذاذه

ومن بدائمه أنه دعى لقطع حلقة خاتم كان قد ضاق على إصبع الأمير سعيد بن ظفر
أيام ولايته بالإسكندرية فلما قطعها أنشد بدنها :

قصر عن أوصافك العالم وكثر النائر والناظم
من يكن البحر له راحة يضيق عن خنصره الخاتم

توفى بمصر سنة ٥٢٩ هـ (٢)

٥ - الرشيد بن الزبير

هو القاضي الرشيد أبو الحسن أحمد بن أبي الحسين .. ابن الزبير الغساني الأسواني ،
أديب متفقه ، عارف بالهندسة والطب والموسيقا والنجوم .

ولد بأسوان وكان أسود غليظ الشفة قصيرا ، مبسوط الأنف كحلقة الزنوج قدم
القاهرة بعد مقتل الظافر وجلس الفائز فتقدم عند أمرائها ووزرائها وأنفذ إلى اليمن
في رسالة فلما بلغها قلد قضاءها وأحكامها ولقب (قاضي قضاة اليمن وداعى دعاة الزمن) .

(١) جمع لاذة وهى حرير أحمر صينى (٢) الوفيات ج ١ ص ٢٤٢ .

سمت نفسه إلى الخلافة فسعى إليها وأجابه قوم فسلموا عليه بها وضربت باسمه نقود نقشها (قل هو الله أحد ، الله الصمد) وعلى الوجه الآخر (الإمام الأجدد أبو الحسن أحمد) فقبض عليه الصالح بن رزيك ، ثم ورد الأمر بإطلاقه فعاش آمناً .

ولما حاول شيركوه اقتحام مصر انضم إليه الرشيد هذا وكتبه فاتصل ذلك بشاور وزير العاضد فطلبه فاختنى بالإسكندرية ، ثم ظفر به شاور فقتله صلباً بعد أن شهر به .

ألف كتاب (جنان الجنان وروضة الأذهان) في أربع مجلدات وهو معدوم و (أمنية الأملعي ومنية المدعي) وهو مقامة مطبوعة و (المقامات) وهو نحو خمسين ورقة على نسق مقامات الحريري ، وديوان شعر نحو مائة ورقة وهما معدومان (١) قال عنه ابن خلكان (٢) : كان مجيداً في الشعر . وروى له قوله .

جلت لدى الرزايا بل جلّت هممي	وهل يضير جلاء الصارم الذكر
غيري غيره عن حسن شيمته	صرف الزمان وما تأني به الغير
لو كانت النار للياقوت محرقة	لكاد يشبهه الياقوت بالحجر
لا تغررن بأطماري وقيمتها	فإنما هي أصداف على درر
ولا تظن خفاء النجم من صغر	فالذنب في ذاك محمول على البصر

وهذا المعنى مأخوذ من قول المعري .

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر
أورد له العماد في الخريدة قوله في الكامل بن شاور .

إذا ما نبت بالحر دار يودهـا	ولم يرتحل عنها فليس بذى حزم
وهبه بها صبا ألم يدر أنـه	سيزعجه عنها الحمام على رغم
ولولا الأجل الكامل المـلك أرقـلت	بي العيس في البيداء والسفن في اليم
ولم تكن الدنيا تضيق على فتي	يرى الموت خيراً من مقام على المضم

وقال في رجل لم يحمّد خلقه

لئن خاب ظني في رجائك بعدما	ظننت بأنّي قد ظفرت بمنصف
فإنك قد قلدتني منك منـة	ملكيت بها شكرى لدى كل موقف
لأنك قد حذرتني كل صاحب	وأعلمتني أن ليس في الأرض من نبي

(٢) الوفيات ج ١ ص ٥١ .

(١) الأعلام للزركلي ج ١ ص ٥٤

وقال فيه أبو الفتح محمود بن قادوس هاجيا :

ياشبه لقمان بلا حكمة وخاسرا في العلم لا راسخا
سلخت أشعار الورى كلهما فصرت تدعى الأسود السالخا

ومدح وهو باليمن على بن حاتم الهمداني فقال :

لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا فلست أنال القحط في أرض قحطان
ومد كفلت لي مأرب بمأربي فلست على أسوان يوما بأسوان
وإن جهلت حق زعانف خندف فقد عرفت فضلي غطارف همدان

فكتب الداعي باليمن بهذه الأبيات إلى صاحب مصر ، فكانت سبب الغضب عليه
فتبض وجرد من ماله فلما رجع إلى مصر قتله شاور للسبب الذي مر بك في أول
الترجمة . قتل سنة ٥٦٣ .

٦ - ابن قلاقس

هو أبو الفتح نصر الله بن عبد الله اللخمي الإسكندري الملقب بالقاضي الأعز ،
قال عنه ابن خلكان كان شاعرا مجيدا وفاضلا نبیلا وكان كثير الشعر ، كثير الحركات
في السفر ، دخل اليمن وامتدح بمدينة عدن ، يأسر ابن أبي الندى وزير صاحب اليمن
فأحسن إليه وأجزل صلته ، وفارقه وقد أثرى منه ، فركب البحر فانكسر المركب
وغرق جميع ما كان معه بجزيرة الناموس بالقرب من دهلك فعاد إليه وهو عريان
ودخل عليه فأنشده القصيدة التي أولها

صدرنا وقد نادى السماح بنا ردوا فعدنا إلى مغناك والعود أحمد

قال ابن خلكان (١) - وهذه القصيدة من القصائد المختارة وأو لم يكن فيها سوى
هذا البيت لكفاه . ثم عاد فأنشده قصيدة يصف فيها غرقه وأولها . -

سافر إذا حاولت قندرا سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى طيبا ويخبث ما استقرا

(١) الوفيات ج ٢ ص ١٥٧ . لم ننقل حكم بن خلكان على شعره مع كون ديوانه مطبوعاً
وقد اطلعنا عليه إلا لندل على شهادة القدماء له بالإجادة ونأهيك بآبن خلكان إذا حكم على شعر
فإنه نافذ الرأى صائب الحكم .

وينقلة الدرر النفيسة بدلت بالبحر نحرا
يا راويا عن ياسر خيرا ولم يعرفه خيرا
إقرا بعزة وجهه صحف المني إن كنت تقرا
والثم بنان يمينه وقل . السلام عليك بحرا
وغلظت في تشبهه بالبحر ، فاللهم غفرا
أولست نلت هذا غنى جما ونلت بذلك فقرا
وعهدت هذا لم يزل مدأ وذاك يعود جزرا

قال ابن خلكان (١) . وهذه القصيدة طويلة أحسن فيها كل الإحسان وله في جارية
سوداء وهو معنى غريب

رب سوداء وهى بيضاء معنى نافس المسك عندها الكافور
مثل حب العيون يحسبه النا من سوادا وإنما هو نور
ودخل صقلية قبل اليمن فاتصل بالقائد أبى القاسم بن الحجر فأحسن إليه
فصنف له كتابا سماه « الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم » ، ولما ترك صقلية
وكان الزمن شتاء ردته الريح إليها فكتب إلى أبى القاسم يقول :

منع الشتاء من الوصل ل مع الرسول إلى ديارى
فأعادنى وعلى اختيا رى جاء من غير اختيار
ولربما وقع الحمى ر وكان من غرض المكارى
وكان وهو بالإسكندرية قد اتصل بالحافظ السلفى أحد أئمة الحديث وكان قد
قدم الإسكندرية فقصده الناس من الأماكن البعيدة وأجله صاحب مصر فبنى له العادل
أبو الحسن على بن السلار وزير الظاهر العبيدى مدرسة بالثغر سنة ٥٤٦ هـ وفوضها إليه.

وكان الحافظ كثيراً ما يثنى على ابن قلافس ويتقاضاه مدحه فأكثر فيه من غرر
المدائح على قدر ما انتفع من صحبته ، وقد قصد بن قلافس القاضى الفاضل ومدحه
بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان وأولها :

ما ضر ذلك الريم ألا يريم* لو كان يرثى لسليم سليم
وما على من وصله جنّة ألا أرى من صده فى جحيم

(١) المرجع السابق .

أعيد ماهمت به روضه
 رقيم خد نام عن ساهـ
 وكيف لا يصرم ظبي وقد
 سمعت في النسبة ظبي الصريم
 ومنها في وصف المحبوب

يارب خمر فمه كأسها
 أتبت رشفا قبلا عندها
 فاقتر إما عن أقاح السربا
 أو كان قد قبل مستحسنها
 لم أقتنع من شربها بالشميم
 وقلت هذا زمزم والحطيم
 يضحك أودر العقود النظم
 ما قبل الفاضل عبد الرحيم
 توفي ابن قلاقس سنة ٥٦٧ هـ .

وقلاقس . جمع قلقاس وهو النبات المعروف ، والخمي نسبة إلى قبيلة لحم وكان منها .

ملاحظة : —

عد بعض المؤلفين ، ابن قلاقس من رجال الدولة الأيوبية ، ولعل ذلك لأنه رأى في ترجمته أنه مدح القاضي الفاضل ، وذلك لا يستلزم أن يكون من شعراء هذه الدولة لأن القاضي الفاضل إنما خدمها بعد خدمته للدولة الفاطمية قبلها .
 ويكفي في نفي هذا الزعم أن يكون ابن قلاقس قدماء سنة ٥٦٧ هـ وهي نهاية الدولة الفاطمية .

وصف الشعر في الدولة الفاطمية

قد مر بك مقطوعات من هذا الشعر ، وإن شئت أشبعت نهمتك بترويد الطرف في يتيمة الدهر ودمية العصر وخريدة القصر والمغرب في حلى المغرب ففيها مقدار شاف من هذا الشعر .

والتأمل في ذلك الشعر يرى فيه طابع النفس المصرية ، وهو خفة الروح ، وظرف الفكاهة ، والرفيف إلى اللهو ، والأنس بالدعابة ، كما يرى فيه لين اللفظ وسهولته ، بل هلهلته في بعض الأحيان ، فالجفاوة غير مألوفة فيه لأنها في الكلام بمثابة العبوسة في

الوجوه ، وقلما عرف المصري إلا بالطلاقة والسياحة والاحتفال بالبادرة والتقدير للنادرة.

ومن أجل ذلك ما راج « أبو الرقعق » عند المصريين حتى ألماه احتفاؤهم عن العودة إلى بلاده ، وكذلك رأينا ابن الصياد قد ولع بكبر أنف الجليس بن الحباب فقال فيه ألف مقطوعة كما ذكروا .

هذا شأن الشعر في صياغته ، فأما في معانيه فالممدح يغلب عليه غلبته في كل شعر عرفتته العربية منذ جعل وسيلة للكسب ، وقد زاده في هذه الدولة ما علمت من رغبة خلفائها وأمرائها ووزرائها في الممدح مع الإغداق على الشعراء ، ولا ثواب عند الشاعر إلا أن يبنى على العوارف ، ويتمدح بما يصادف من ظل وارف :

ويلى هذا الغرض في هذه الدولة ، الغزل الذى ساعد عليه عند المصريين رقة طباعهم وقلق نفوسهم إلى اللهو وكثرة ما مر بهم من رخاء وإباحة للخمر واللهو في مدة هذه الدولة .

وكان وصف الطبيعة يساقى الغزل لأن كليهما لا يحلو إلا مع صاحبه ، فالحيبان إنما يتناجيان على بساط الخضرة وفي ظل الأغصان المتهدلة .

وإذا وصف المصري الطبيعة فليس مقلداً ولا متخيلاً وإنما هو يستملى ذلك الجمال الذى يتضمنه النيل في تسلسله والبساتين في تنسيقها البديع الذى كان موضع العناية من خلفاء هذه الدولة .

وإذا أردنا الموازنة بين الشام ومصر في هذه الآونة وجدناهما تلتقيان في وصف الطبيعة والغزل ؛ إذ كانت الشام غنية بمحاسنها والغزل ينشأ حيث الطبيعة الجميلة والظلال الوارفة .

لكن مصر والشام تختلفان وتفرقان في خفة الروح وليونة التعبير وقد خصصناهما بمصر .

وإذا أثبتنا لشعراء الشام الجزالة ، فيما كان لها من عروبة أهلها نسباً وقربهم من مطارح البداوة العربية مسكنا .

وللثعالبي في هذا المقام كلام لا بأس بإيراد ما يناسب موضوعنا منه . قال (١) « لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام ... والسبب في تبرز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قريتهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم لإياهم » .

وقد عرف الناس ميزة الرقة للطبع المصري والخفة لما تتحرك به ألسنتهم من الشعر ، فقال ابن سعيد المغربي نزيل هذه البلاد أيام الدولة الأيوبية : —

أسكان مصر ، جاور النيل أرضكم فأكسبكم تلك الخلاوة في الشعر
وكان بتلك الأرض سحر وما بقي سوى أثر يبدو على النظم والنثر

الكتاب في عهد الدولة الفاطمية

ذكرنا في حديثنا عن الدولة الطولونية أن مصر لم تعرف ديوان الإنشاء إلا في أيامها وقد بينا هناك خطر هذا الديوان ومثله صاحب من رجال الدولة ، وأنه لقب بالوزير وأن اختياره كان يشغل بال صاحب الأمر بمصر لأنه بكتابته إلى الموالين والمعادين يمثل أبهة المملكة ويعرب عن فخامتها ويستطيع أن يجذب إليها النافر وينزل الأعصم بما يبنى عليه كتبه من رأى حصيف وعبرة بليغة .

وإذا كانت الدولتان الطولونية والإخشيدية قد احتاجتا إلى ديوان الإنشاء وإلى رئيسه فإن الدولة الفاطمية إليها أحوج ، فهي تلك الدولة الواسعة الأطراف المجاهرة بالعداوة والمعارضة للدولة العباسية ، فهي تحتاج إلى إحكام أمرها وتدير شئونها حاجة ظاهرة ، ثم هي إذا أمنت هذا الجانب فإن العظمة التي حرصت على الظهور بها في أعيادها وجميع مراسمها تقضى عليها أن يكون لها هذا المظهر الذي هو لميلاتها من الدول .

عنيت تلك الدولة بأمر ديوان الإنشاء عناية كبيرة واتبعت فيه نظاماً دقيقاً ومهدت السبل لبريده إلى كل النواحي ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إنها كانت أول من اتخذ الحمام بمصر للتراسل .

قال القلقشندي في صبح الأعشى (١) :

« أول ما نشأ الحمام المسمى بالحمام الهدى (يريد الزاجل) ببلاد مصر والشام ، وأول من اعتنى به ونقله من الموصل الشهيد نور الدين زنكي صاحب الشام سنة ٥٦٥ هـ . حافظ عليه الفاطميون بمصر وبالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنسابه وألفت فيه الكتب . وبلغ ثمن الطائر الفاره منه ٧٠٠ دينار وبيع طائر جاء من خليج القسطنطينية بألف دينار ، وكانت بيضة الطائر الفاره منه بعشرين ديناراً » .

(١) ج ٢ ص ٨٧ .

اعتنى الفاطميون بديوان الإنشاء وكتابه ، وكان متوليه عندهم يلقب بالوزير وقد يتولى مع ديوان الإنشاء بقية أمور الدولة فيلقب برئيس الرؤساء . ذكر ابن منجب الصيرفي صاحب كتاب « الإشارة إلى من نال الوزارة » من هؤلاء رئيس الرؤساء عمار ابن محمد قال . وكان له ديوان الإنشاء ، وصدقة بن يوسف الفلاحى قال عنه . كان موصوفاً بالبراعة فى صروب الكتابة وقد عظم شأنه إلى أن صار يتولى جميع أمور الدولة أيام خلافة الظاهر فلا يخرج شئ عما يرسمه ولا يفعل الوزير إلا ما يحده له ويمثله .

وكانت العناية بالوزراء فى هذه الدولة عظيمة تقدم لهم الهدايا أول ما يتولون وتجري عليهم الجرايات ماداموا يعملون للدولة ، ذكر الصيرفى أن الرئيس فهد بن إبراهيم لما تولى الرياسة حمل إليه هدية هى عشرة آلاف دينار وسقط فيه حلة . ودرج فيه جوهر وطيب ، وخمسون رأساً من الخيل والبغال . وكان الفاطميون فى حرصهم على الاستفادة من كل نابغ فى فنه لا يفرقون فى اختيارهم للوزير (للخراج أو الإنشاء) بين مسلم وذمى ، فقد كان يعقوب بن كلس وزير المعز ثم العزيز ، ووزراء العزيز وهم الرئيس فهد بن إبراهيم والشافى زركة بن نسطورس ، وقسيم الخلافة صاعد بن عيسى بن نسطورس كلهم نصارى . وكان صدقة بن يوسف يهودياً ثم أسلم .

* * *

وذكر صاحب صبح الأعشى تحت عنوان (ما كان عليه الأمر من ابتداء الدولة الفاطمية إلى انقراضها ، الوزراء الذين ولوا ديوان الإنشاء خاصة فى عهد هذه الدولة قال (١) « ولما ولى الفاطميون الديار المصرية صرفوا مزيد عنايتهم الديوان الإنشاء وكتابه فارتفع بهم قدره وشاع فى الآفاق ذكره وولى ديوان الإنشاء عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم مابين مسلم وذمى .

فكتب للعزيز بالله بن المعز ، أبو المنصور بن سوردين النصرانى ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات فى أيامه فكتب للحاكم القاضى أيوطاهر البهزكى ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر ، وكتب للمستنصر القاضى ولى الدين بن خيران ، ثم ولى الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة وأبو سعيد العميدى . وكتب للأمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أبى أسامة الحلبى إلى أن توفى سنة ٥٢٢ فكتب بعده ولده الأجل

(١) ج ١ ص ٩٦ .

أبو المكارم إلى أن توفي في أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج
الرياسة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجب الميصرى المعروف بابن الصيرفى والقاضى
كافى الكفاة محمود بن القاضى الموفق أسعد بن قادوس ، وابن أبي الدم اليهودى ، ثم
كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدم ذكره ، القاضى الموفق بن الحلال
أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد ، وبه تخرج القاضى البيسانى . ثم شرك العاضد مع
الموفق بن الحلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الدين محمود بن الأنصارى ، ثم كتب
القاضى الفاضل بين يدي الموفق بن الحلال قرب وفاته سنة ٥٦٦ فى وزارة الملك الناصر
صلاح الدين يوسف بن أيوب . وكتب من لإنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن
العاضد آخر خلفائهم » .

رسوم كتابتهم فى البدء والختام

كانت المكاتبات الصادرة عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية نحو المكاتبات
الصادرة عن خلفاء بنى العباس . ذكر صاحب الأعشى (١) أن هذه المكاتبات عند
الفاطميين كانت تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم ثم يقال « من عبد الله ووليه فلان إلى فلان »
ويذكر نعتة إن كان الإمام قد شرفه بنعت ثم يقال بعد ذلك (سلام عليك فإن أمير
المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد
المرسلين وعلى آله والأئمة المهديين ويسلم تسليما) ثم يقال « أما بعد » وتقص المعانى
معنى معنى ، فإن كان الموضوع أمرا أمر به الإمام قيل بعد انقضاء الكلام « وأمر أمير
المؤمنين بكذا » ثم يقال « فاعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسومه واعمل بحسبه » ثم يقال
للمخاطبين من الطبقة العالية (والسلام عليك ورحمة الله) ويفرد بالسلام من دون هذه
الطبقة .

وهذه المكاتبة عامة للناس جميعا فى الأمور السلطانية التى تنشأ فيها الكتب من
الدواوين ولا يخاطب فيها أحد عن الخليفة إلا بالكاف .

وكان الابتداء بقولهم « من عبد الله ووليه فلان » .. فى أول دولتهم إلى أواسطها ثم
صار الابتداء فى أواخر دولتهم بخطبة مفتوحة بالحمد لله .

(١) ج ٦ ص ٤٣٢ وما بعدها .

أما المكاتبات الصادرة إلى الخلفاء الفاطميين من ولايتهم وغيرهم فرسمها أن يقال بعد البسملة . « أفضل صلوات الله وبركاته وأشرف رضوانه ونحياته على مولانا وسيدنا الإمام الفلاني أمير المؤمنين وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين » إن كان له أبناء وإلا قيل مكان الأكرمين « المنتظرين » ثم يقال « كتب عبد الموفق النبوي، خلد الله ملكه ، من مقر خدمته ناحية كذا ، وأمور ماغدى (١) به ورد إلى نظرة منتظمة بسعادة مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى جمده والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وسلم تسليما » ثم يقال العبد ينهى كذا وكذا ويحتم الكتاب إن كان مبنيا على المطالعة ببعض الأخبار يقول الكاتب « أنهى العبد ذلك ليستقر علمه بالموقف الأشرف إن شاء الله تعالى » وإن كان مبنيا على الاستثمار في بعض الأحوال قيل في هذا الموضع « ولمولانا أمير المؤمنين الرأي العالى في ذلك إن شاء الله تعالى » .

وكانت إلى جانب مذكرنا ، رسوم أخرى تتبع فيما يكتبه الخليفة إلى خاص كالوزير أو نحوه ، وما كان يكتب به الإخوان بعضهم إلى بعض ولا نرى خيرا كثيرا في تفصيل هذه الرسوم فهي قيود التزامها أصحابها لا يلزمنا اتباعها ولا نرى فيها كبير نفع ولا ناحية دلالة بلاغية .

نكتفي بما ذكرنا هنا . أما نماذج الكتابة التي تتمثل فيها هذه الصور فسنوردها فيما بعد تحت عنوان « نماذج من كتابة الإنشاء » فإذا عنيت بتطبيق الذي قلناه هنا وجدته متمثلا فيما ننقل من تلك الرسائل .

وأخيرا نقول: إنه بلغ من عنايتهم بالكتابة أن أقاموا في ديوان الإنشاء عالما نحويا أديبا يتصفح الرسائل قبل خروجها من الديوان لتلافي ما لعله قد يقع بها من غلطة أو تعبير ناب ، وقد كان القائم بذلك يوما ما هو النحوى اللائح الصبب وأحد الأعلام في فنون العربية طاهر بن أحمد المعروف بابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٥٤ (٢) .

أغراض كتابية خاصة بمصر ، أو بالفاطميين وحدهم
جرت العادة أن يكتب السلطان عماله وولائه بسلامة المواسم الإسلامية كلها ،

(١) بمعنى ضم إليه ونيط به

(٢) الوفيات ج ١ ص ٢٣٥ .

لأنها يشاهدها جميع أصناف الرعايا وذوى الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة والقلوب المتعدية ، وكل مريض لفتنة ينتهز فرصتها ، فلا تكاد هذه المشاهد تخلو من ثورة أو حدوث أحداث منكورة ، فإذا أنعم الله بالسلامة منها وجب التحدث بنعمته والشكر لمشيئته وأن يكتب الرئيس الأعلى بسلامة ما قبله إلى عماله لتسكن الكافة إلى ذلك ويشتر كوا في حمد الله تعالى عليه .

اعتاد الخلفاء ببغداد أن ير دبووا في عيذى الفطر والأضحى فكانوا يكتبون بالسلامة في ركوبهما . والخلفاء الفاطميون بمصر كانوا ير كيون في هذين العيدين وغيرهما مثل غرة السنة وأول رمضان والجمع الأولى والثانية والثالثة منه وكذلك في عيد الغدير وهو من أعياد الشيعة ، كما كانوا ير كيون لفتح الخليج وغير ذلك من الأعياد التى استحدثوها بمصر .

فكانوا يكتبون على أثر هذه الأعياد يبشرون بالسلامة فيها ، كما يكتبون بالبشارة بوفاء النيل ، وكل هذه الأعياد ماعدا عيذى الفطر والأضحى خاصة بمصر فما كان يصدر فى شأنها من كتابة فإلما هو خاص بمصر لم يكن له شبيه فيما كتب فى غير مصر من البلاد .

وأنت ترى أن بعض هذه الأعياد لم تكن مصر تعرفه قبل الفاطميين ولا سمع ببقائه بعد زوال مملكتهم كعيد يوم الغدير فهو من الأعياد الخاصة بالفاطميين لأنهم هم الذين روجوا المذهب الشيعى بمصر وكانت سنبة قبلهم وبعدهم . أما البشارة بوفاء النيل والسلامة فى الركوب لفتح الخليج فقد قال فى صبح الأعشى عن ذلك (١) .

وهذه المكاتبه من خصائص الديار المصرية ، لا يشاركها فيها غيرها من الممالك . ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلم جرا يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولادة الأعمال اهتماما بشأن النيل وإظهارا للسرور بوفائه الذى يترتب عليه الخصب المؤدى إلى العمارة وقوام المملكة وانتظام أمر الرعية، وقد كان للخلفاء الفاطميين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبير العناية ووافر الاهتمام وكانت عاداتهم فى ذلك أنهم يكتبون بالبشارة بوفاء للنيل كتباً مفردة وبفتح الخليج كتباً مفردة .

نماذج من الكتابة الإنشائية في عهد الفاطميين

١ - نسخة ما كتب به العزيز بالله الفاطمي إلى عامله بمصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرمطي بالشام سنة ٣٦٧ (١) من عبد الله ووليه نزار أبي المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين إلى حسين بن القاسم ، سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين محمد إليك الله الذي لا إله الا هو ويسأله أن يصلي على جده محمد نبيه ورسوله صلى الله عليه وعلى الأئمة من عترته الأبرار الطاهرين المطهرين وسلم تسليما .

أما بعد فالحمد لله الملك العظيم العليم الخليم ذى الطول الكريم والمن الجسيم والعز المديد والجمال الشديد ولى الحق ونصيره ومحق الباطل ومبيده المتكفل بالنصر والتمكين والتأييد والتحصين لأوليائه المتقين وخلفائه المصطفين الذابين عن دينه والقائمين بحقه والدالين على توحيده ، الحاكم بإعلاء كلمتهم وإفلاح حججهم وظهورهم على أعدائهم المشاقين له ، الضالين عن سبيله الملحددين فى آياته الجاحدين نعمه ، المنزل رجزه وقوارع بأسه على من عصاه فحاده وصد عنه فناده ، القاضى بالعواقب الحسنى والفوز والنعماء لمن أسلم وجهه له وتوكل عليه فى أمره وفوض إليه حكمه . وبعد كثير من الحمد يقول أيضا حامدا :

والحمد لله الذى حبا أمير المؤمنين وانتخبه لخلافته وجعله صفيه من خلقه وأمينه على عبادته وهاديا إلى سبيله قائما بحقه مقسطا فى أرضه ذابا عن دينه محييا ما أماته أهل الكفر من أحكامه وأيده بنصره وأمدّه بقوته وتكفل له بالنجح فى مسعاه والظفر بمبتغاه ونيل طلبته فيما أمه وارثاه ، وحكم بكبت كل عدو له وخزيهم وإذلالهم ومحقهم وخلطهم وإيهان كيدهم ، وضرب الدلة عليهم حيث كانوا وأين كانوا فلا ينق ناعق منهم بضلال أو يسعى بفسق وخيال أو يدفع إلى إقتراء على الله أو مروق عن دينه أو إذهاب ما فرضه الله عز وجل من طاعة إلا اصطلمه وأخزاه وأكبه لوجهه وأرداه وقضى عليه بالشقوة فى دنياه وعذاب الآخرة فى آخراه .
ثم مازال يحمد ويحمد حتى انتهى إلى قوله :

ولأنه لما يستغرق الحمد والشكر ويفوت الإحصاء والنشر أمر اللعين الركى وهربه من بين يدى أمير المؤمنين ، وأنه لم يلو على شىء إلى أن بلغ طبرية ، الذى تدخله من

الفرق واستولى عليه من القاق ولما سكن قلبه من الرعب وحشاه من الرهب بقصد أمير المؤمنين إياه وإغذاذه السير في طلبه ومواصلته لأسباب ومتابعته الإداب ووصف أمير المؤمنين ماعليه عزمه في تتبعه واقتفاء أثره والحلول بعقوته حيث قصد وحل ، لثقتة بالله ربه وتوكله عليه وتفويضه إليه . ولم يزل جل وعز يولى أمير المؤمنين بعد نقوذ كتابه من عز يؤيده وظفر بؤكده ونصريوطه وآلاء يحددها ومواهب يتابعها وعدو يذله ومناو يقله وشارد يصرفه إلى طاعته ، ومارق يعيده إلى موالاته ، إلى أن تم له من ذلك ما واصل به حمد الله عليه وتميماً له ماتوا فر شكره له جل وعز فيه .

وكان مع ذلك مواصلاً إلى التعيين الإعذار ومتابعا الإنذار ومخبراً له ما يعثر ومستدعيه إلى ما يختار ويؤثر ومنيا له ما يمني به مثله من العفو عنه وتغمد ماجرى منه والإقالة لعثرته والتجاوز عن هفوته والإمتنان عليه بما رغب فيه من تقليده ناحية من نواحي الشام وإدراك الأرزاق عليه وعلى رجاله وأصحابه وإيثاره بالفضل الجليل واختصاصه بالطول الجزيل ، فما نجح في الفاسق وعدو لا نجح فيه وعظ ولا وفق إلى قبول حظ ، ولا أصغى إلى قبول تذكرة ولا أناب إلى تبصرة ، وما زال جادا في توكه ، متمادياً على تمهكه ، جارياً على ضلالتة سالكا سبيل عمايته مترددا في غوايته ، متلدا في جهالته ، مقدرًا أن بأس الله لا يرهقه وسطوته لا تلحقه ، ورجزه لا يمحقه ، وذنوبه لا ترهقه وأجرامه لا توبقه .

ثم يقول في وصف زحف الجنود بعد أن أعدهم أمير المؤمنين للقتال :

فمشوا على ما أمروا وساروا على ماسيروا ، فعندما دنوا من عدو الله أصابوه للجلاد معدا ، وفي الحاربة مجدا ، واستخاروا الله عز وجل وتدانوا للتلاق والأخذ بالنواصي والأعتاق ، وقامت الحرب على ساق وتجرع منها أمر مذاق فاستطار شرارها وتأججت نارها وارتفع دخانها وعظم شأنها ، والتزم الأقران بالأقران واشتد الضرب والطعان إلى أن مشى أمير المؤمنين بنفسه وجمهور موكبه متوكلا على الله مانا إليه بجده محمد صلى الله عليه وسلم ، متوسلا بمتقدم وعده وسالف لإنعامه عنده وقصد اللعين غير متلوم عن مصادمته ولا معرج عن ملاحمته ، فقويت نفوس أوليائه وعبيده ومن اشتملت عليه عساكره المنصورة وجيوشه المظفرة بما تبينوه من إقدامه وشاهدوه من اعتزاه وحملوا على الفاسق وأجزابه وقذف الله في قلوبهم الرعب فترزلت أقدامهم وأرعشت أيديهم ونخبت أفئدتهم وولوا الدبر منهزمين ومنحوا ظهورهم مولين .

وما زال يصف انهمزام الأعداء وقتل المقتول منهم وأسر أسيرهم إلى أن قال :
 فالحمد لله ثم الحمد لله ثم الحمد لله رب العالمين على إعطائه الهني وحبائه السني
 وما أيد أمير المؤمنين وأعز الدين وقمع المشركين إذ كان الفاسق اللعين التركي الغوي
 ألميين ثلة من ثلثهم وركنا من أركانهم وحزبا من أحزابهم ووثنا من أوثانهم وطاغية
 من طواغيتهم .

« وأمر المؤمنين يرغب إلى الله أن يوزعه الشكر على ما أولاه ويوجده سيلا إلى
 بلوغ مبتغاه من إعزاز الملة والدين وإحياء شريعة جده سيد المرسلين ومجاهدة الترك
 والمشركين وقمع الظالمين والقانطين والمارقين حتى يكون الدين كله لله ويجمع القلوب
 على طاعته بإذن الله .

★ ★ ★

٢ - نسخة كتاب بالبشارة بوفاء النيل من إنشاء محمود بن قادوس : (١)

النعم وإن كانت شاملة للأمم فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولاهها بشكر تنشر
 في الآفاق أعلامه واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه ، نعمة يشترك في النفع بها
 العباد ، وتبدو بركتها على الناطق والصامت والجماد ، وتلك النعمة النيل المصري الذي
 تبرز به الأرض الجرز في أحسن الملابس ، وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس
 وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان . فسبحان من جعله
 سببا لإنشاء الموات ، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات ووفر به مواد الأرزاق
 والأقوات ، وهذا الأمر صادر إلى الأمير وقد من الله جل وعلا بوفاء النيل المبارك
 وخلع على القاضي فلان في يوم كذا وطاف بالخلع والتشريفات والمواهب المضاعفات
 بالقاهرة المحروسة ومصر ، على جاری عادته وقديم سيرته ، ونودي على الماء بوفائه
 ستة عشر ذراعا وإصبعها من سبعة عشر ذراعا ، واستبشر بالنعمة بذلك الخلائق
 وواصلوا بالشكر مواصلة لاتستوقفهم عنها العوائق ، وبدأ من مسرات الأمم وإبتهاجهم
 ما يضمن لهم من الله المزيد وينيلهم المنال السعيد ويقضى لهم بالمآل الحميد ، وموصل
 هذا الأمر إليك فلان فاعتمد عند وصوله إليك لإكرامه وإعزازه وإجمال تلقيه وإفضاله
 إلى ماجرت به عادة مثله من رجاء وتنويه واحتفاء وإكرام واعتناء ليعود شاكرًا .
 فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله .

(١) . صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٨ .

٣ - نسخة كتاب بالبيشارة بالسلامة في الركوب في غرة رمضان من إنشاء ابن الصيرفي (١)

الحمد لله كالى خلقه في اليقظة والنام والكافل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصيام وصلى الله على سيدنا محمد الذى بعثه رحمة للأنام وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب أخلص ولى وأشرف وصى وأفضل إمام وعلى الأئمة من ذريتهما الدائمى الى دار السلام صلاة دائمة الاتصال مستمرة في الغدو والآصال وإن من المسرة التى تتهادى ، والنعمة الشاملة للخلق جميعا وفرادى . مامن الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين يوم كذا غرة شهر رمضان من سنة كذا لإعلاما بأول الشهر وافتتاحه وأن الصيام الأول من فجره الأول قبل تنفس صباحه ، وتوجهه إلى ظاهر المعزية المحروسة في عساكره المظفرة وجنوده ، وأوليائه وعبيده والمئة برؤيته قد تساوى فيها الكافة وملائكة الله مطيفة حافه ، وعوده إلى قصوره الزاهرة ، وقد شمل المستظلين بأفائه بسعادتي الدنيا والآخرة . أصدر إليك هذا الأمر لتقف على الجملة وتشكر النعمة السابقة على أهل الملة وتتلوها على أهل عملك وتطالع بكائنك في ذلك ، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى .

موازنة بين الكتاب في مصر وبغداد

إذا أردنا أن نعقد موازنة بين الكتابة في بغداد ومصر على عهد الدولة الفاطمية ، وجدنا أن مصر لا تقصر عن بغداد في بلاغة كتابها ، وأن مظاهر الكتاب فيهما واحدة من الإطالة في التحديدات ، والإطناب في كثير من المقامات ، والتزام السجع ولكن مع قوة التعبير وتمكن القوائى .

وإذا رأينا مصر تسامى بغداد في ذلك فهو فضل كبير وميزة عظيمة وصلت إليها ، لأن بغداد كانت دائما بين عواصم الأقطار الغربية هي المثل الأعلى في البلاغة في عصورها كلها ، فإذا سامتها مصر أو دانتها في المترلة فلنما يدل ذلك على منافسة شديدة ومحاولة عنيفة بلها المصريون للوقوف في صفوف البغداديين . ولا نرى عونا على ذلك إلا رفع شأن ديوان الإنشاء بمصر وتمكين كتابه ورئيسهم من الرزق الغدق والمترلة السامية

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣١٦ .

وقد ذكرنا لك فيما قدمنا من إحسان الخلفاء الفاطميين إلى كتابهم ما يحمل على الإجابة والسمو إلى أعلى المراتب . ويحسن بنا أن نوازن بين رسالتين كتبنا في عهدين متقاربين بمصر وبغداد .

فأما إحداهما فهي الرسالة التي كتبت عن العزيز بالله الفاطمي إلى عامله على مصر يشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرمطي سنة ٣٦٧ . وقد مرت بك في النماذج . والثانية هي ما كتبه أبو إسحاق الصابي وهو من هو في الشهرة والفضل ، عن الخليفة الطائع إلى صمصام الدولة بن عضد الدولة بسبب كردويه الخارج عن الطاعة ، والطائع والصابي كانا يعيشان في النصف الثاني من القرن الرابع فهما معاصران للعزيز الفاطمي . وقد تولى الطائع سنة ٣٦٣ والعزيز سنة ٣٦٥ . والرسالة التي كتبها الصابي تجدها في صبح الأعشى (١) ونحن ننقل منها فقرة تدل عليها وتمكنك من الموازنة بينهما وبين رسالة العزيز .

قال :

وقد عرفت — أدام الله عزك — ما كان من أمر كردويه كافر نعمة أمير المؤمنين ونعمتك وجاحد صنيعته وصنيعتك في الوثبة التي وثبها ، والكبيرة التي ارتكبها وتقريره أن ينتهز الفرصة التي لم يمكنه الله منها ، بل كان من وراء ذلك دفعه وردده عنها ، ومعاجلتك لإياه الحرب التي أصلاه الله نارها وقنعه عارها وشنارها حتى انهزم والأوغاد الذين شركوه في إثارة الفتنة على أقبح أحوال الذلة والقلة ، بعد القتل اللريع ، والإلحان الوجيع .

فالحمد لله على هذه النعمة التي جل موقعها وبان على الخاصة والعامة أثرها ، ولزم أمير المؤمنين خصوصاً والمسلمين عموماً نشرها ، والحديث بها ، وهو المستول لإقامتها وإدامتها برحمته .

العلوم في عهد الدولة الفاطمية

في عهد هذه الدولة راجت حركة العلم وراجا عظميا ، لأن خلفاءها أرادوا ذلك وهم كما عامت كبار الهمم متخرقون في العطاء ، فكانت مصر على أيامهم في حركة دائبة : مصريون يدأبون في التحصيل لينالوا ما تشرئب إليه أعناقهم من تكريم ومنزلة سامية ، وأغراب يقصدون البلاد لما سمعوا من جود خلفائها وأمرائها ووزرائها واحتفالهم بكل ذي قدم في فنه أو علمه ، ثم خلفاء مقبلون بأنفسهم على العلم يدرسونه ويعنون بأخبار العلماء في أقطار الدنيا فيبدلون لهم الرغائب ليحضروا إلى مصر ويجعلوها بيئتهم العلمية أو مجال تجاربهم الفنية .

هذه المظاهر جعلت من مصر بيئة علمية ناشطة فمرت بالبلاد أيام لم يسبق لها عهد بها ، ونحن نعو ذلك لأسباب منها : المنافسة التي اشتعلت جذوتها في صدور الفاطميين للعباسيين ، فهم لم يطيقوا — وقد مكنهم السلطان مما مكن منه العباسيين من مال وقدرة واتساع جاه — أن يكونوا أقل منهم في شيء مما يقدرون عليه . وكان العلم في بغداد في أسمى مراتبه بأقطار الإسلام ، فاجتهد الفاطميون أن تكون لهم في مصر مثل سمعة العباسيين ببغداد ، فكان ما أرادوا .

كذلك كان للثراء أثر في العناية بالعلم لأنه كمال ترفه به حال البلاد وتزداد حضارتها فكان الغنى في ذاته داعيا إلى الاهتمام بالعلم استكمالا لأسباب الرفاهية والحضارة ، ولا شك في أن المال وسيلة الوسائل في تحصيل الآمال مهما بعد مناطقها .

وقد يكون لاشتغال الخلفاء أنفسهم بالعلم وإقبالهم على دراسته أثر ظاهر في احتفال جمهور الناس به لأن الناس على دين ملوكهم .

ذكروا عن الحاكم بأمر الله أنه كان يستحضر علماء دار الحكمة بين يديه يأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المؤمنون العباسي . وكذلك العزيز قبله ، يعني بخزانة كتبه ويستدعي قيمها ليقرأ له الكتب ويناديه (١) وقد بلغ من تقديرهم للعلماء أن الطبيب منصور

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٨

ابن مقشر وكان من الأطباء المتقدمين بالديار المصرية على أيام الفاطميين ، كان طبيب العزيز بالله فاعتل وكان العزيز أيضا وجع الرجل ، فلما تماثل ابن مقشر كتب إليه العزيز بخطه (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم :

طبيبتنا سلمه الله ، وأتم عليه النعمة ، وصلت إلينا البشارة بما وهبنا الله من عافية الطبيب ، وبرؤه والله العظيم لقد عدل عندنا مارزقنا نحن من الصحة في جسمنا ، فتمم الله عليك النعمة وكل لنا صحتك وعجل بها ، ولا أشمت بنا فيك عدوا ولا حاسدا ورد كيد من يريد الكيد في نحره وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك وإقامتك العثرة ورجوعك إلى أفضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته . والسلام عليك وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبي وآله وسلم تسليما . ويذكر القفطى عن (بن مقشر) خبرا يتعاق بالحاكم بأمر الله فيقول (٢) :

ابن مقشر هذا طبيب مصرى كان يطيب مولانا الحاكم وهو من أطباء الخاصة بالديار المصرية له يد في المباشرة والمعالجة ولم يشتهر عنه علم في هذا الشأن ولا ظهر له تصنيف ، وبلغ مع هذا أعلى المنازل وأسناها ولما مرض ابن مقشر عاده الحاكم بنفسه ولما مات أسف عليه وأطلق لخلفيه مالا جزيلا وافر ، وكان في حياته واسع الحال . وروى أيضا حديث الحسن بن الحسن بن الهيثم المهندس البصرى صاحب التآليف في علم الهندسة والإتقان له والتفنن فيه . قال (٣) :

« بلغ الحاكم صاحب مصر من العلويين - وكان يميل إلى الحكمة - خبره وما هو عليه من الإتقان لهذا الشأن فتأقت نفسه إلى رؤيته ثم نقل له عنه أنه قال لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملا يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال في طرف الإقليم المصرى ، فازداد الحاكم إليه شوقاً وسير إليه سرّاً جملة من المال وأرغبه في الخضوع فسادف نحو مصر ولما وصلها خرج الحاكم للقائه والتقى بقرية على باب القاهرة المعزية تعرف بالحنديق وأمر بإنزاله وإكرامه » .

(١) أخبار الحكماء ص ٢١٩ .

(٢) أخبار الحكماء ص ٢٨٥

(٣) المرجع السابق ص ١١٤ .

وروى أيضاً أنه اتفق أن عرض لرجل الحاكم بأمر الله عقرو من ولم يبرأ بعلاج أطباء
الخاص فأحضر له يهودى مصرى يتعاطى الجراحة بمصر وهو فى غاية الخمول فبرأ الحاكم
على يديه وشفى فى ثلاثة أيام فأطلق له ألف دينار وخلع عليه ولقبه بالحقير النافع وجعله
من أطباء الخاص (١) .

وأخبار جود الخلفاء ووزرائهم على أهل العلم كثيرة نكتفى منها بما ذكرنا وربما عرض
بعضها فى بقية حديثنا عن العلوم فى هذه الدولة .

المكاتب فى عهد الفاطميين

١ - خزانة الكتب

اقتدى الفاطميون فى مصر بخلفاء بغداد والأندلس فأنشئوا المكاتب وجمعوا لها
الكتب ، وبدأ منهم بذلك العزيز بالله ثانى خلفائهم وقد تولى الخلافة سنة ٣٦٥ وهو شاب
فاستوزر يعقوب بن كلس ، وكان يعقوب محباً للعلم فقرب إليه العلماء على اختلاف طبقاتهم
وأجرى لهم الأرزاق وحسب إلى الخليفة اقتناء الكتب فجمع منها جانباً كبيراً خصص له
قاعات فى قصره وسماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال فى الاستكثار من المؤلفات
المهمة فى التاريخ والأدب والفقه ، ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ أو مائة
نسخة أو أكثر .

ذكروا أنه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط
الخليل نفسه ، وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ، واشتروا النسخة منها بمائة دينار ،
ومائة نسخة من كتاب الجوهرة لابن دريد ، وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالى
الأيام حتى بلغ عدد النسخ من تاريخ الطبرى عند استيلاء صلاح الدين الأيوبنى على مصر
ألفاً ومائتى نسخة ، وكان فيها ثلاثة آلاف وأربعمائة ختمة قرآن بخطوط منسوبة بحلاة
بالذهب .

وقد بلغ من كثرة الكتب بهذه الخزانة أن قالوا: إن عدد الكتب التى اجتمعت بها كان
ألف ألف وسبعمائة ألف كتاب فى الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والتجامة
والروحانيات والكيمياء منها ثمانية عشر ألفاً فى العلوم القديمة فيها ستة آلاف وخمسمائة

(١) أخبار الحكماء ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

جزء من كتب الهندسة والفلسفة خاصة غير أدوات الهندسة والفلك (١) قال ابن السبدي « كان الوزير أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني تقدم سنة ٤٣٥ باعتباره خزانة الكتب بالقاهرة وأن يعمل لها فهرست ويرم ما أخلق من جلودها، وأنفذ القاضي أبا عبد الله القضاعي وابن خلف الوراق ليتوليا ذلك . وحضر القصر وحضرت لأشاهد ما يتعلق بصناعتي فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء ، وكرة نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية ، وتأملنا ما مضى من زمانها فكان ألفاً ومائتين وخمسين سنة ، وكرة أخرى من عمل أبي الحسين الصوفي للملك عضد الدولة وزنها ثلاثة آلاف درهم قد اشترت بثلاثة آلاف دينار (٢) .

٢ — دار الحكمة

وتسمى دار العلم ، أنشأها الحاكم بأمر الله بجوار القصر الغربي بالقاهرة وحمل إليها الكتب من خزائن القصور (خزائن العزيز وغيرها) ووقف لها أماكن يتفق عليها من ريعها وفتح أبوابها للناس فكانوا يحضرون إليها للمطالعة والدرس والتأليف ، وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة لأن الحاكم أعد بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغة والأطباء وأجرى لهم الأرزاق .

وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة بين يديه ويأمرهم بالمناظرة ويخلع عليهم الخلع ، وقد أباح المناظرة للمتدربين على تلك الدار فكانوا يعقدون الاجتماعات هناك وتقوم المناظرات وقد يؤدي الجدل إلى الخصام ، وقد اتخذ بعض أصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائهم فاضطر ابن الأفضل بن أمير الجيوش إلى إغلاق أبواب الدار تلافياً لما كان يحدث فيها . ثم أعيد فتحها أيام الأمر بأحكام الله ووزيره ابن البطائحي ومنعت منها هذه المناظرات المفسدة للدين . وهذه الدار هي التي استولى عليها صلاح الدين الأيوبي فيما استولى عليه من مخلفات الفاطميين . قال السيوطي في حسن المحاضرة : « ووجد خزانة كتب ليس في الإسلام لها نظير تشتمل على نحو ألفي ألف مجلد منها بالخطوط المنسوبة مائة ألف مجلد ، فأعطاها القاضي الفاضل » (٣) .

(١) التمدن الإسلامي لجورى زيدان ج ٣ ص ٢٠٩ نقلاً عن تراجم الحكماء .

(٢) أخبار الحكماء ص ٢٨٦ .

(٣) ج ٢ ص ٣٤ .

ولما كانت هذه المكتبة تحتوى على كثير من الكتب فى المذهب الشيعى فقد فصلت منها هذه الكتب وأحرق بعضها وطرح بعض فى النيل وترك آخر فى الصحراء فسقت عليه الرياح حتى صار تلالا عرفت بتلال الكتب فكان العبيد يتخذون من جلودها نعلا لهم . وما فعل بها ذلك إلا لأن الأيوبيين كانوا سنين وقد أرادوا أن يقضوا على التشيع فى مصر . أما ما رضوا عنه من كتب تلك المكتبة فقد وهبه صلاح الدين للقاضى الفاضل فانتفع به وانتفعت مصر بعده به وكان يوماً ما بمدرسة القاضى الفاضل ينتفع به الطلاب والمدرسون إلى أن ذهب فى الغلاء الذى أصاب مصر سنة ٦٩٤ (١) .

أنواع العلوم أيام الدولة الفاطمية

كانت مصر فى عهد هذه الدولة تشغل بجميع العلوم المعروفة إذ ذاك . وقد نبغ فى كل علم أفاضل من المصريين وقصد مصر من أهل كل علم من يشار إليهم بالبيان فيه ، فلم تكن مصر فقيرة فى شىء من ذلك وكيف تفتقر وخلفاؤها ووزراؤها كما ذكرنا يحدون على العلماء ويرفون عيشهم ويرفعون منزلتهم .

ولكننا لا ننكر أن رؤساء الفقهاء وكبار أصحاب المذاهب السنية لم يكن لهم بمصر عيش أيام هذه الدولة لأن عملها على إذاعة مذهبها الشيعى وتمكين أسسه فى مصر يتناقض مع وجود هؤلاء الأئمة المجتهدين الذين حيثما حلوا التف حولهم طلابهم وأشربوا فى قلوبهم حبيبهم وتعلقوا بمذاهبهم ومناحى تفكيرهم . فلم يكن لخلفاء هذه الدولة وقد أخلصوا لمذهبهم ، بد من أن يعملوا على إخفات أصوات هؤلاء العلماء فشردهم وقتلوهم ؛ قال المقرئى فى خطه (٢) : فى سنة ٤١٦ هـ أمر الظاهر فأخرج من بمصر من المالكية وغيرهم . قال فى النجوم الزاهرة . - « أما المصريون (يعنى بنى عبيد) فأما تو السنة وقتلوا العلماء » (٣)

ويقول عن الحاكم بأمر الله « وقتل من العلماء والكتاب الأماثل ما لا يحصى ، وكتب على المساجد والجوامع سب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمر و ابن العاص رضى الله عنهم (٤) .

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٦٦

(٢) ج ١ ص ٣٥٥

(٣) ج ٤ ص ٧٤

(٤) ج ٤ ص ١٧٦

ولما شاعت فظاعة الحاكم في هذا الأمر أرسل إليه ابن باديس (صاحب المغرب) ينكر عليه أفعاله فأراد استمالته فأظهر التفقه وحمل في كفه الدفاتر وطلب فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك في الجامع ثم بدا له فقتلهما صبراً (١)

أما من عدا هؤلاء من العلماء فقد كانوا في موضع الإكرام والتجلة لأن علمهم لا يتعارض مع مذهب الخلفاء . لذلك رأينا بمصر أدباء ونحاة ومؤرخين وأطباء ومنجمين وقد كثر بمصر أهل هذين العلمين الأخيرين وهما الطب والنجامة لأن الفاطميين كان لهم ولوع خاص بهما فقرّبوا علماءهما وأغدقوا عليهم النعم . ونحن نستطيع أن نعد من هؤلاء كثيرين ، وسنورد عليك من أسماءهم وبيان أحوالهم ما يقنعك بما ذكرنا من حرص الفاطميين على إكرام هؤلاء خاصة .

أما الدافع إلى ذلك الإكرام فهو في رأينا مختلف باختلاف نوع العلم ، فأما الطب فلحاجة هؤلاء الخلفاء إلى من يتولى علاجهم وتوفير الصحة لهم ليتمتعوا بما امتلأت به قصورهم من مناعم في مأكّل ومشرب وغيرهما ، ولذلك رأيت فيما مر بك أنفا كيف أن العزيز بالله يكتب إلى طبيبه بخط يده مهنتاً بالشفاء من المرض ، وكيف أن الحاكم زار طبيبه في مرضه فلما مات أغدق على عقبه المال الجزيل . وأما النجامة فمرجعها إلى أن من فروع هذا العلم دعوى معرفة الغيب واستشفافه من وراء حجبهِ ، وكان الفاطميون أنفسهم يدعون ذلك ويرون أن علياً كرم الله وجهه كان يعرفه وأنه كتب كل ما يكون إلى يوم القيامة في سُلخ شاة (جفر) فسمى ذلك علم الجفر (٢)

وكبير الفاطميين وهو المعز كان يدعى علم الغيب فإنه عاد جوهرا الصقلي قائده ، قبل مسيره إلى مصر ، فقال إن هذا لا يموت وسيفتح مصر (٣) ولم يكن غرضه من إلقاء هذا القول إلا أن يقول الناس يوم يتحقق أن مولاهم يعلم الغيب والحاكم بأمر الله لم يكتف بدعوى علم الغيب حتى ادعى الألوهية وتقرب إليه جماعة من الجهال فكانوا إذا لقوه قالوا له السلام عليك يا واحد يا أحد يا محي يا مميت وصار له دعاة يدعون أوباش الناس . ومن سخف عقله إلى اعتقاد ذلك (٤) .

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٨

(٢) الوفيات ج ١ ص ٣١١

(٣) الوفيات ج ١ ص ١١٩

(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣ .

علماء الدولة الفاطمية

١ - الأطباء

- نذكر عنهم هذا البيان وفيه أهم ما تحسن معرفته في التعريف بأحوالهم (١) :
- ١ - كيسان بن عثمان : أصيل . (٣٧٨) ، كان مشهور الذكر معروف الصنعة خدّم الدولة الفاطمية أيام المعز والعزّيز .
 - ٢ - محمد بن أحمد التميمي : طارئ ، خدّم يعقوب بن كلس وصنف له كتاباً كبيراً سماه مادة البقاء ، بإصلاح فاسد الهواء والتحرّز من ضرر الأوباء . لقي الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم . وكان موجوداً بمصر في حدود سنة ٣٧٠هـ .
 - ٣ - ابن بطلان : طارئ ، (٤٤٢) ، نصراني . بغدادى . أقام بمصر مدة اجتمع فيها بابن رضوان الطبيب المصرى الفيلسوف وجرت بينهما مناظرة خرج ابن بطلان على أثرها من مصر مغضباً فانقطع للعبادة ببعض أديرة أنطاكية إلى أن مات .
 - ٤ - ابن رضوان : أصيل ، (٤٦٠) ، كان في أول أمره منجماً يقعد على الطريق ثم قرأ شيئاً من الطب فتلمذ له جماعة وسار ذكره .
 - ٥ - موسى بن العيزار : أصيل ، خدّم المعز عند قدومه من المغرب وركب له أدوية كثيرة ورزق توفيقاً .
 - ٦ - منصور بن مقشر : أصيل ، نصراني كان طبيب العزيز بالله واتفق أن مرض فلما شفى كتب إليه العزيز بخطه مهنتاً .
 - ٧ - ابن مقشر : أصيل ، طبيب الحاكم وكان من أطباء الخاص بالديار المصرية له يد في المباشرة والمعالجة ولم يشتهر عنه علم ولا ظهر له تأليف وبلغ مع هذا أعلى المراتب . ولما مرض عاده الحاكم فلما مات أسف عليه وأطلق لخلفيه مالا جزيلا وكان في حياته واسع الحال .
 - ٨ - الحقيير النافع : أصيل ، داوى الحاكم بعد أن عجز عن علاجه أطباؤه فشفاه في ثلاثة أيام من عقر في رجله فأطلق له الحاكم ألف دينار وخلع عليه ولقبه بالحقيير النافع لأنه لم تكن له شهرة قبل مداواة الحاكم .
 - ٩ - سلامة بن رحمون : أصيل ، قال عنه أبو الصلت : أنه من رأيت من أطباء

(١) جميع ما ذكرناه هنا مستمد من كتاب (أخبار الحكماء) للقفطى .

مصر وأدخلهم في عداد الأطباء . وكان موجوداً بمصر أيام دخول أبي الصلت إليها سنة ٥١٠ .

١٠ - جرجيس الأنطاكي : طارىء ، كان بينه وبين أبي الخير سلامة بن رحمون اليهودى محاولات يلجأ فيها جرجيس إلى المغالطة فكان أبو الخير لغفلته لا ينتبه إلى ما فيها ويظنها صحيحة فيحتفل بالرد عليها . كان موجوداً سنة ٥١٠ .

١١ - أبو الصلت أمية : طارىء (٥٢٩) ، طبيب مغربي زار مصر ٥١٠ وأحصى من بها من الأطباء وغيرهم وكان شاعراً مجيداً .

١٢ - موسى بن ميمون : طارىء ، أندلسي دخل مصر في آخر عهد الدولة الفاطمية وقد راموا استخدامه وإخراجه إلى ملك عسقلان لأنه طلب منهم طبيباً فلم يقبل وبعد ذلك اشتمل عليه القاضي الفاضل وقرر له رزقا .

(٢) المهندسون والمنجمون (١)

١ - محمد بن عبد الله القرطبي : طارىء (٣٨٥) ، إفريقي دخل مصر والغالب عليه النجوم كان منجماً للمعز ثم العزيز ألف كتاباً في أخبار الأمويين والعباسيين وذكر فيه شيئاً من محاسنهم فغضب عليه العزيز فلزم منزله حتى مات .

٢ - علي بن أبي سعيد الصدفي : أصيل (٣٩٩) ، صاحب الزيج الحاكمي المسمى بزيج ابن يونس في أربع مجلدات ابتدأ بعمله للعزيز ، وكان مع اختصاصه بالنجوم متصرفاً في جميع العلوم بارعاً في الشعر يضرب العود على جهة التأدب .

٣ - الحسن بن الهيثم : طارىء (٤٣٠) ، بصرى دخل القاهرة بدعوة من الحاكم وكان ينوي أن يعمل للنيل عملاً يحفظ به ماءه فلم يوفق .

٤ - علي بن النضر : أصيل ، مدحه أبو الصلت في رسالته عن منجمي مصر قال : إنه من الأفاضل المعدودين من حسنات الزمان .

٥ - ابن السبدي : أصيل ، من أهل المعرفة والعلم يعمل الأسطرلاب قال القفطي وقد رأينا من عمله آلات حسنة الوضع في شكلها صحيحة التخطيط في بابها شهد عمل الفهرست لخزانة الكتب سنة ٤٣٥ .

٦ - علوى الديري : أصيل ، (٥٩٥) ، من دير البلاص بصعيد مصر ،

(١) جميع ما ذكرناه هنا مستمد من كتاب أخبار الحكماء للقفطي .

لزم بلده وقصده فيها من يأخذ عنه علمه ، وكان يعمل التقويم ويسيرها إلى
أجلاء أهل البلد فيأتيه البر من ناحيتهم .

٧ — المنجم الخارجى: أصيل ، (٣٩٨-) ، كان يعرف أحكام النجوم ويتكلم
فى الحدثنان . زعم أنه رأى لنفسه أنه سيملك فخرج بصعيد مصر أيام العزيز
ثم قبض عليه وضربت رقبتة .

٣ — النحاة واللغويون والمؤرخون

١ — الحسن بن زولاق (١) : أصيل ، (٣٨٧-) ، كان فاضلاً فى التاريخ له فيه
كتاب خطط مصر وهو مخطوط وكتاب أخبار قضاة مصر جعله ذيلًا على كتاب
الكندى فكماله إلى سنة ٣٨٦ وهو مطبوع .

٢ — على الشاشى (٢) : أصيل (٣٩٠-) ، أديب فاضل تعلق بخدمة العزيز
فولاه خزائن كتبه وكان يقرأ له الكتب ويجالسه ويناديه وله كتاب الديارات .
وهو مخطوط بدار الكتب المصرية

٣ — جنادة المروى (٣) : طارىء (٣٩٩-) ، كان مكثراً من حفظ اللغة ونقلها
عارفاً بوحشيها ومستعملها لم يكن فى زمنه مثله . قتله الحاكم .

٤ — القزاز القبروانى (٤) : طارىء (٤١٢-) ، كان الغالب عليه النحو واللغة
خدم العزيز وصنف له كتاباً اقترح عليه أن يؤلف كتاباً فى الحروف على المعجم
فعمله لم يكن أحد سبقه إليه وبلغ كتابه ألف ورقة .

٥ — أحمد بن مطرف العسقلانى (٥) : طارىء (٤١٣-) ، أديب فاضل له
مصنفات فى اللغة والأدب وديوان شعر .

٦ — محمد المسبحى (٦) : أصيل (٤٢٠-) ، رزق حظوة فى التأليف وخدم
الحاكم وتقلد القيس والبهنا له كتاب أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء
والأئمة والخلفاء وما بها من العجائب والأبنية وأشعار الشعراء وأخبار المغنين

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٨

(١) الوفيات ج ١ ص ١٣٤

(٤) المرجع نفسه ص ١٤٠

(٣) المرجع ذاته ص ١١٧

(٦) الوفيات ج ١ ص ٥١٥

(٥) معجم الأدباء ج ٥ ص ٦٣

- ومجالس القضاة والحكام والأدباء والمتغزلين وغيرهم وهو مفقود ومنه قطعة مخطوطة وله غيره كتب مفقودة .
- ٧ - ابن مفلح (١) : طارىء (٤٢٧) ، كان من أهل العلم باللغة والعربية يشار إليه فيهما سكن مصر واستوطنها وتلقى بها عن يعقوب النجيري وله شعر جيد .
- ٨ - محمد العميدى (٢) : طارىء (٤٣٣) ، نحوى لغوى أديب مصنف ولى ديوان الإنشاء أيام المستنصر وصنف تنقيح البلاغة فى عشر مجلدات والعروض والقوافى وهو كبير .
- ٩ - محمد البارودى (٣) : أصيل (٤٤٩) ، نحوى ثقة . روى عن الحافظ ابن سعيد المصرى .
- ١٠ - على بن القطاع (٤) : طارىء (٥١٥) ، أحد أئمة الأدب خصوصاً اللغة ولد بصقلية ، وقرأ الأدب على فضلائها وله تأليف كثيرة منها « كتاب الأفعال » منه مختصر مخطوط و « العروض البارخ » و « الشافى فى القوافى » وهما مخطوطان و « ملح الملح » جمع فيه طائفة من شعر الأندلسيين و « أبنية الأسماء » و « الدرر . الخطيرة فى المختار من شعر الجزيرة » أى صقلية وهذه كلها مفقودة . وصل إلى مصر فى حدود سنة ٥٠٠ فبالغ أهلها فى إكرامه .
- ١١ - يوسف النجيري مى اللغوى (٥) : طارىء (٥٢٠) ، من البصرة من أهل بيت كلهم ماهر فى اللغة . وكان هو أمثلهم . وكان أهل مصر يرغبون فى خطه حتى بيعت نسخة ديوان جرير بعشرة دنانير وأكثر ما تروى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار وأيام العرب بمصر عن طريقه .
- ١٢ - ابن بابشاذ (٦) : أصل (٤٥٤) ، من أئمة النحو وأعلام العربية كان يتصفح الرسائل بديوان الإنشاء لإصلاح ما عساه يكون من أغلاط الكتاب
- ١٣ - أحمد بن مطرف (٧) : أصيل . لغوى ، كان فى أيام الحاكم له تأليف فى

-
- (١) المرجع السابق ص ٢٩٦ (٢) البغية ص ١٩ .
 (٣) البغية ص ١٥ (٤) الوفيات ج ١ ص ٣٣٩
 (٥) المرجع السابق ص ٣٥١
 (٦) المرجع السابق ص ٢٣٥ والبغية ص ٢٧٢ .
 (٧) البغية ص ١٧٠ ومعجم الأدباء ج ٥ ص ٦٣ .

الأدب منها كتاب « النوائح » . وهو في اللغة كبير الحجم ورسالة في الضاد والطاء كتب بها إلى أحمد بن القاسم الحسيني عامل تنيس .

١٤ - أحمد « الرشيد بن الزبير » (١) : أصيل ، (٥٦٣) ، سبق ذكره في الشعر كاتباً فقيهاً نحويّاً لغويّاً عروضيّاً مؤرخاً منطقيّاً مهندساً طبيّاً موسيقياً منجماً ، فكان من أفراد الدهر فضلاً . ولى النظر بثغر الإسكندرية والدواوين السلطانية بغير اختياره ، وأرسل في سفارة إلى اليمن فسمت نفسه إلى الخلافة فأجابه قوم وسلموا عليه بها . وضربت بإسمه نقود فقبض عليه وقتل .
له كتب كثيرة منها « أمنية الأملعي ومنية المدعي » وهو مخطوط و « جنان الجنان وروضة الأذهان » في أربع مجلدات يشتمل على شعر شعراء مصر ومن طراً عليها وهو مفقود .

١٥ - الحسين بن الوليد (٢) : طارىء (٣٩٠-) ، نحوى عارف بالعربية مقدم فيها أقام بمصر أعواماً ثم عاد إلى الأندلس فأدب أولاد المنصور محمد بن أبي عامر

١٦ - سلامة بن عبد الباقي (٣) : طارىء (٥٩٠-) ، نحوى عالم بفنون الأدب من أهل الأنبار سكن مصر وكانت له حلقة بجامع عمرو يقرئ بها القرآن والنحو .

٤ - الفقهاء والمحدثون

١ - محمد الماسرجسى (٤) : طارىء (٤٨٤-) ، فقيه شافعى خرج مع أبي إسحاق المروزي إلى مصر وازمه إلى أن مات ثم رجع إلى بغداد . وسمع بمصر من أصحاب المزني ويونس بن عبد الأعلى . ونسبته إلى جده ماسرجس وكان نصرانياً فأسلم .

٢ - عبد الغنى بن سعيد (٥) : أصيل (٤٠٩-) ، كان حافظ مصر في عصره له تأليف منها « مشبه النسبة » و « المؤلف والمختلف » وهما مطبوعان كانت بينه وبين جنادة اللغوى والمقرئ الأنطاكي مودة أكيدة واجتماع بدار الحكمة ومذكرات . فلما قتل الحاكم صاحبيه استمر مدة ثم أمن فظهر . قيل للدار قطنى

(١) الوفيات ج ١ ص ٥١ .

(٢) البنية ص ٢٣٧ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٥٩

(٥) المرجع السابق ص ٣٠٥

(٤) الوفيات ج ١ ص ٤٥٩

هل رأيت في الحديث أحداً يرجى علمه فقال نعم شاباً بمصر كأنه شعلة نار يقال له عبد الغنى ولما خرج الدار قطنى من مصر وبكى مودعوه قال لقد تركت عندكم خلفاً يعنى عبد الغنى هذا .

٣ - محمد بن العربي المعافى (١) : طارىء (٥٤٣) ، هو الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها رحل إلى المشرق ودخل مصر فلقى بها وبالإسكندرية جماعة من المحدثين أفكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم . وعاد إلى أشبيلية بعلم كثير لم يدخل به أحد قبله ممن رحل إلى المشرق وكان من أهل التفنن في العلوم والجمع لها مقدماً في المعارف كلها .

٤ - مجلى بن جميع الأرسوفى (٢) : طارىء (٥٥٠) ، من أعيان الفقهاء المشار إليهم في وقته صنف كتاب « الذخائر » في فقه الشافعية جمع فيه من المذهب شيئاً كثيراً وفيه نقل غريب لا يوجد في غيره وهو مفقود . تولى قضاء مصر بتفويض من بن السلار وكان صاحب الأمر إذ ذاك، وأرسوف بليدة بالشام على ساحل البحر .

معاهد العلم أيام الفاطميين

كانت مجالس العلم منذ قديم هي المساجد الجامعة يجلس فيها العلماء فيدرسون الفقه ويملون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن بأس من إنشاء الشعر بتلك المساجد كما كانت تدرس بها العربية وفروعها والطب وغيره .

كان هذا النظام معمولاً به في حرم بيت الله وفي مسجد رسوله ومساجد الأمصار كلها كالجامع الأموى بدمشق وجامع عمرو بالفسطاط ، وجامع أحمد بن طولون بالقطائع . وقد ألقى الإمام الشافعى دروسه بجامع عمرو ، وأملى الربيع بن سليمان تلميذه الحديث بجامع بن طوان على إثر الفراغ من بنائه . (٣)

وأول ما ملك الفاطميون مصر بنى لهم القائد جوهر الجامع الأزهر ، شرع في بنائه يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ ، وكل بناؤه لسبع خلون من رمضان

(١) المرجع ذاته ص ٤٨٩

(٢) المرجع ذاته ص ٤٤٥ .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٢ .

سنة ٣٦١ هـ ثم شرع العزيز بالله في بناء الجامع الذي أتمه ابنه الحاكم بعده وسمي باسمه كما بنى الحاكم أيضاً جامع المقس وجامع راشدة ، فصار بمصر على أيام الفاطميين ستة مساجد جامعة تقام فيها الجمعة جميعاً . (١)

بدأ الأزهر حياته مسجداً للصلاة ولم تكن نيته في إنشائه أن يتخذوه لغير العبادة بدليل أن الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله اتخذ بجواره داراً للجماعة من الفقهاء وعدتهم خمسة وثلاثون ، وقد أجرى عليهم الخليفة أرزاقاً ، وكان الوزير ابن كلس أيضاً يبرهم ويصلهم . وكان هؤلاء الفقهاء يجتمعون بالمسجد كل يوم جمعة عقب صلاتها فيقرءون القرآن إلى صلاة العصر .

ثم نشأت فكرة اتخاذه داراً لمدارس العلم على مذهب الشيعة (مذهب الدولة) بعد ذلك .

وقد ذكروا من أمر مدارس العلم فيه أن الطلاب كانوا يحضرون إليه حتى النساء ، وأن الحاكم بأمر الله أمر بنقل مكتبته التي كانت بالقصر وتوزيعها على المساجد الثلاثة : الأزهر والحاكم والمقس وكان نصيب الأزهر منها نحو نصفها .

إذن كانت هذه المساجد الثلاثة مدارس للعلم أيام هذه الدولة وإلا فليس لتوزيع كتب المكتبة عليها قيمة إذا لم تكن للاستعانة بها في الدراسة .

والواقع أيضاً أن جامع عمرو بالفسطاط كان في أيام الفاطميين معهداً لدراسة العلم فسلامة بن عبد الباقي كانت له حلقة بجامع عمرو يقرئ بها القرآن والنحو (٢) وهو من علماء هذه الدولة كما مر بك

ومسجد بن طولون ظل عامراً إلى أيام المستنصر الفاطمي فلما حصل الغلاء واشتد ومات الناس جوعاً وخربت القطائع بأسرها وعدم السكن بها خرب المسجد وصارت المغاربة تنزل فيه بإبلها ومتاعها عندما تقدم من الحج ، وتماذى الأمر على ذلك إلى أن عمره السلطان لاجين من المماليك وكان لما قتل الأشرف خليل بن قلاوون هرب واختفى بمنارة هذا الجامع ونذر لله إن نجا ليعمره فنجاه الله وتسلطن فأمر بتجديده . (٣)

وإذا أضفت إلى هذه المساجد « دار العلم » التي أنشأها الحاكم وجعل فيها القراء

(١) المرجع السابق ص ١٧٦ .

(٢) البغية ص ٢٥٩

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٢ .

والمنجمين وأصحاب النحو واللغة لمساعدة طلاب العلم بما يريدون من تحصيل عرفت مدى ما كان عند هذه الدولة من جهد في سبيل إعداد معاهد العلم . وهو جهد لا نحمدته كثيراً لهذه الدولة العظيمة في كل مظاهرها .

فلم يكن بمصر على أيام الفاطميين مدارس على النظام الذي عرفت فيما بعد على أيام الأيوبيين والمماليك واستمر إلى اليوم ، ذلك النظام الذي كان أول من أحدثه في الإسلام هو الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي وزير ملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق ، فإنه بنى أول مدرسة في الإسلام وقرورها للفقهاء معانيم . شرع في بنائها سنة ٤٥٧ وفرغ منها سنة ٤٥٩ ودرس بها كثير من الأعلام أمثال أبي إسحاق الشيرازي والإمام الغزالي وغيرهم .

قال المقرئ في الخطط « فاقصدى الناس بنظام الملك من حينئذ في بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر وفي بلاد الجزيرة وديار بكر . أما مصر فإن عهد الفاطميين بها حرم البلاد من قيام هذا النوع من المدارس إذ كان مذهبهم مخالفاً لهذه الطريقة » ويقول ابن خلكان « ولما ملك الساطن صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء (١) » .

(١) الوفيات ج ٢ ص ٤٠٢ .

الفصل الثامن

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الأيوبية

من سنة ٥٦٧ إلى سنة ٦٤٨ هـ

- نبذة تاريخية
- أسباب انتعاش الآداب والعلوم في عهد الدولة الأيوبية
- الشعر
- الكتابة
- العلوم

الأدب العربي في مصر

في عصر الدولة الأيوبية

نبذ تاريخي عنها ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ

كان صلاح الدين رأس هذه الدولة قد قدم إلى مصر مع أسد الدين شيركوه أيام خلافة العاضد الفاطمي لمحاربة الصليبيين ، فقتل شيركوه شاور وزير العاضد وتولى مكانه . ثم مات فتولى صلاح الدين وزارة العاضد وكان ذلك سنة ٥٦٥ .

قالوا ولم يكن للعاضد مع صلاح الدين إلا مجرد الاسم فقط (١) .

وفي آخر أيام العاضد أرسل السلطان نور الدين محمود بن زنكي إلى صلاح الدين يأمره بقطع خطبة العاضد وإقامتها للعباسيين خلفاء بغداد ، فامتنع صلاح الدين أولا ثم خضع لأمر نور الدين ، ولكنه لم يكذب قطعتها حتى مات العاضد فندم صلاح الدين على عدم تمهله حتى يموت وقد كان مريضا .

وبموت العاضد سنة ٥٦٧ صارت مصر لصلاح الدين غير أنه كان تحت إمرة نور الدين : يخطب على منابر مصر للخليفة العباسي ولنور الدين ولصلاح الدين .

وما زال صلاح الدين يعمل لخير مصر : إصلاحا داخليا ، وعناية بأمر الجيش وصدا للأعداء عن البلاد ، وفتح لما استولى عليه النصارى بالشام ، حتى مات سنة ٥٨٩ . وقد ولى أمر مصر اثنتين وعشرين سنة .

ملك بعده ابنه العزيز ، مصر فكان ملكا مباركا كثير الخير واسع الكرم محسنا إلى الناس وولى مصر ست سنوات انتهت سنة ٥٩٤ .

ثم ولى بعده ابنه المنصور ستين . وقام بعده بالأمر عمه الملك العادل أبو بكر ابن أيوب سنة ٥٩٦ فدامت ولايته لمصر تسع عشرة سنة . وكان عظيم الجند على الكعب ، مظفرا على الأعداء .

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٢ .

ثم قام بالأمر بعده ابنه الكامل سنة ٦١٥ . وقد اتسعت مملكته . قال ابن خلكان (١) حكى لى بعض من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال : سلطان مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها . سلطان القبلتين ، ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد ، خليل أمير المؤمنين . « بقى الكامل في الملك عشرين سنة . ثم ولى بعده ابنه العادل بن الكامل سنة ٦٣٥ فأقام سنتين ثم خلع بأخيه الملك الصالح نجم الدين سنة ٦٣٧ فدام ملكه عشرين سنة . ثم ولى بعده ابنه الملك المعظم تورانشاه سنة ٦٤٨ .

وقد ظلت الملكة شجرة الدر زوج الملك الصالح تدبر أمور المملكة بعد موت زوجها وهى تحق موتها وكانت توقع على أوراق الدولة « أم خليل » حتى حضر تورانشاه ابن زوجها فلم يحمدها فعلها فكان ذلك جحودا لمعروفها . ومات تورانشاه سريعا فتسلطت شجرة الدر بعد موته وخطب لها على المنابر فكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة « واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل » ثم خلعت نفسها بعد ثلاثة أشهر واستقر زوجها الملك المعز أيبك التركانى فكان ذلك نهاية حكم الأيوبيين وابتداء عصر المماليك سنة ٦٤٨ .

وما يعرض لأحد شك في أن ولاية صلاح الدين وأعضاء أسرته لمصر ، كانت استقلالاً محضاً وسلطاناً لا قيد فيه . لأن الخلفاء ببغداد كانوا قد وصلوا من الضعف إلى حد أنهم صاروا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم بله إرهاب المستقلين بأطراف مملكتهم .

فالملق والمصانعة إلى كان المستبدون بمصر قبل الدولة الأيوبية من الطولونية والإخشيدية يصطنعونها انقلب حالها فكانت من الخلفاء هؤلاء الشجعان المستقلين بأطراف المملكة .

لما وصل إلى الخليفة المستضىء بأمر الله ، الخبر بما تجدد من أمر مصر وعودة الخطبة

(١) الوفيات ج ٢ ص ٥١ .

والسكة بها باسمه بعد انقطاعها بمصر هذه المدة الطويلة حل ذلك عنده أعظم محل وسير
الخلع والأعلام السود إلى مصر والشام (١) .

وقام شعراء بغداد ينظمون القصائد ويرسلونها إلى صلاح الدين بمصر تفخيماً لأمره
وتنويها بشجاعته، كما كان يفعل ابن التعاويذي، وسيمر بك شيء من تلك المدائح
فيما يمر بك من شعر قيل في هذه الدولة (٢) .

(١) الوفيات ج ٢ ص ٢٨٤

(٢) المرجع ذاته .

أسباب انتعاش الآداب والعلوم في عهد الدولة الأيوبية

كانت الآداب والعلوم منتعشة في أيام هذه الدولة لأسباب ؛ منها ما هو خاص بتلك الدولة لم يكن للدول السابقة عهد به ومنها ما هو عام شاركتها فيه غيرها من الدول السابقة . فأما ما شاركت فيه غيرها فهو الاستقلال وانطلاق اليد في الإصلاح والجدد ، وما كان لولاة الأمر في هذه الدولة ووزرائها من عناية بالعلم وملكات في الأدب . أما ما هو خاص بها لم تشاركها فيه دولة سابقة فهو المدارس التي لم تعرفها مصر قبل هذه الدولة . وسنخصص بالحديث سببين هما أهم تلك الأسباب وهما :

١ — عناية الدولة بالعلم والآداب .

٢ — حدوث عهد المدارس بمصر .

١ — عناية الدولة الأيوبية بالآداب والعلم

كان فضل سلاطين هذه الدولة في أنفسهم ، وعرفانهم لقدر العلوم والآداب ، وتعام ملكاتهم العربية أمرا شائعا فيهم متوارثا عن أوائلهم .

ومثل هذا الذي كان منهم من تمام المملكة العربية لا يكون غالبا إلا لعربي ورثها عن آبائه وهو يجعلنا نميل إلى رأى القائلين بأن هذه الدولة عربية النسب تنتهي إلى «مروان» من أبناء خلفاء بنى أمية كما قال ذلك بعض المؤرخين (١) .

ذكروا عن صلاح الدين أنه كان يميل إلى الفضائل ويستحسن الأشعار الجيدة ويردها في مجالسه . قيل إنه كان كثيرا ما ينشد قول أبي منصور الحميري :

وزارني طيف من أهوى على حذر من الوشاة وطيف الصبح قد هتفا

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣ .

فكدت أوقظ من حولي به فرحا وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لي نيل المنى فاستحالت غبطى أسفا
وكان يعجبه قول على بن مفرج المعري الأصل المصرى الدار فى خضاب الشيب :
وما خضب الناس البياض لقبحه وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت على الرسم من حزن عايه منازل
قالوا : فكان إذا وصل إلى قوله : مات الشباب يمسك كريمة وينظر إليهما ويقول
أى والله مات الشباب ! !

وذكر العماد الأصبهانى فى كتاب الخريدة أن السلطان صلاح الدين فى أول ملكه
كتب إلى بعض أصحابه بدمشق هذين البيتين :

أيها الغائبون عنا وإن كنتم لقلبي بذكركم جيرانا
لأنى منذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندى عيانا (١)

قال ابن شداد (٢) : سمعت السلطان (يريد صلاح الدين) ينشد وقد قيل له : إن
الوخم قد عظم بمرج عكا وإن الموت قد فشا فى الطائفتين (جنده وجند أعدائه) :

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معى

وفى كتاب الروضتين (٣) : أن تورانشاه أخا صلاح الدين لما توفى بالإسكندرية
ووصل الخبر إلى السلطان وهو نازل بظاهر حمص ، حزن حزنا شديدا وجعل يكثر
من لإنشاد أبيات المراثى وكان كتاب الحماسة من حفظه .

هذا شأن صلاح الدين فى الأدب فأما شأنه فى العلم فقد كان عجيبا ذكر السيوطى
فى حسن المحاضرة (٤) أن صلاح الدين رحل إلى الإسكندرية بولديه الأفضل والعزیز
لسماع الحديث من السلفى قال ولم يعهد ذلك للملك بعد هرون الرشيد فإنه رحل بولديه
الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ .

وظل صلاح الدين يواظب على سماع الحديث كما يواظب على الصلاة حتى إنه

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٦ ، ٥٧

(٢) الوفيات ج ٢ ص ٣٩٨

(٣) ج ٢ ص ١٨ .

(٤) ج ٢ ص ٣٥

سمع في بعض المصاحفات (الحروب الصيفية) جزءا وهو بين الصفيين وكان يتبجح بذلك ويقول : هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثا (١) .

وذكروا عن الملك الكامل بن العادل أنه كان يحب العلماء والأماثل ويلقى عليهم المشكلات ويتكلم على صحيح مسلم بكلام مليح (٢) ، وأنه كان يبيت عنده في كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء يشار إليهم في مباحثاتهم ويسألهم عن المواضع المشككة في كل فن وهو معهم كواحد منهم . وكان يعجبه هذان البيتان وهما :

ما كنت من قبل ملك قلبي تصد عن مدنف حزين
وإنما قد طمعت لما حللت في موضع حصين
وكان كثيرا ما ينشد في مرض موته

يا خيلى خبرانى بصدق كيف طعم الكرى فإني نسيته (٣)
وكذاك رووا عنه ما يدل على أنه كان شاعرا . قال بعضهم : كان الكامل محبا للعلماء له شعر حسن واشتغال بالعلم (٤) وقالوا : كانت عنده مسائل غريبة من الفقه والنحو يوردها فمن أجابه حظى عنده (٥) .

ويدل على أنه كان شاعرا حاضر البديهة يحسن مطارحة الشعر ما قاله السلاح الصفدى في تاريخه : حكى صاحب كتاب « الأشعار بما للملوك من النوادر والأشعار قال : كان الملك الكامل ليلة جالسا فدخل عليه مظفر الأعشى فقال له : أجزيا مظفر : (قد بلغ الشوق منتهاه) فقال مظفر (وما درى العازلون ما هو) فقال السلطان (ولى حبيب رأى هوانى) فقال مظفر (وما تغيرت عن هواه) فقال السلطان (رياضة النفس فى احتمال) فقال مظفر (وروضة الحسن فى حلاه) فقال السلطان (أسمر لدن القوام ألى) فقال مظفر (يعشقه كل من يراه) فقال السلطان (ريقه كنه مدام) فقال مظفر (ختامها المسك من لماه) فقال السلطان (ليلته كلها رقاد) فقال مظفر (وليلتى كلها انتباه) فقال السلطان (وما يرى أن أكون عبدا) فقال مظفر (بالمملك الكامل احتمال)

العالم العامل الذى فى كل صلاة ترى إياه
ليث وغيث وبدرتم ومنصب جل مرتقاه

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٧ .

(٤) المرجع نفسه ص ٢٣٦

(١) المرجع السابق ص ٣٧

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣٢

(٥) المرجع السابق ص ٢٣٧

وذكروا (١) عن فرخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب : أنه كان إلى شجاعته للماعا
متفننا كثير الأدب ، مطبوع النظم والنثر ومن شعره :

أنا في أسر السقام من هوى هذا الغلام
رشأ ترشق عينا ه سهامي بسهام
كلما أرشفتني فا ه على حر الأوام
ذقت منه الشهد في الثلج المصنى في المدام

وقد اتصل به شاعر من الطائيين على مصر هو تاج الدين أبو اليمن واختص به
وكان سبب ذلك أن الأمير حضر مجلس القاضي الفاضل ، فجرى ذكر بيت من شعر
المتنبى فتكلم فيه تاج الدين بما يليق به فأعجب به فرخ شاه وسأل عنه القاضي فعرفه
بفضله ، فلما قام الأمير من المجلس أخذ بيد الشيخ تاج الدين وخرج به ولزمه إلى أن
مات (٢) ومن قول تاج الدين فيه :

أنا عبد من شهد الزمان بعجزه عن أن يجيء له بند مشبه
طابت موارده فغص فناؤه وشدا الحداة بذكره في المهمة

وفي بغية الوعاة (٣) : أن العزيز بن صلاح الدين الأيوبي رأى الحسن بن الخطير
النعمانى الملقب بالظهري ، يدرس بالقدس عند الصخرة فسأل عنه فعرف قدره فأحضره
ورغبه في المسير معه إلى مصر ليقمع به الشهاب الطوسي فورد معه وأجرى له في كل
شهر ستين ديناراً ومائة رطل خبز ، وكل يوم خروفاً وشمعة ، وأن العزيز قدر
المناظرة بينه وبين الطوسي فركب يوم العيد وهما معه وتناظرا بين يديه فانكسر
الظهري وانضوى إلى مدرسة الأمر الأسدي يدرس بها مذهب أبي حنيفة إلى أن
مات سنة ٥٩٨ هـ .

وفي ترجمة الإمام تاج الدين أبي اليمن النحوي اللغوي المقيم في المحدث الحافظ ،
أنه قدم دمشق من بغداد فنال حشمة وافرة واستوزره فرخ شاه ، ثم اتصل بأخيه تقي الدين
صاحب حماة واختص به وكثرت أمواله ، وقرأ عليه المعظم عيسى شيثا كثيراً من كتب
النحو : ككتاب سيبويه وشرحه والإيضاح ، وكان الملك المعظم توران شاه بن أيوب

(١) كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٣

(٢) كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٥

(٣) ص ٢١٩ .

أخو صلاح الدين ، كريما أريجيا ، أعطى وأغنى خلقا كثيرا حتى إنه مات وعليه مائتا دينار قضائها عنه أخوه صلاح الدين الذي كان يعظمه ويثني عليه كثيرا ويرجحه على نفسه قال ابن خلكان (١) :

حكى صاحبنا الشيخ مهذب الدين المعروف بابن الخيمي نزيل مصر الأديب الفاضل قال : رأيت في النوم شمس الدولة توران شاه وهو ميت فمدحته بأبيات وهو في القبر فلف كفنه ورماه إلى وأنشدني :

لا تستقلن معروفا سمحت به ميتاً فأمسيت منه عارى البدن
ولا تظنن جودى شابه بـجـل من بعد بذلى ملك الشام واليمن
إني خرجت من الدنيا وليس معى من كل ما ملكت كفى سوى كفى
وهذا الخيال عندى أبلغ من الحقيقة في بيان فضل هذا الرجل ومقدار أريجيته فإن جوده بكفنه في قبره دليل على أنه استدان ما استدان في حياته من أجل الكرم وأريجيته ، ولا يصور لحلم حلمه أن ممدوحه يرد عليه بالشعر إلا إذا كان هذا دأبه في حياته الدنيا .

وقد كان رجال الدولة : من وزراء وقواد يسرون على نهج سلاطينها في الاحتفال بالعلم والاعتزاز بالأدب .

فهذا القاضى الفاضل قد عرف عنه من مجالسة الأدباء ومسامرتهم ، ما يدل على مقدار فضله ويرفع في عالم الأدب شأنه . وقد ملأ العماد الأصهباني خريدته بمساجلات القاضى الفاضل ومسامراته ، ودل بذلك على أن الرجل كان جعبة أخبار ولا يغيب عنه شئ من محاسن الماضين والمعاصرين .

ذكر في ترجمة القاضى أبى الفتح قال : أنشدنى القاضى الفاضل أبياتا لأبى الفتح بحكمة النسيج علق بحفظى منها قوله :

أثر المشيب بفوده وفؤاده ألباه أن يبغى لديها الجاهها
وأنشدنى له فى ابن الزبير وكان أسود (يريد الرشيد بن الزبير)
يا شبه لقمان بلا حكمة وخاسرا فى العلم لا راسخا
سلخت أشعار الورى كلهم فصرت تدعى الأسود السالخا

وفى ترجمة أبى عبد الله محمد بن بركات النحوى المصرى أنشد له بيتين وهما :
يا عنق الإبريق من فضة ويا قوام الغصن انرطب
هبك تجاهيست وأقصيتى تقدر أن نخرج من قنبى
ثم قال : قال القاضى الفاضل : وليس له أحسن من هذين البيتين .

والقاضى الفاضل هو الذى اشتهر بجمع الكتب يطلبها من شرق وغرب ويبدل
فيها المال الكثير ، وهو الذى خوله السلطان صلاح الدين خزانة الكتب التى كانت
للفاطميين . قال السيوطى فى حسن المحاضرة (١) ووجد صلاح الدين خزانة
كتب ليس لها فى الإسلام نظير تشتمل على ألفى ألف مجلد ، منها بالخطوط المنسوبة
مائة ألف فأعطاه القاضى الفاضل .

وفى ترجمته فى وفيات الأعيان (٢) يقول ابن خلكان : برز فى صناعة الإنشاء
وفاق المتقدمين ، وله فيه غرائب مع الإكثار . أخبرنى أحد الفضلاء الثقات المطلعين على
حقيقة أمره أن مسودات رسائله فى المجلدات والتعليقات فى الأوراق إذا جمعت ماتقصر
عن مائة مجلد وهو يجيد فى أكثرها .

وقال عنه العماد فى الخريدة : إن شاء أنشأ فى يوم واحد بل فى ساعة واحدة ما لو
دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة .

وعمد الدين الأصهبانى حصلت بينه وبين صلاح الدين مودة أكيدة وامتزاج تام
لفضله وأدبه البارع قصده بالشام وأنشده قصيدة طويلة جدا ولزم بابه وغشى مجلسه
ثم انتظم فى سلك جماعته فاعتمد عليه وقرب منه حتى صار من جلة الصدور المعدودين
والأماثل المشهورين بضاهى الوزراء ويجرى فى مضمارهم . وكان ينوب عن القاضى
الفاضل فى خدمة السلطان بالشام إذا انقطع القاضى بمصر لتلك الخدمة .

وفضل العماد عظيم جدا : فى كتابته ومؤلفاته التى أهمها خريدة القصر وجريدة
العصر ذكر فيها الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة ٥٧٢ وجمع فيها شعراء
العراق العجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ، ولم يترك إلا النادر الخامل (٣) .

(١) ج ٢ ص ٣٤

(٢) ج ١ ص ٢٨٤ .

(٣) الوفيات ج ٢ ص ٧٥

٢ - حدوث عهد المدارس بمصر

كانت الدولة الأيوبية أول دولة أنشأت المدارس بمصر ، ووقفت عليها الأوقاف التي تضمن حياتها بعد موت منشئها .

وأول من سن هذا النظام في إنشاء المدارس وتعيين المعلمين بها وتحديد ما يلتقى فيها من أنواع العلوم وإجراء الأرزاق على الطلبة والمعلمين والقائمين بأمر المدرسة جميعا ، وضمان ذلك بالأوقاف التي توقف على المدرسة لتجيا بعد موت منشئها ، هو نظام الملك وزير ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي .

وقد مر حديث ذلك وحديث اقتداء صلاح الدين في مصر بما عمل نظام الملك في بغداد وأن الفاطميين فاتهم هذا الفضل مع كثرة ما أنفقوا وأحدثوا من منشآت .

كما مر بك تعليل نكولهم عن إنشاء المدارس في كلام المقرئى وابن خلكان .

فلما ملك صلاح الدين مصر وشرع في إصلاح أحوالها كان من مناحى هذا الإصلاح إنشاء المدارس على نمط مدرسة نظام الملك .

قال ابن خلكان (١) : لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس فعمر بالقرافة الصغرى ، المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وبنى مدرسة بالقاهرة بجوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن على رضى الله عنهما ، وجعل عليها وقفا كبيرا ، وجعل دار سعيد السعداء خادما المصريين خانقاه ووقف عليها وقفا طويلا ، وجعل دار عباس مدرسة للحنفية وعليها وقف جيد كبير أيضا ، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار وقفا على الشافعية ووقفها جيد أيضا ، وبنى بالقاهرة داخل القصر مارستانا وله وقف جيد .. وله بمصر مدرسة للمالكية .

وهذه المدارس كان قوامها تعليم الدين : فهذه مدرسة للحنفية وتلك للشافعية وثالثة للمالكية ، ولكننا نعلم أن الدين الإسلامى لا يستقل عن علوم العربية لأن منها يستمد فهمه ويدرك كنهه ، فلا بد أن العربية وفروعها كانت تدرس بهذه المدارس .

ولما كان الناس على دين ملوكهم صار الأمراء والوزراء في الدولة الأيوبية يعملون

عمل ملوكها فينشئون المدارس ويقفون عليها الأحباس التي تضمن لها حياتها وإجراء الرزق على أساتذتها وطلابها والقائمين بأمرها جميعا . فبذلك عظمت بمصر حركة العلم . ونذكر على سبيل المثال مما كان يقوم به غير ولاية الأمر في هذه الدولة من إنشاء دور العلم ، مدرسة القاضي الفاضل التي جعل فيها كتبه كلها ووقف عليها الأوقاف التي ضمنت لها الحياة إلى عصر المماليك . وكانت الدروس تلي فيهما ويستعين طلابها بكتب مكتبتها ، حتى أصاب مصر الغلاء سنة ٦٩٤ فنهبت كتبها وبيعت في ذلك الغلاء (١) ولم يكن التعليم مقصورا على هذه المدارس بل إنه ظل كذلك كما كان قبلا يدرس في المساجد الجامعة فمسجد عمرو بالفسطاط ، ومسجد الحاكم والمقس وراشدة وغيرهم كانت متسعا لحلقات الدروس التي كان العلماء يتبرعون بإلقائها . أو كانت لهم أوقاف رصدت عليهم نظير ما يقومون به من تعليم .

ولعلك على ذكر لما قلنا في الكلام على معاهد التعليم بالدولة الفاطمية من أن جامع ابن طولون ظل عامرا إلى أن تخربت القطائع أيام المستنصر فخرت الجامع بخرابها ، وظل كذلك إلى أن جدد في عهد السلطان لاجين من سلاطين المماليك .

أما الأزهر فإنه لم يكن على عهد الأيوبيين موضع دراسة للعلوم ، لأنهم عملوا على الإقلال من شأنه فأقضى قاضي قضائهم صدر الدين بن درباس بعدم جواز الجمعة إلا بمسجد واحد بالمدينة فاقصر عليها في جامع الحاكم وعطلت الجمعة بالأزهر ، وكذلك قطع صلاح الدين عن الأزهر كثيرا مما أوقفه عليه الحاكم بأمر الله فبطلت أهمية هذا المسجد الذي كان هو مسجدهم الأول بناء ومقاما ، فغير مدة حكم الأيوبيين مفتوحا كمغلق ومباحا فيه التعليم كمنوع ، لأن الطلاب كانوا يجدون الخير الكثير والمزايا العديدة في غيره ولا يجدون شيئا منها فيه .

قال في دائرة المعارف الإسلامية (٢) : (وتغير الحال في عهد الأيوبيين إذ كانوا من متحرجي أهل السنة فحاولوا نحو كل أثر للفاطميين الشيعة ، فمنع صلاح الدين الخطبة من الجامع الأزهر وقطع عنه كثيرا مما أوقفه عليه الحاكم وانقضى نحو قرن من الزمان قبل أن يستفيد الجامع الأزهر عطف الولاية ووجوه البلاد عليه) .

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٢) المجلد الثاني العدد الأول ص ٥٢ .

الشعر في عهد الدولة الأيوبية

١ - بواعثه

اجتمعت في هذه الدولة الأسباب التي بها ينتعش الشعر وتروج سوقه . وقد ذكرنا منها تعلق رجال هذه الدولة بالأدب وحبهم لرجاله وعقدتهم مجالسه ، وكونهم في أنفسهم على تمام من الملكة العربية جعلهم يقدرون قدر الأدب عامة والشعر خاصة فكانوا يروون جيده ويحفظون كثيره ويحرصون على مصاحبة رجاله .

ونذكر أنهم كانوا إلى جانب ذلك أجواداً لا يقون شيئاً مما يصل إلى أيديهم ، وكان كثير : من جبايات الممالك الواسعة التي صارت في أيديهم ، ومن غنائم الحرب . وجزى النصاري وفداء من يفتدى من أسراهم ، وكل ذلك لم يكن يبتى منه شيء يدخره هؤلاء الملوك ولا كانوا في غائب أمرهم منصرفين إلى الدنيا بمبتعون أنفسهم بمتاعها ، فكان كل ذلك مصروفاً في سبيل الخير موزعاً على الفقراء وأهل الصلاح والعلماء والشعراء . ذكروا أن صلاح الدين لما مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرياً وديناراً واحداً صورياً ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة (١) وقالوا : إنه كان متديناً في مأكله وملبسه فلا يلبس إلا القطن والكتان والصوف (٢) .

كان هذا المال الكثير لا يألف الصرير بل يمر عليها وهو منطلق ، فقد ذكروا أنه لما فتح القدس كانت الشروط أن يدفع النصاري عن كل رجل عشرين ديناراً وعن كل امرأة خمسة دنانير وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً ، فمن أحضر فديته نجا بنفسه وإلا أخذ أسيراً . فأقام السلطان بالقدس يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والرجال فلم يرحل عن القدس ومعه من المال الذي جمعه شيء وكان يقارب مائتي ألف دينار (٣) أفلا يكون نصيب الشعراء من هذا كثيراً وهم الذين قصدوه من كل البلاد يعلقون عليه الآمال ويمدحونه : مدحه العلم الشاتاني بقصيدة أولها :

أرى النصر مقرونا برايتك الصفرا فسر واملكت الدنيا فأنت بها أخرى

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٢

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧

ومنها :

يمينك فيها اليمن واليسر في اليسرى فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى
ومدحه المهذب أبو حفص عمر المعروف بابن الشحنة بقصيدة أولها :

سلام مشوق قد براه التشوق على جيرة الحى الذين تفرقوا
وعدة أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتا ومنها قوله :

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها والأذن كالعين تعشق
وقوله :

وقالت لى الآمال إن كنت لاحقا بأبناء أيوب فأنت الموفق

ومدحه ابن قلاقس ، وابن الدروى ، وابن المنجم ، وابن سناء الملك ، وابن
الساعاتى ، وابن البحرانى الإربلى ، وابن ذهن الحصى ، ومحمد بن إسماعيل بن حمدان
الخيرانى (١) . وصلاح الدين هو الذى أعطى أحمد بن على أبا الرضا النبلى على قصيدة
مدحه بها خمسمائة دينار (٢) وقد أنشده بعض أهل المشرق :

الله أكبر جاء القوس باريها ورام أسهم دين الله راميهـا
فكم لمصر على الأمصار من شرف باليوسفين فلا أرض تدانيها
فبابن يعقوب هزت جيدها طربا وبابن أيوب هزت عطفها تيهـا
قل للملوك تملى عن ممالكها فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها
فلما أنشده اياها أعطاه ألف دينار (٣) .

والعطاء كما تعلم يطلق السنة الشعراء ويفتق أذهانهم عن المعانى فتستفيد العربية من
ذلك ثروة تبقى على الدهر ، وتكون مادة للأدب فى الأجيال المقبلة تترأى للأدباء
فيها همم هؤلاء الملوك وعظيم آثارهم .

وكان إلى جانب هذه الأسباب سبب جديد فى هذه الدولة هو دينى وسياسى
تثيره العصبية للدين والوطن وتؤثر ناره تلك الضغينة على الصليبيين^٧ الذين دفعهم
تعصبهم الدينى الممقوت إلى الإغارة على بلاد المسلمين والمبالغة فى أذى أهلها والانتقام
الفظيع من سكانها ، فكان الأمير الذى يقوم بالذيداد عن هذا الحمى ويدفع هذه الغوائل

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٩

(٢) البقية ص ١٤٨ .

(٣) الوفيات ج ٢ ص ٤٠٥

عن الوطن وأهله محبوباً مفدى بالنفوس تستأسر له القلوب وتجتمع على ولائه . وقد كان هذا حال صلاح الدين وسلاطين دولته من بعده .

كان الناس يفرحون ويتباشرون بالانتصار يحرزهُ الأيوبي على الصليبيين لأنه انتصار للإسلام على الشرك وحماية للوطن ، وذود عن أهله . قال ابن خلكان في فتح صلاح الدين لبيت المقدس (١) : « وكان فتحاً عظيماً شهدته من أهل العلم خلق ومن أرباب الخلق والزهد عالم . وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله تعالى على يده من فتح الساحل وقصد القدس قصده العلماء من مصر والشام ولم يتخلف أحد منهم ، وارتفعت الأصوات بالضجيج وبالنداء والتهليل والتكبير » .

وفي أيام العادل أخذ الإفرنجية دمياط فشق ذلك على المسلمين بديار مصر وغيرها ، ولما وصل إليه الخبر حزن ومرض مرض الموت . فلما تولى بعده الملك الكامل وأخرجهم منها كان يوماً مشهوداً أنشد فيه راجع الحلى :

هنيئاً فإن السعد أضحي خلداً وقد أنجز الرحمن بالنصر موعداً
حبانا إله الخلق فتحاً بدا لنا مبيتاً وإنعاماً وعزاً مؤيداً
إلى أن قال :

أعباد عيسى ، إن عيسى وحزبه وموسى جميعاً يخدمون محمداً
فكان في هذا البيت إشارة لطيفة جداً وإتقان عجيب ، فإن موسى وعيسى ابني العادل كانا حاضرين والإشارة بمحمد إلى الكامل لأنه اسمه . (٢)

ولم يكن فرح الناس بما يحرزهُ سلاطين الأيوبيين من النصر خاصاً بمصر أو الشام . بل إنه كان يفيض من قلب كل مسلم ، فقد ذكروا أن الخبر بفتح دمياط لما وصل إلى بغداد قال الصرخى (٣)

أتانا كتاب فيه نسخة نصره ألخص معناها لذي فطن جلد
ومنها :

ألا يا ابن أيوب لقد نلت غاية من النصر ضاهت ما بلغت من المجد

(١) الوفيات ج ٢ ص ٣٩٢

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٨

(٣) المصدر السابق ص ٣٩

بل لم يكن المسلمون يكتفون بإظهار فرحهم بالنصر ومدح ملوكهم وقوادهم الذين كان على أيديهم ذلك. بل إنهم أرسلوا بشعرهم إلى النصارى يظهرون بهم الشبهة ويفتون في أعضادهم ، فقد حصل أن شجرة الدر أطلقت لويس التاسع ويسميه مؤرخو العرب (الفرنسيس) بشرط أن يرد القوم دمياط إلى المسلمين.

فلما سار إلى بلاده أظهر استعداداً للعودة إلى حرب مصر فقال جمال الدين ابن مطروح وكتب بها إليه (١) .

قل للفرنسيس إذا جئتـه	مقال صدق من قـتـول نصيح
أجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرًا تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقتك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
تسعون ألفاً لا يرى منهمـ	إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثـالها	لعل عيسى منكمو يستريح
إن كان باباكم بذرا ضيـا	فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضـمروا عـودة	لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالـها	والقيد باق والطواشي صيح

وإن من يتتبع دواوين شعراء هذا العصر يجدها زاخرة بالتحريض على القتال والتهته بالنصر والحمد على حسن البلاء ، فترى الشعر في هذه الدواوين وقد لبس ثوب الحقيقة اتصل بالواقع أتم اتصال ، فصارت له روعة ودبت فيه حياة لم تكن تعهد قبل ذلك في الشعر العربي الذي سوى بين الجبان الرعيد، والبطل الصنديد ، فجعلهما جميعاً يحميان الذمار ويأبيان الفرار .

وهذا ديوان ابن النبيه مثلاً قد اشتغل صاحبه فيه بتلك الفتوح ولا انتصارات التي تمت على يد ممدوحيه ، ولم يكن فيه للأغراض التافهة أو الخيال الكاذب إلا نصيب ضئيل ، ففي هذا الديوان قصائد بعنوان « العادليات » (٢) استوفت من الديوان نصيباً كبيراً يقول فيها في الملك العادل ابن أخى صلاح الدين .

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٦

(٢) ص ١٠

له راحة في السلم تجنى جنانها
به دمر الله الفساد وأهله
فلا زالت الأفلاك تجري بنصره
وله أيضاً قوله :

كم لك في يافا وفي المرج من
عشرون ألفاً غير أتباعهم ما
وقائع غر مشاهير
بين مقتول ومأسور
وله في الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب (١) .

عساكر الموصل التي انكسرت
يوم أتى جمعهم وقد قدحت
تفرقوا بجمعهم كيدهم
أغرقهم بحر جيشه فهمو
نخبر عن نفسه وفرسانه
سنايك الخيل زند نيرانه
فالتفتهم آيات ثعبانه
كآل فرعون تحت طوفانه
وقوله يذكر الأشرف إلى دخول خلاط فاتحاً (٢)

أطل على أخلاط يوم قدومه
وقد برزت في شكة موسوية
تلقاه من بعد المسافة أهلها
تشككت أن الناس قد حشروا ضحى
بلجة جيش يملأ السهل والوعرا
فلو أمرت بالزحف ما خالفت أمرا
فذا رافع كفاً وذو ساجد شكرا
أم الناس يستسقون رهم القطر
وكذلك الحال في دواوين غيره من الشعراء .

٢ - مجلس الشعراء

عرفت فيما مضى أين كان يجلس الشعراء أيام الدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية؛ كانت مجالسهم تلك في الأديرة التي أغرم القوم بجمال الطبيعة فيها وفتنوا بما يبذل لهم رهبانها من خمر وبمن يدور عليهم بها من غلمان ، وقرأت كثيراً من أقوالهم في تلك الأديرة ووصف ما كانوا يشاهدون فيها .

وقد كان ذلك معقولا مقبولا في هذه الدولة لأن ولاية الأمر فيها لم يكونوا يتخرجون عن شيء من ذلك ، بل لقد كان منهم من ساق الناس بفعله إلى ولوج هذه الأديرة كما كان يفعل خمارويه في دير القصير ، حيث صورة العذراء التي كانت تعجبه فكان يطيل

(١) ص ١٦ من الديوان .

(٢) ص ٥٠ من الديوان .

النظر إليها ويشرب على ذلك أقداحاً . وأمر الفاطميين في إباحتهم أنواع اللهو ، وخروجهم إلى المناظر أيام النيل وغيره ، وما كانوا يأتونه في المواسم ويأتيه الناس بمرأى منهم ، كل ذلك معروف متعلم .

فكان اقتداء الشعب بهم شيئاً مستلزماً لفعلهم ، وخصوصاً من الشعراء الذين هم أسرع الناس إلى إجابة دواعي اللهو والإفلات من قيود الآداب .

فأما في الدولة الأيوبية فلم يكن مثل ذلك مستساغاً به لأن ملوكها كانوا على حال من الإصلاح لا تسمح بجرأة الناس على ما كانوا يأتونه من قبل .

وأمر صلاح الدين في الإصلاح مشهور ، كان محافظاً على الصلوات في أوقاتها ولا يصلي إلا في جماعة (١) وكان لا يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتان والقطن والصوف ، وكانت مجالسه منزهة عن الهزل ومخافله حافلة بأهل العلم والفضل (٢) قال العماد الأصبهاني رأى (صلاح الدين) معي يوماً دواة محلاة بالفضة فأذكر على وقال ما هذا !! فلم أكتب بها عنده بعدها (٣) .

وقالوا عن العزيز بن صلاح الدين : « إنه كان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً إلى الناس معتقداً في أرباب الخير والصالح سمع بالإسكندرية من الحافظ السلفي وأبي طاهر الزهرى ، وبمصر من ابن برى (٤) .

وكان العادل عفيف الفرج لا يعرف له نظر إلى غير حلاله (٥) ، وقالوا عن الملك الكامل ، أنه كان عفيفاً طاهراً اللسان والذيل لا يرى الهزل ولا العبث وكان إذا سمع الغناء لا يتزعزع ولا يتحرك (٦) .

وقد حكم صلاح الدين بقتل السهروردي لما اتهمه الناس بأنه قال في بعض كتبه : إن الله قادر على أن يخلق نبياً . (٧)

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩

(٢) المرجع السابق ص ٨

(٣) المرجع السابق .

(٤) الوفيات ج ١ ص ٣١٥

(٥) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٦٧

(٦) المرجع السابق ص ٣٣١

(٧) المرجع ذاته . ص ١١٤

فقد عدل شعراء هذه الدولة عن ولوج هذه الأديرة والاجتماع على حالة منكورة في المنزهات كما كان يفعل من قبلهم ، وقد أبدلهم الله من هذه المجتمعات بمجتمعات نافعة ، وسمر مفيداً يتناشدون فيه أشعاره ويتطارحون البدائيه ويتعايرون بالألغاز ، ويتبادلون النقد لأقوالهم وغير ذلك مما يحرك الأذهان ويبعث على الكمال ، ويحفز القرائح إلى الإجابة .

وفي هذه الأمكنة التي أعدوها لاجتماعهم ولعلها كانت أمكنة تعد من أجل ذلك ، فهي ليست دار أحدهم ولا مجلس أمير من الأمراء. بل هي من نوع الأندية التي يجتمع فيها اليوم أهل دراسة واحدة أو مهنة خاصة لتبادل الآراء والنظر في المصلحة المشتركة بينهم .

ولعلمهم في هذه الأندية كانوا يستقبلون من يقدم إليهم من ضيوف مصر من الشعراء فيقيمون لهم المآدب ويحتفلون بتكريم ضيوفهم .

تقرأ عن هذه الأندية في وفيات الأعيان (١) . قال في ترجمة ابن سناء الملك « وافق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المحيدين ، وكانت لهم مجالس تجري بينهم فيها مفاهات ومحاورات يروق سماعها . ودخل في ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين ابن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات وكان يجتمعون على أرغد عيش ، وكانوا يقولون هذا شاعر الشام . وجرت لهم محافل سطرت عنهم ولولا خشية الإطالة للذكرت بعضها . » ١١١١٩

والذي استطاله ابن خلكان وخشى الإملال به قد تلافاه ابن شاعر في فوات الوفيات (٢) . فحكى مجلساً لشعراء مصريين أيوبيين اجتمعوا في مسجد في ليلة من ليالي رمضان في جامع بعد الصلاة وقد وفد فانوس السحور فاقترح بعض الحاضرين على الأديب أبي شجاع يوسف المنبوز بالنعجة أن يصنع فيه شعراً وإنما طلب بذلك إظهار عجزه فصنع وأنشد .

ونجم من الفانوس يشرق ضوءه ولكنه دون الكواكب لا يسرى
ولم أر نجماً قط قبل طلوعه إذا غاب ينهى الصائمين عن الفطر

(١) ج ٢ ص ١٨٩

(٢) ج ٢ ص ٦٥ وما بعدها .

قال على بن ظافر فانتدبت له من بين الجماعة وقلت له : هذا التعجب لا يصح
لأننا رأينا نجوماً لا تدخل تحت الحصر ولا تحصى بالعد إذا غابت تنهى الصائمين عن
الفطر وهي نجوم الصباح فأسرف الجماعة في تقريره . فصنع أيضاً وأنشد :

قالوا لواء سحور يستضاء به وعسكر الشهب في الظلماء جرار
والصائمون جميعاً يهتدون به كأنه علم في وسطه نـار
فلما أصبحنا سمع من كان غائباً من أصحابنا في ليلتنا ما جرى بيننا فصنع الرشيد
محمد بن متانوس وأنشدني :

أحب بفانوس غذا صاعداً وضوؤه دان من العين
يقضى بصوم وبفطر معاً فقد حوى وصف الهالين
وصنع الفقيه القلعي :

وكوكب من خرام الزند مطلعته تسرى النجوم ولا يسرى إذا رقبا
يراقب الصبح خوفاً أن يفاجئه فإن بدا طانعا في أفقه غربا
كأنه عاشق وافي على شرف يرعى الحبيب فإن لاح الحبيب خبا
ثم ذكر على بن ظافر أنه صنع وأن غيره صنع في كلام طويل نكلت فيه إلى كتاب
ابن شاعر لاستعياب ما ورد به .

شعراء الدولة الأيوبية بمصر

- ١ - أم علي تقيّة : طارئة ، (٥٧٩) ، شاعرة صحبت السلبي بالإسكندرية
- ٢ - علي بن أحمد بن عرام الأسواني : أصيل ، (٥٨٠) ، ذكره في الخريدة
- ٣ - فخر الدين إبراهيم بن محمد الأسواني : أصيل ، (٥٨١) ، شاعر كاتب
كتب لصالح الدين ذكره في حسن المحاضرة (١) .
- ٤ - القاضي الفاضل عبد الرحيم اليبساني : أصيل ، (٥٩٦) ، شاعر له
ديوان وكاتب خديم الدولة الفاطمية ثم الأيوبية .
- ٥ - العماد الأصبهاني محمد بن أحمد : طارئة ، (٥٩٧) ، شعر له ديوان
وكاتب خديم صلاح الدين .

- ٦ - جعفر بن محمد العلوي : أصيل ، بعد ٦٠٠ سنة ، شاعر ذكره صاحب الفوات ج ١ ص ١٣١ .
- ٧ - ابن الساعاتي على بن رستم : طارئ ، (٦٠٤-) ، شاعر له ديوانان أحدهما في النيل (الوفيات ج ١ ص ٣٦٢) .
- ٨ - الأسعد مهذب الدين بن ممانى : أصيل ، (٦٠٦-) ، شاعر له ديوان شعر ونظم كليلة ودمنة وسيرة صلاح الدين (١) .
- ٩ - أحمد أبو الرضا النيلي : أصيل ، (٦١٣-) ، شاعر مدح صلاح الدين بقصيدة فأعطاه خمسمائة دينار (٢) .
- ١٠ - النجيب بن الدباغ : أصيل ، (٦١٦-) ، شاعر وأديب ذكره في حسن المحاضرة ج ٣ ص ٣٢٦ .
- ١١ - علي بن محمد بن النيه : أصيل ، (٦١٩-) ، شاعر له ديوان شعر ، مدح بني أيوب واتصل بالملك الأشرف (٣) .
- ١٢ - مجد الملك جعفر بن شمس الخلافة : أصيل ، (٦٢٢-) ، شاعر له ديوان شعر ، مدح ابن شكر وزير العادل والكمال (٤) .
- ١٣ - مظفر الأعمى : أصيل ، (٦٢٣-) ، شاعر له ديوان شعر ، ذكره ابن خلكان ج ٢ ص ٩٨ .
- ١٤ - علي بن ظافر : أصيل ، (٦٢٣-) ، شاعر وزير للملك الأشرف وله تأليف منها بدائع البدائ (٥) .
- ١٥ - ثابت بن حسن الكريوني : أصيل ، (٦٢٥-) ، شاعر جيد الشعر ذكره في البغية ص ٢١٠ .
- ١٦ - راجح الخلي : طارئ ، (٦٢٧-) شاعر سار شعره ومدح الملوك ذكره في حسن المحاضرة (٦) .

-
- (١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٨
 - (٢) البغية ص ١٨٠
 - (٣) الفوات ج ٢ ص ٨٩
 - (٤) الوفيات ج ١ ص ١١٣
 - (٥) الفوات ج ٢ ص ٦٤
 - (٦) ج ١ ص ٣٢٦ .

- ١٧ - ابن الفارض عمر بن أبي الحسن : أصيل ، (٦٣٢-) ، شاعر صوفي له ديوان شعر
- ١٨ - الحسين ابن خيَّون المصري : أصيل ، (٦٣٣-) ، شاعر أديب تصدر بجامع مصر لإقراء الأدبيات (١) .
- ١٩ - البرهان بن الفقيه نصر : أصيل ، (٦٤٠-) ، ذكره في المغرب ج ٤ ص ٨٨
- ٢٠ - ابن بُصافة نصر الله : أصيل ، (٦٤٦-) ، كاتب شاعر له ديوان شعر (٢) .
- ٢١ - جمال الدين بن مطروح : أصيل ، (٦٤٩-) ، شاعر له ديوان شعر ، خدام الصالح أيوب ، وكان يوماً ناظر الخزانة بمصر (٣) .
- ٢٢ - عبد العظيم بن أبي الإصبع : أصيل ، (٦٥٤-) ، شاعر مشهور وإمام في الأدب (الفوات ج ١ ص ٣٧٤) .
- ٢٣ - بهاء الدين زهير : أصيل ، (٦٥٦-) ، شاعر وكاتب له ديوان شعر خدام الملك الصالح نجم الدين (٤) .
- ٢٤ - سيف الدين المشعر : أصيل ، (٦٥٦-) ، شاعر له ديوان شعر (الفوات ج ٢ ص ٧٩) .
- ٢٥ - هبة الله بن سناء الملك : أصيل ، (٦٥٨-) ، شاعر وكاتب له ديوان شعر وكتاب الطراز في الموشحات (٥) .
- ٢٦ - علي السليماني الأربلي* : أصيل ، (٦٧٠-) ، شاعر صوفي له بديعية ، (الفوات ج ٢ ص ٧٢) .
- ٢٧ - علي ابن سعيد المغربي : طارئ ، (٦٧٣-) ، شاعر مؤلف له كتاب المغرب في أهل المغرب وله غيره (٦) .
- ٢٨ - يحيى أبو الحسين الجزائر : أصيل ، (٦٧٩-) ، شاعر مخضرم الدولتين

(١) البغية ص ٢٣٣ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٦

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٥٧

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٩٤ .

(٥) الوفيات ج ٢ ص ١٨٨

(٦) الفوات ج ٢ ص ١١٢

(الأيوبية، والمماليك) له منظومة في أمراء مصر انتهى بها إلى الظاهر بيبرس وهي مخطوطة (١) .

٢٩ - على بن الحسين الذروي : أصيل ، مدح الأمير بن منقذ (الوفيات ج ١ ص ٤٤٢ ترجمة بن منقذ) .

٣٠ - على بن عمر القوصي : أصيل ، شاعر ذكره الأصبهاني في الخريدة .

٣١ - الحسن بن شاور : أصيل ، ذكره بن فضل الله في المسالك والسيوطي في حسن المحاضرة (٢) .

أصحاب الدواوين الباقية

من هؤلاء الشعراء

هم على الترتيب :

(١) القاضي الفاضل : ديوانه مصور تصويراً شمسياً بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨٥٩ .

(٢) ابن الساعاتي : ديوانه (مقطعات النيل) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٨ ، أما ديوانه الثاني فمفقود .

(٣) ابن النبيه : ديوانه مطبوع

(٤) ابن الفارض : «

(٥) ابن مطروح : «

(٦) بهاء الدين زهير : «

(٧) ابن سناء الملك : ديوانه مصور تصويراً شمسياً بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٣١ ، الديوان المسمى (دار الطراز) جمع فيه موشحات ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٣٨

(١) الأعلام للزركلي ج ٣ ص ١١٥٠

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٦ .

وسنعرّف القارىء بهذه الدواوين تعريفاً بسيطاً يقرّبها إلى تصوّره ليأنس بها إذا لم يكن رآها بعد . ونبدأ بالمطبوع منها على الترتيب السابق .

١ — ديوان ابن النّبيه :

مطبوع بالمطبعة العلمية بالقاهرة سنة ١٣١٣ هـ وقد حل ألفاظه وأبان عن أغراضه المرحوم عبد الله فكرى باشا ناظر المعارف المصرية .

والديوان يشتمل على ٩٥ صفحة من القطع المتوسط . وقد جعله صاحبه مجاميع معنونة كلا منها بعنوان وقد بدأه الشاعر بمقدمة صغيرة . ثم عقد عنوان « الخلفيات » للقصائد التي مدح بها الناصر أمير المؤمنين ثم « العادليات » يمدح بها العادل أخا صلاح الدين ثم « الأشرفيات » يمدح بها السلطان الأشرف موسى بن أبي بكر .

ثم يختم بقطع في الغزل ومنها ما يمدح به الكاتب أسعد بن ممتان والقاضي الفاضل . قال يمدح الأشرف ويحرّضه على قتال الإفرنج (١) .

هوينة رشى الطرف والجيد بدري ما بين تصفيف وتجميع

ومنها يقول في مدحه وتحريضه على الإفرنج (٢) .

يا حارس الدين لما نام حارسه	وناظما شمله من بعد تبديد
تظنك الناس في خفض وفي دعة	جهلا وكم مستريح الجسم مكود
جهاز جيوشك إن الثغر قد عبث	به الفرنج فأضحى غير مسدود
أيدركون به أوطار قدسهم	منكم وذلك ملك غير مردود
يا للرجال أياديكم لنازلة	تستزل الماء من صم الجلاميد
أين الحمية هبوا من منامكو	إما لعاجل دنيا أو لمعبود

ومن أشرفياته قوله (٣) .

الله أكبر ليس الحسن في العرب	كم تحت لمة ذا التركي من عجب
صبح الجبين بليل الشعر منعقد	والحد يجمع بين الماء واللهب

(١) ص ٧٥ من الديوان

(٢) ص ٧٧ من الديوان

(٣) ص ٣٨ من الديوان

تنفست عن عير الراح ريقته
لاني العذيب ولا في بارق غزلي
ثغر إذا ما الدجا ولي تنفس عن
ومنها في المدح يقول :

ملك يفرق يوم السلم ما جمعت
ثبت تحف جماهير الجيوش به
ومن قوله في الأشرف وقد غنى في عصرنا بمفتتح هذه القصيدة وهو (١) .

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه
يأبها الوجه الجميل تدارك الصبر
هل في فؤادك رحمة لتسيم
هل من سبيل أن أثبت صبابتي
إني لأستحيي كما عودتني
ومن قوله متغزلا : (٣)

يا تاركى أخــــــــــــــــــــــذتني
أحلت سلـــــــــــــــــوانى على
ونمت عن ذى أرق
ما نصبت أشراك
فأى قلب لم يقع
قلبي على الترك بهذا
عقدة قاف لفظــــــــــــــــــــه
ولى عهد البدر إن
خلعت إذ بايعتــــــــــــــــــــه
أخذ عزيز مقتدر
ضامن جفن منكر
إذا غفا النجم سهــــــــــــــــر
الحاظـــــــــــــــــك إلا للحذر
وأى لب لم يطــــــــــــــــر
البـــــــــــــــــدوى يفتخر
تحل عقــــــــــــــــد المصطبر
غاب فإني منتظر
عذار من لا يعتــــــــــــــــدر

★ ★ ★

(١) ص ١٩ من الديوان .

(٢) الظلم : الأول بالضم وهو الجود والثاني بالفتح وهو الريق .

(٣) ص ٤ من الديوان .

والديوان أغلبه مدح للسلطين وتعظيم لشجاعتهم وإطراء لبطولتهم وإعجاب بانتصارهم على النصارى وتحريض لهم على قتالهم ويغلب عليه بعد ذلك الغرض غرض

فى خلقه وخلقه ————— طبع الغزال والنمر
إن طريقى نا ظرى ————— إلى محيىاه خطرى

والديوان أغلبه مدح للسلطين وتعظيم لشجاعتهم وإطراء لبطولتهم وإعجاب بانتصاراتهم على النصارى وتحريض لهم على قتالهم ويغلب عليه بعد ذلك الغرض غرض الغزل الذى هو سلوانة الشعراء فى كل العصور يقولونه إظهاراً للمهارة وإدلالاً بسمو الخيال، وليس له فى نظرى غور من خبث طوية أو إقبال على لؤى ، لذلك تراه مجرداً من ذكر الخمر المشروبة التى يظهر أن معاقبتها كانت جرماً لا يقبل فيه عذر .

ويصح أن نذكر هنا قصة وقعت لأم على تقيّة الشاعرة ؛ فقد نظمت قصيدة تمجدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر بن أنخى صلاح الدين ، وكانت القصيدة خميرية فوصفت آلة المجلس وما يتعلق بالخمر فلما وقف عليها قال : الشيخة تعرف هذه الأحوال من زمن صباها فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف ثم سبرت إليه تقول : علمى بهذا كعلمى بهذا وكان قصدها براءة ساحتها مما نسبها إليه . (١)

تمس الصنعة البديعية عبارة الديوان من بعيد فليس فيه ذلك الإغراق فى الجنس أو غيره من أنواع البديع ، فإن العهد بذلك فى مصر لم يحل بعد ، فالفطرة لا تزال تجرى فى كل ما يقول المصريون عامة ، وليس ذلك بمناع أن يكون قوم من بلغائهم قد سبقوا الزمن فكان منهم إغراق فى البديع لم يلحقهم فيه من جاء بعدهم .

٢ — ديوان ابن الفارض :

مطبوع بمصر بالمطبعة الحسينية سنة ١٣٣١ سنة ١٩١٣ ، مذيّل بشرح مافيه من المفردات الغامضة .

والديوان يشتمل على مائة وعشرين صفحة من القطع الكبير .

وشعره كاه من الشعر الصوفى الذى ترمى ألفاظه إلى معان وإشارات متعارفة عند أهل التصوف فهم يذكرون الخمر والسكر والمحبوب والهيام والواشى والرقب ويريدون

(١) الوفيات ج ١ ص ٩٦ .

بكل ذلك معاني صوفية من الإلتذاذ بالعبادة والتفاني في حب الله والتعلق بذاته وطمع الوصول إلى رضاه .

فالديوان ليس على مألوف العادة في الدواوين الشعرية ، فهو لايشتمل على مدح وهجاء وأغراض أخرى مما يتناوله عامة الشعراء ، بل كله غزل وهيام وحب ومجالس أنس ووصل وهجران ، ولكنه في ذات الله سبحانه وتعالى .

وابن الفارض قد طال نفسه في بعض قصائد الديوان فبلغت تائيته الكبرى واحدا وستين وسبعمئة بيت وهي التي مطلعها .

سقتني حميا لحب راحة مقلتي وكأس حميا من عن الحسن جلت
وبلغت تائيته الصغرى مائة بيت وثلاثة وأولها :

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبي فياحبنا ذاك الشدا حين هبت
وقد تكلف ابن الفارض البديع وظهرت فيه مقدرة فائقة بتوقيفه بين ألفاظ الغزل ومعاني القوم الرقاق ورموزهم الدقاق . ولم يسبقه إلى ذلك إلا ابن العربي الأندلسي المتوفى بالمشرق سنة ٦٣٨ .

وقد كانت طريقة ابن عربي نبراسا هدى القوم إلى ما شاع بينهم من لباس ألفاظ الغزل لمعاني التصوف ، فيكون ابن الفارض قد استملى طريقته منه فعمل على نهجها .
من تائيته الكبرى بعد المطلع السابق (١)

فأوهمت صبحي أن شرب شرابهم	به سر سري في انتشائي بنظرة
وبالحدق استغنيت عن قدحي ومن	شمائلها لا من شمولي نشوق
ففي حان سكري حان سكري لفتية	بهم تم لي كتم الهوى مع شهوتي
ولما انقضى صبحي تقاضيت وصلها	ولم يغشني في بسطها قبض خشية
وأبتلها ما بي ولم يك حاضري	رقيب لها حاذ بجلوة جلوتي

ومن تائيته الصغرى بعد المطلع السابق : (٢)

سرت فأسرت للفؤاد غدية	أحاديث جيران العذيب فسرت
مهممة بالروض لدن رواؤها	بها مرض من شأنه براء عتي

(١) ص ٢٣ من الديوان .

(٢) ص ١٦ كذلك

لها بأعشاب الحجاز تحرش
تذكر في العهد القديم لأنها
ومن شعره : (١)

قلبي يحسنني بأنك متلني
لم أقض حق هوائك إن كنت الذي
ما لي سوى روحى ، وباذل نفسه
فلئن رضيت بها فقد أسعفتني
وقوله : (٢)

أدر ذكر من أهوى ولو بسلام
ليشهد سمعي من أحب وإن نأى
فلى ذكرها يجلو على كل صيغة
كأن عدوى بالوصال مبشرى
بروحى من أتلفت روحى بحبها

وفي آخر الديوان مقطوعات كثيرة أغلبها في الغزل على طريقتة ، ومنها الغاز .
قال ملغزا في بقلة (٣) .

ما اسم قوت لأهله
قلبه إن جعلته
مثل طيب تحبه
أولا فهو قلبه
وقال ملغزا في حلب : (٤)

ما بلدة بالشام قلب اسمها
وثلاثه إن زال من قلبه
تصحيفه أخرى بأرض العجم
وجدته طيرا شجي النغم
وثلاثه نصف وربع له
وربعه ثلاثاه حين انقسم

(١) ص ٨٨ كذلك .

(٢) ص ٩٥ من الديوان .

(٣) ص ١١٢ أيضا .

(٤) ص ١١٣ من الديوان .

ونظن أنه قد اتضح لك جليا الفرق بين ابن النبيه وابن الفارض في استعمال البديع والحرص عليه؛ فابن الفارض ملج مكثر وابن النبيه يترك الأمر للطبع فيقع له دون أن يشعر قارئ شعره به . وهذا هو بديع الفطرة كما قلنا .

٣ - ديوان ابن مطروح :

مطبوع بمطبعة الجوائب بالاستانة سنة ١٢٩٨ هـ .

وهو ضمن مجموعة بدئ فيها برقم ١٧٣ وانتهى برقم ٢١٨ فهو ٣٩ صفحة يبدأ بمدح السلطان الكامل بن العادل . ومنه . (١)

قدست من ملك عظيم الشأن	متابع الحسنات والإحسان
متوقد العزمات فياض الندى	حدث عن النيران والطوفان
كم يلهجون بقيصر من قيصر	في ذا المقام ، وصاحب الإيوان
تتراحم التيجان في إنبوانه	عند السلام ولا بسو التيجان
حتى إذا بصرت به أبصارهم	خروا لهيبته إلى الأذقان
ويروقههم بمقامه ويروعههم	بشر الندى وجلالة السلطان
إن الملوك بأسرهم خول له	حاشا أبيه كلاهما سيان

وختامها : (٢)

لله رايتك التي قد أصبحت	معقودة بالأمن والإيمان
أني قصدت بها رجعت وتحتها	ملك لمطيع أو أسير عان
أمنت حتى العفر في راماتها	وأخفت حتى الأسد في خفان
ونشرت عدلاك في البرية كلها	حتى استوى القاصي بها والسداني

وقال وكتب جواب أبيات راسله بها وهو مريض ، بهاء الدين زهير (٣)

أيا من راح عن حالي يسائل مشفقاً حديدا
ومن أضحى أخا لي في السواد وفي الخسوا أبدا

(١) ص ١٧٥ من الديوان .

(٢) ص ١٧٦ .

(٣) ص ١٩٥ من الديوان .

(٢) ص ٢٠٤ .

وحقك لو نظرت إلى كنت تشاهد العجبا
جفونا تشتيكى غرقا وقلبا يشتيكى لها
وجسما جالت الأسقا م فيه فراح متهبها
تسائل أنفس الواشين عنى أعين الرقبها
فتذكر أنها لحقت خيالا فى خلال هبا
فواحربا وهل يشفى المتيم قول واحربا
فبالود الذى أمسى وأضحى بيننا نسا
إذا أنا مت فاندبىنى فرب أخ أخا ندبا
وقل مات الغريب فأيسن من يبكى على الغربا
قضى أسفلا كما شاء الغرام وما قضى أربها

وأغلب الديوان مقطعات ، ومنها قوله فى ملىح ملسوع (١)

قالوا حبيلك ملسوع فقلت لهم من عقرب الصلغ أو من حية الشعر
فقل بل من أفاعى الأرض قلت لهم من أين تسعى أفاعى الأرض للقمر

ورأينا فى شعر ابن مطروح أنه من طبقة شعر ابن النبيه يغلب عليه الطبع ولا يبين
فيه تكلف البديع وعبارته وسط بين الجزالة والليونة فهو شعر ابن النبيه يمثلان عصرهما
فى مصر تمثيلا واضحا .

٤ — ديوان بهاء الدين زهير :

مطبوع بمطبعة شرف موسى . وعدد صفحاته ١٥٦ من القطع المتوسط مرتبة قوافيه
على أحرف الهجاء .

والديوان كدواوين بقية الشعراء مدح وغزل ووصف وهجاء ، إلا أن الغزل
والإخوانيات أغلب على الديوان من الممدح وغيره .

كتب إليه ابن مطروح يذكر أنه مريض فأجابه (٢)

(١) ص ٢٠٤ من الديوان .

(٢) ص ١٦ من الديوان .

أيا من جاعنى منه كتاب يشتكى الوصبا
بعيد عنك ما تشكو وبالواشين والرقبا
لقد ضاعفت ياروحى لروحى الهم والوصبا
وقلت لعله ألم يكون له الهوا سيبا
ورحت أظنه قولا يكاذبنى له لعبا
فليت الله يجالسه وحاشا سيدى كذبا
فأجابه ابن مطروح بما ذكرناه فى الكلام عن ديوانه .

وقال البهاء يمدح صلاح الدين بن يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر
غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ملك دمشق سنة ٦٤٨ (٢) .

لكم منى الود الذى ليس يرح ولى فيكم الشوق الشديد المبرح
وكم لى من كتب ورسلى إليكم ولكنها عن لوعتى ليس تفصح
وفى النفس مالا أستطيع أبشه ولست به للكتب والرسلى أسمع
وقال وقد حضر مع جماعة يقولون بالمروان :

أيا معشر الأصحاب مالى أراكم على مذهب والله غير حميد
فهل أنتم من قوم لوط بقية فما منكم من فعله برشيد
فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكمو ببعيد

وقد هنا المنصور بن العزيز بعيد النحر فقال : (٢)

يهنتك المملوك بالعرش والشهسر وبالعيد عيد النحر يا ملك العصر
وينهى إلى العلم الشريف بأنه على قدم الإخلاص فى السر والجهر
وهأنذا أدعو لك الله دائماً مع الصلوات الخمس والشفع والوتر
وإلى لأرجو أن جودك شاملى قريبا على قدر اهتمامك لا قدرى
وإنك إن أوليتنى منك أنعمما فإنى ملىء بالدعاء وبالشكر

ومن غزله : (٣)

دعوى وذاك الرشا فوجدى به قد فشا

(١) ص ٢٩ من الديوان .

(٢) ص ٧٥ من الديوان .

(٣) ص ٨٣ من الديوان .

حلالا حلالا لله يعذبني كيف شا
سرت خمرة الريق في معاطفه فانتشي
فيا مشتي ذاك القوام وياطي ذاك الحشا
مشي لي في خفية فيا حبذا ما مشي
وليس عجبيا بأن يرى الظبي مستوحشا

وله يستدعي لزيارة (١)

لي منزل إن زرتيه لم تلتق إلا كرمك
وإن تسئل عن به لم تلتق إلا خدك

وأنت ترى أكثر معانيه عامية مبتذلة صاغها في ألفاظ شبيهة بها . وقد رق شعر
البهاء ولان حتى سأل أو كاد ولا ترى في قديم ولا حديث من كانت له مثل رفته ،
ولو أنه حرص مع هذا الطبع على الترفع عن الابتذال في اللفظ والمعنى لكان المثل الأعلى
لشعر الحضري . وتراه لا يمس البديعات إلا مسا خفيفا لأن محاولتها تكلف وهو ما ياباه
طبع البهاء الصافي الشفاف .

٥ - ديوان القاضي الفاضل :

يوجد بدار الكتب المصرية مصورا بالتصوير الشمسي تحت رقم ٧٤١٩ أدب
ورقم ٤٨٥٩ كذلك . ويشتمل الديوان على ١٨٠ صفحة من القطع المتوسط وتشتمل
الصفحة على ٢١ سطرا . وخط الديوان بالنسخ الجميل الواضح .
وأوله بعد البسملة بلا مقدمة . قال الإمام العلامة الكاتب الماهر والناظم الناثر
عبد الرحيم بن علي البيساني الشهير بالقاضي الفاضل ، أمطر الله ثراه صوب رضوانه
الهاطل . ثم تروى قصيدة ميمية بلا عنوان أولها (٢) :

داء ولكنه داء بلا ألم شيب ألم برغم العين باللمم
أما وقد قيل ضيف للمشيب فلا يلقاه والله وجهي غير مبتمم
وزادني في علا قدرى وقار نهي فالنور بالعلم أو فالنار بالقلم

(١) ص ١٣٩ من الديوان .

(٢) ص ١ من الديوان .

تبسمت في ظلام الشعر طالعة
إن تطلب العيش إذ ولى الصبا فلمن
من علم انقلم الجارى بعارضه
والقصيدة كلها في الغزل .

والديوان يشتمل على مدائح وأهاج وأوصاف وغزليات وهو غير مرتب القوافي ،
والغالب عايه عدم عنونة القصائد خصوصا التي قالها في المدح أو الهجاء فهي مهملة من
ذكر اسم الممدوح أو المهجو في عنوانها كما جرت العادة بذلك .
ومن مدائحه قوله : (١)

جهداك حكم الله ليس بمصدود
سفينة نوح ما ركبت وعسكر
كأنا ببحر الكفر قد غيض مساؤه
ولا يخلف الله المواعيد بعد ما
وعز ملك أمر الله ليس بمردود
كطوفانه والشام بالفتح فد نودى
إذا ما استوت سفن لها القدس كالجودي
بعثت القنا مستنجزا للمواعيد

ومن مدائحه قوله ، ولم يعنونه أيضا (٢)

إليك بعد انقضاء الجدد واللعب
ما زال جارك ذو القرى الفؤاد وقد
فالعمر كالأكاس والأيام تمزجه
أقول إذ عاض منى فيض فضته
نار وإن لم تكن كالنار محرقة
ولى صباه وأبقى شهب ليلته

ومنها في المدح :

بحر وما قلت تشبيها وكيف به
ماضى المراسيم مدلول الفؤاد على
كأنما سيفه المرأة فى يده
وما رأيت صروف الدهر إن أخذت
فضائل إن تشم كالنجم فى صعد
إن البحار لذاك البحر كالقلب
مالا ترى العين فى الأسرار من حرب
فكل غائب أمر عنه لم يرغب
طريقها لم تجده آخذ الأهـب
ونائل إن يسم فالنيل فى صهب

(١) ص ٥ من الديوان .

(٢) ص ٦ من الديوان .

ومن مقطوعاته قوله في الشعر وبقائه على الدهر : (١)

ولم أر قرنا يعجز الدهر حربه سوى الشعر إن الشعر يبقى على الدهر
تنير جميع الزهر ليلا وتنطفئ مع الفجر إلا أنجم الشعر في الفجر
ومنها في صفة الحبيب المريض : (٢)

صفرة بالحبيب راعت من السقم وأخرى على الحبيب تروق
فاذا ما رأيت هذا وهذا قلت من منهما هو العشوق
ومما قال من مقطوعة في الشكر (٣) .

لك عندي يد وما لسانك بيد تملأ الرؤوس ، يـ
والبيان الصحيح عندك لا عندي ولكن الحال فوق اللسان
حفظ الله من زمانى زمانى وبحق أدعو فأنت زمانى
وقال مهنتا بمولود ومضمنا (٤)

ليهنك شبل جاء من أسد ورد سيهدى إلى طرق المكارم والمجد
أقول وقد وانى البشير بذكره على الطائر الميمون والطالع السعد

والديوان على هذا النمط من التعسف والبديع المترابك . لذلك فهو يكدر الخاطر
ويغيب الذهن والحصول بعد ذلك من المعنى لا يستوجب كل هذا الكد ولا يستأهل كل
ذاك العناء . ورأى أن كتابة القاضي الفاضل على ما فيها من بديع كثير وتكلف معى
هى أيسر من شعره ، وكدها أقل من كده ، لأن في النثر فرجة واتساعا يسترخ معهما
القارئ ، وفيها استطاع التمهيد لما يريد المنشئ من تورية أو نحوها فيستعد الذهن
لتلقيها ، أما الشعر فهو إيجاز تزدحم فيه هذه البديعيات فيصعب على الذهن تتبعها
ويعانى مشقة في تحصيلها .

والقارئ بعد في غنى عن تنبيهه إلى مواضع البديع في الشعر الذى رويناه من هذا
الديوان . ويكفى أن ندل القارئ على ما جمع من البديع في قوله .

(١) ص ١٧١ من الديوان .

(٢) ص ١٧١ من الديوان .

(٣) ص ٧٢ من الديوان .

(٤) ص ٤٤ من الديوان .

تنير جميع الزهر ليلا وتنطفي مع الفجر إلا أنجم الشعر في الفخر
فلان فيه مقابلة بين تنير ليلا ، وتنطفي مع الفجر . ثم مراعاة نظير بين تنير وزهر
وأنجم . ثم الجناس بين الفجر والفخر ويلاحظ هنا أن اختيار وصف الشعر بكونه في
الفخر وتخصيصه بذلك لم يحمل عليه إلا إرادة الجناس بين فجر وفخر وإلا فالشعر باق
على الأيام في أى غرض كان .
وكذلك قوله :

فضائل إن تشم فالنجم في صعد ونائل إن يسم فالنيل في صيب
ففيه جناس بين يشم ويسم . وطباق بين صعد وصيب . ثم تقسيم بين شطرى البيت .
وكذلك قوله قبل ذلك .

أقول إذ عاض منى فيض فضته يا وحشى لشباب ذاهب الذهب
ففيه بين فيض فضته وذاهب الذهب مقابلة . أراد بفيض الفضة بياض الشيب
الذى انتشر على عارضيه وفوديه ، وبذاهب الذهب ماضى من شعره الأحمر ويكون
اختياره حمرة الشعر اضطرارا ألجأه إليه البديع إلا أن يراد بالذهب حمرة الوجه
تورد الخلد .

٦ — ديوان ابن الساعاتي

المعروف بمقطعات النيل

مخطوط بدار الكتب المصرية بخط النسخ الجميل تحت رقم ٥٢٨ أدب ويشتمل
على ٣٢٨ صفحة بكل صفحة ١٩ سطرا غالبا .

وأول الديوان بعد البسملة « قال الشيخ بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن
الساعاتي رحمه الله يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم: وقد وازن بها « بانث سعاد »
وقد أثبتناها جميعها في الديوان تبركا بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأولها :

جد الغرام وزاد القال والقيـل وذو الصباية معذور ومعـذول
يا دمية الحى ما حزنى لفرقتكم دعوى ولا وجدى العذرى منحول
ظللت في الدار أبكيها ويضحكها دمع على تلکم الأطلال مطلول
والقصيدة طويلة .

ولا ندرى سبب تسمية الديوان بمقطعات النيل مع أنه يشتمل على قصائد برمتها ولا تغلب عليه المقطعات حتى يصح أن تكون هذه الغلبة سبب التسمية . بل المقطعات توجد فيه بنسبة غيرها في غيره من الدواوين ، ولكن يظهر أن قصائده لم ترو برمتها ولذلك نرى جامع الديوان يقول : (قال من قصيدة يمدح ...) فلعل هذا هو السبب في التسمية بالمقطعات .

والديوان يشتمل على المدح والثناء والهجاء والغزل وغير ذلك من الأغراض الشعرية الشائعة ، وفيه كثير مما قاله الشاعر بديها مقترحا وغير مقترح ومن ذلك البديع قوله متغزلا (١)

وأهيف ساجي الطرف باد سنه
بدا حاملا مرآته وسلافة
كغصن النقا ، كالطبي ، كالقمر التم
فقابلني بالشمس والبدر والنجم

ومنه قوله وقد طاب منه إجازة (رعاك الله ياسلمى رعاك) (٢)

أعرك أننى جلد جليد
فما لقتيل يوم البين ثار
فسنى ضاحك والقلب باك
ولا لأسير حبك من فكاك
دعاني الصبر عنه فلم أجبه
فمالك قد أجبت وما دعاك
عصيت الأمرى بالصبر عنكم
فكيف أطعت عني من نهاك
رعاك الله إن الظلم عار
ومن كلف الهوى قولى رعاك
فأنت الشمس؛ لاتدنو لباغ
وأنت الدهر لايرث لشاك
أخاف سيوف قومك من معد
وما كانت بأقتل من هواك
رضيت بأن أخاف وأنت سلم
وهان على سخطى فى رضاك

وقال من قصيدة يمدح بها الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين (٣)

دعاني من ذكر العذيب وعهده
إذا ما تهادى بعد وهن نسيمها
فإن الصبا تلقى فؤادى بوجده
تحدث عن بان الكئيب ورنده
حنين كصرف البابلى إلى الحمى
يزيد به سكر تقادم عهده
وشوق يبيح الدمع ذكر غصونه
ويسطو على هزل الغرام بحده
وقد وعد الين المشت بسلاوة
ومن لى بأن الين منجز وعده

(١) ص ٣٧ من الديوان .

(٢) ص ٢٣ من الديوان .

(٣) ص ٣٦ من الديوان .

ويقول في تلخيصها :

وكنّت إذا خل تنكّر وده نأيت وبعض النأى أبقي لوده
وما هجر الأوطان من وصل السرى إلى نائل الملك العزيز ورفسه
وبهذا التلخيص انتهى المروى من القصيدة ، مما يدل على ما قدمناه من أن القصائد
ليست تامة بل يؤتى بمختار منها فقط .

والغزل غالب على شعرا بن الساعاتى ، فهو يملأ مفتتح قصائده ويغلب على مقطعاته
مما يدل على رقة طبعه .

وأرق ما نراه في غزله : خفة وزن ورقة معنى قوله :

شف قلبى دلالة	من شفائى وصاله
وغرامى يخاله	جل عماليخاله
فارسى نجاده	يوسنى اجمهاله
إن زعمتم أن الهوى	ليس تصمى نبهاله
فمنامى من غاله	وهددوى ما باله
يا ملولا ما شأنه	عند قلبى ملا له
إن من أنت شغلله	لا تسئل كيف حاله
وعددوى فيه	وأضيع شىء مقالله
خل قلبى وحببه	فهددى ضلاله
ورضاه وسلوى	عنه مالا أناله
فممانى إعراضه	وحىأتى لإقباله

وكتب إلى بعض الأكابر وقد ولى ولاية تاه بها

تتبه علينا أن وليت ولايته	رويدا فما شىء لدهها بدائم
وما المال ذا نفع وإن كان سالما	إذا كان عرض المرء ليس بسالم
فما هى إلا مثل طرف مسلم	وما عزها إلا كأحلام نائم
فله خل كنت أول تشارك	وبئنيان ود كنت أول هادم

★ ★ ★

ورأينا في هذا الشاعر بعد ما تصفحنا ديوان مقطعاته فقط (لأن ديوانه الآخر (١)

(١) نشر هذا الديوان الكبير الأستاذ أنيس المقدسى ببيروت .

مفقود كما قلنا فلا نستطيع الحكم عليه) أن الشاعر مطبوع ، قوى البديهة كثير ، القول
فياض الخيال ، إذ أن هذا الديوان الذى سمي مقطعات يشتمل على نحو ستة آلاف وخمسمائة
بيت من الشعر فكيف بأصله ، وكيف به إذا انضم إلى ديوانه الآخر الذى لابد أن يكون
أكبر من هذا .

أما من حيث البديع وتكلفه فيصح أن نرى الرجل من وصمة هذا البديع براءة
تامة ، فهو لا يلج فيه كثيره من معاصريه بل لا يتعمده ، بل لا يقصد إليه . ولذلك يقع
ما وقع منه عفوا الخاطر شأن التحول المتقدمين . وهذا عجيب من شاعر يعيش في بيئة
تعنى بذلك البديع . ويكنى أن تعيد النظر فيما رويناه من معارضة « بانث سعاد » فإنك
لا تجد إلا طباقا مقبولا وجناسا لا ثقاً . وهذا مثل صادق لكل ما وقع في شعره من بديع .

ديوان ابن سناء الملك

مصور (١) تصويراً شمسياً بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٣١ أدب .
وهو يشتمل على ١٤١ صفحة من القطع الكبير وتشتمل الصفحة على ٢١ سطراً غالباً
وهو بخط النسخ الجميل الدقيق الواضح . والديوان مرتب على حروف المعجم ويقول
جامعه في أوله في مقدمة قصيرة .

أما بعد حمد الله الدائم سناء ملكه والصلاة على سيدنا محمد المعصوم من خطأ القول
ولفكه ، وعلى آله وصحبه السعداء في أخذ الأمر وتركه ، فقد أمرني بعض فضلاء الزمان
وكبرائه المعلم بلسان قلمه سحر البيان أن أنتخب له شعر القاضى السعيد بن سناء الملك
رحمه الله ، ونعم ما أمر به

وأول الديوان همزية عنوانها « قال القاضى السعيد بن سناء الملك رحمه الله يرى
صديقاً له

لقد عفت عيشي بعد العفيف	على العيش بعد العفيف العفاء
فما غاب مذ غاب إلا الجميل	وما مات مذ مات إلا الوفاء
دفنت سرورى في قبره	فمالي في ذا ولا ذا رجاء
ولست أطيق أرى قبره	وإن كان فيه السنا والثناء

(١) نشر هذا الديوان في حيدر آباد الدكن بالهند : نشره الدكتور محمد عبد الحق .

وفي الديوان قوله يمدح السلطان الملك الناصر ويهنته بالفتح (١)

بدولة السترك عزت ملة العرب
وفي زمان ابن أيوب غدت حلب
ولا بن أيوب دانت كل مملكة
مظفر النصر مبعوث بهيمته
إن العواصم كانت أى عاصمة
لو رامها الدهر لم يظفر ببغيته
تلقى إذا عطشت والبرق أرشية
كل القلاع تروم السحب في صعد
حتى أتى من منال النجم مطلبه
من لو أبى الفلك الدوار طاعته
أنى إليها يقود البحر ملتظما
تبدو القوارس منه في سوابغها
مستلثمين ولولا أنهم حفظوا

ومن الديوان في مدح الملك العادل (٢)

وما لغرامى عند غيرك مطلب
رضيت فما بال المليحة تغضب
يُغنى عليها حنيها وهي تشرب
تأخر حتى كاد في الشرق يغرب
يخبرنا أن الحريرى مذهب
فإني وإياها نخوض ونلعب

ومنها في المدح :

إلى الملك الحي المميت بيأسه
وليس القلاع الشم إلا ثيابه
نصحتك جنب بأسه فهو مهلك

(١) ص ٣ من الديوان .

(٢) ص ٤ من الديوان .

إذا سل سيف الدين في حومة الوغى فقد سل أدرى بالقراع وأدرب
أخذت لمصر من دمشق بحقها فمصر بما أوليت تطرى وتطرب
تغايرت الآفاق فيك محبة ومن ذا الذي يحبو ولا يتحجب

وفي الديوان مدح كثير للقاضي الفاضل ومنه (١)

على ماله منه عذاب أصاره موارد جود كلهن عذاب
وآراؤه تنبئ النصول بغیظها وإن لم يكن إلا الدماء خضاب
فكل كتاب منه سيف مجوهر يروق إذا ما شتمته وهباب
تجد معانيه الرقاب فقد غدا ينخيل لي أن الكتاب قراب
فلا زال يغني بالندی كل طالب إليه ولا يعي لديه طلاب
إذا ما دعا الداعي بمقول نعمة لمن قد حباها فالدعاء حجاب

وفي الديوان مدح كثير لأبيه ومنه (٢)

هو السيد المشتري للثناء وقد عجز القوم أن يشـتروا
وراحته قبلـة الآملين على أنها دمية تمطر
فبالجود باطنها مشرع وبالألم ظاهرها مشعر
وكيف تسمونه جعفرا ومن فيض راحته أبحر
وكيف تلومون حساده وقد حسدت عصره الأعصر

وقد أكثر ابن سناء الملك من مدح ملوك عصره ووزرائه وكتابه . ومن قوله بمدح

الناصر صلاح الدين ويذكر حدوث كوكب ظهر في السماء (٣) .

أرى كل شيء في البسيطة قد نما بعد لك حتى قد نمت أنجم السما
تحلت بنجم لابل ابتسمت به ومن سره شيء يسر تيسما
وما برح الكف الخضيب معطلا فلما تحلى الدهر منك تخبثا
فلا يفتخر جو السماء بنجمه فكم أطلعت أفعالك الغر أنجما
نصرت، بأفلاك السماء فشبهها خميس تُردى الخميس العرمرما
رقيت إلى أن لم تجد لك مرتقى وأقدمت حتى لم تجد متقدما
فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا وما ينقض المقدار ما كنت مبرما

(١) ص ٩ من الديوان .

(٢) ص ٤٤ من الديوان .

(٣) ص ١٠١ من الديوان .

له خديم يغدون منه الخدما
ونائله لم يبق في الأرض معدما
فيطلبه بالزاد والماء أينما
وهل يخطئ المرمى وربك قد رمى
لولاك أرزاق العبياد مقسما

فدى لابن أيوب النجوم فإنهم
سياسته لم تسبق في الأرض ظالما
له نائل يسعى إلى كل سائل
أصاب بك الله البلاد فصاها
ولو شاء أن يغنى الخلائق كلهم

ومنها في وصف شجاعته وخدمته للإسلام :

يرى مغنا في الدين ما كان مغرما
ولكنه صلى عليه وسلم
فبالضرب لي وهو بالسل أحرم
يحل له بالشرع أن يشرب الدما
فليس الحمى إن أمه الجيش بالحمى
بأفاهه حتى أضاء وأظلم
وجددت فيها من سميك موسما
فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما
ودمت إلى أن يرجع الكفر مسلما

لقد نصر الإسلام منك بناصر
وأقسم ما صل الحديسد ترنما
له متصل لا ينقضى فرض حجه
تمسك بالإسلام لكن رأيتـه
إذا ما صلاح الدين قد صار جيشه
تكاثف فيه النقع واستلت الظبا
أعدت إلى مصر سياسة يوسف
وأحييت فيها الدين بعد مماته
بقيت إلى أن تملك الأرض كلها

ابن سناء الملك كما ترى مما روينا لك من شعره (وسائره على هذا النمط) رجل
يحفل بالبديع ولكن من غير إلحاح ، ويطلب أنواعه ولكن من غير كد ، ولذلك يقع له
متمعداً ولكنه غير داخل في باب الاستكراه ولا مرموق بالثقل والبرد .

فانظر إلى الجناس في قوله :

ولست أطيق أرى قـهـره وإن كان فيه السنا والسناء

وإلى العكس في قوله :

وفي زمان ابن أيوب غدت حاب من أرض مصر وعادت مصر من حلب
ويكاد يكون متكلفاً مراعاة النظير في قوله :

تلقى إذا عطشت والبرق أرشية كواكب الدلو في بئر من السحب
وقد اقتبس فوقه اقتباسه مقبولا في قوله :

أخوض دموعي وهي تلعب غفلة فإني وإياها نخوض ونلعب
أما معانيه فهي حسنة يغوص عليها ويأتي فيها بالعجيب المطرب .

دار الطراز

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٣٨ أدب ، وهو يقع في ١٦٥ صفحة من القطع المتوسط (١) .

وهو كتاب في علم الموشحات يقوم بذكر أنواعها والتثليل لها ، وقد قدم له المؤلف بمقدمة ذكر فيها شأن الموشحات وبين قيمتها . قال في المقدمة « وبعد فإن الموشحات مما ترك الأول للآخر وسبق بها المتأخر المتقدم وأجلب بها أهل المغرب على أهل المشرق . »

ثم يقول « ولما كانت الموشحات بهذه المثابة ولها في سوق الأدب هذه القيمة لم أر أحداً صنّف في أصولها ما يكون للمتعلّم مثلاً يحتذى وسيلاً يقتنى ، جمعت في هذه الأوراق ما لا بد لمن يعانيتها ويعنى بها من معرفته ولا غناء عن تفصيله وجملته . »

ثم يعرف الموشح فيقول « الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص وهو يأتلف في الأكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات ويقال له التام ، وفي الأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات ويقال له الأقصر . ثم يمثل للنوعين .

ثم يعرف القفل والبيت ويذكر أحوالهما ويمثل لكل ذلك ، وأمثلة الكتاب من موشحات القدماء من مغاربة ومشاركة .

فالكاتب على ذلك كتاب علمي « وليس كما يدعى بعض من لم يره مجموعاً من موشحات المؤلف « وجملته ما يقال فيه أنه كتاب في عروض الموشح وقوافيه كما أن للشعر عروضاً وقوافي ، وقد اتبع ابن سناء الملك وصفه لعروض الموشح بطائفة من الموشحات الأندلسية وطائفة أخرى من موشحاته ليبدل على قدرته في صنع الموشح .

وقد أوردنا هذا الحديث عنه نفياً للشبهة القائمة حول الكتاب من ناحية وتفصيلاً لشيء من آثار شاعرنا له علاقة بالشعر لأنه في نوع ناشئ عنه .

(١) نشره الدكتور جودت الركابي .

الكتابة في عهد الدولة الأيوبية

ذكرنا في حديثنا عن الدولة الفاطمية ما كان من رسوم البدء والختام في الرسائل ديوانية أو إخوانية ، وهى إذا قابلتها بما سنذكره من تلك الرسوم في الدولة الأيوبية وجدت فرقاً ظاهراً ، فالفاطيون اتخذوا من الرسوم ما هو ضرورى للترقية بين خطاب الخليفة : لوليه أو رعيته وبين خطاب هؤلاء له ، ثم هى في جملتها رسوم ليست كثيرة التفصيل ولا متنوعة الحالات ، مما يدل على أن الكتابة لم تكن قد أخذت بعد تلك الأناقة والعمل الذى صارت إليه في الدولة الأيوبية أولاً ثم في دولتى المماليك بعد ذلك .

ولا يؤنسك بالفرق بين رسوم الكتابة في الدولة الأيوبية وما قبلها إلا أن نذكر ما يأتى (١) مما كان في الدولة الأيوبية .

(١) يخاطب الخليفة من السلطان بوصف المواقف المقدسة الشريفة أو العتبات العالية أو مقر الرحمة أو محل الشرف .

(٢) يخاطب السلطان بوصف المجلس ثم أفردوه بالمقر أو المقام .

(٣) يخاطب الوزراء وغيرهم من أعيان الدولة بوصف « الحضرة » .

(٤) يردفون « المقام » بالعالى ولا يردفونه بالسامى فيقال المقام العالى .

(٥) يردفون المجلس بالسامى فيقال المجلس السامى .

(٦) يضاف في نعوت الوزراء « عمدة الملوك والساطين أو عز الإسلام أو نصرة الإسلام أو حارس الإسلام . من غير ضبط ولا تخصيص لأحد دون أحد .

(٧) يقال للأقارب « فخر الملوك ، وجمال الملوك ، وعز الملوك ، وزين الملوك » وللأماثل « معين الملوك ونصرة الملوك » وما أشبه ذلك .

ولأمراء الأعيان « حسام أمير المؤمنين — سيف أمير المؤمنين » .

(١) الذى سنذكره في الفقرة الاثنتى عشرة التالية مستقى من كلام القلقشندى في صبح الأعشى ج ٧ ص ١٩ ، ٢٠ .

ولكبراء الدولة من الكتاب « خاصة أمير المؤمنين — ولى أمير المؤمنين — صفى أمير المؤمنين — ثقة أمير المؤمنين — صنيعة أمير المؤمنين » على مقدار رتبهم .

(٨) يكون الدعاء للملوك يمثل « ادام الله أيامه — خلد سلطانه — ثبت دولته وما أشبه ذلك .

(٩) التحميد فى أوائل الكتب لا يكون إلا فى الكتب الصادرة عن السلطان وغاية عظمة المكتوب إليه أن يكون التحميد مرتين أو ثلاثاً ثم يؤتى بالشهادتين ثم يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم .

(١٠) يكتب فى الكتب السلطانية: صدرت أو أصدرت أو أصدرناها . ولا يكتب (كتبت) .

(١١) لا يكتب عن السلطان لمن هو تحته إلا بنون الجمع لدلالاتها على العظمة .

(١٢) يختصرون فى نعوت المكتوب إليهم من الملوك مع إطالتهم فى هذه النعوت إذا كتبوا إلى وال للسلطان أو أى تابع ، وكلما كانت النعوت أكثر كان ذلك أشرف للمكتوب إليه .

هذه الرسوم لم تكن بهذا التفصيل فى الدولة الفاطمية مما يدل على أن الكتابة الديوانية صارت تخضع لقيود جديدة لأن قواعدها قد تأصلت فى مصر ، أو قل كذلك إن كل رئيس للديوان فى عصر أحب أن ينسب إليه تجديد فى الكتابة ، فكما أن عبد الحميد كاتب بنى مروان كان أول من أطال التحميدات ، وأنه أول من اخترع صورة التعقيب بالحمد بعد البسملة مفصلاً عنها بأما بعد فيقول مثلاً :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فالحمد لله .

وكما أن الرشيد أول من أمر بالصلاة على النبي بعد الحمد لله فعادت من مناقبه ، فكذا كل رئيس فى الكتابة يحب أن ينسب إليه نظام أو تغيير فى بدء أو ختام .

وهذه الرسوم التى انتهى إليها الكتاب فى الدولة الأيوبية لم تكن شيئاً يذكر إلى جانب ما كان عليه الحال بعد ذلك فى دولتى المالك ، فإنه قد انتهت فيها تلك الرسوم إلى أن نعوت وإلى الغربية غير نعوت وإلى الشرقية ، وما يقال لثائب الوجه البحرى غير ما يقال لثائب الوجه القبلى ، حتى احتاجوا إلى كتاب يجمع هذه المصطلحات يكون أمام الكتاب بالديوان يرجعون إليه عند خطاب كل مخاطب حتى لا يتعدى كاتب رسماً وضع ولا ينقص من نعت ولا يزيد فيه .

وقد رأيت أن الأيوبيين كانوا يضعون الرسوم واسعة المجال يشترك في النعت الواحد جملة من المخاطبين، وقد رأيت أنهم لم يكونوا يفرقون بين أصدرنا الرسالة وأُصدرت وصدرت، وعلى حين كان كتاب عصر المماليك يفرقون بين هذه التعابير تفرقة واضحة ويعتبرون بعضها أرقى من بعض . وسيمر بك ذلك في حديث الكتابة الديوانية في عصر المماليك .

الكتابة الإخوانية

للكتابة الإخوانية مصطلحات في عهد الدولة الأيوبية ذكرها القلقشندي في صحيح الأعشى (١) وملخص ما قاله أن الابتداء عندهم لم يكن لهم فيه ضابط فكانوا يبتدئون بالدعاء للمجلس، وذلك هو الغالب في مكاتباتهم كما كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني :

«أدام الله أيام المجلس التي هي لحسنات المدل مديلة، ولعثرات المقل مقيلة، ولعاطف العز مميلة، ولقاطف الفوز منيلة، ولقداح الجدوى مجيلة، ولا زالت الآراب بمكارمه باجحة، والآراء بمراسمه ناجحة، ومتاجر المفاخر بمولاته رابحة. وأبدى الآمال لأيديه بمصافاته مصافحة، وأرواح أوليائه بروح آلائه في مواطة أعطيته عابقة فائحة، وأدعية الداعين لأيا من أيامه، المدعين لعهود إنعامه طيبة صالحة». وقد يبتدئون بالغرض من غير تقديم الدعاء. كما كتب العماد الأصفهاني في اعتذار عن تأخر المكاتبات :

«إن تأخرت مكاتباتي فإن العذر معلوم، والأجر محتوم، والقلم مصدود واللقم مسدود والبلد محصور» .

ثم يقول القلقشندي : إلى غير ذلك من أساليبهم المشهورة التي لا يسع استيعابها ولا حاجة إلى الإمعان في ذكرها .

وأغفل بعد ذلك ذكر خواتم الكتب . ولعله أحال في ذلك على ما كان متبعاً قبل ذلك وهو ما فصلناه في كلامنا عن الكتابة في الدولة الطولونية .

(١) ج ٨ ص ١٦٧ .

كتابة الإنشاء

يحسن أن نؤنسك بذكر بعض من تولى الكتابة بديوان الإنشاء بمصر أيام هذه الدولة وهم :

(١) فخر الدولة الأسواني : إبراهيم بن محمد . ذكرناه في الشعراء ونقول : إنه كاتب كتب الإنشاء للملك صلاح الدين بن أيوب ثم لأخيه العادل . ذكره في حسن المحاضرة (١) مات سنة ٥٨١ .

(٢) ابن برى . عبد الله المتناس ثم المصرى النحوى الذى انتهى إليه علم العربية في زمانه وقصد من البلاد لتحقيقه وتبحره ، ومع ذلك فله حكايات في سداجة الطبع . يروى عنه أنه كان يلبس الثياب الفاخرة ويأخذ العنب والبيض في كمه فيقطر ماء العنب على رجله فيرفع رأسه ويقول : العجب أنها تمطر مع الصحو . (٢) وكان مع علمه هذا لا يتقيد في كلامه بالإعراب . بل يسترسل بالعامية . قال يوماً لجنس تلاميذه اشترى هندبا بعروقه فقال له تلميذه هندبا بعروقه فقال لا تأخذ بعروقه وإن لم يكن بعروقه فما أريده (٣) .

وإنما ذكرناه في كتاب ديوان الإنشاء لأنه وكل إليه في عهد الدولة الأيوبية تصفح الرسائل بديوان الإنشاء فلم يكن يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من ملوك النواحي . إلا بعد تصفحه ليصلح ما لعله يكون فيه من خلل خفى . فهو لاتصاله بالديوان وعرفانه بصطاحاته وما تجرى به رسومه يعد من رجال هذا الديوان ، ولذلك ذكرته فيهم وإن كان وصفه الأول أنه عالم نحوى لغوى . مات سنة ٥٨٢ هـ .

(٣) القاضى الفاضل أبو على عبد الرحيم بن على الأحمى البيسانى ثم العسقلانى ثم المصرى خدم الدولة الفاطمية ثم الأيوبية فوزر لصلاح الدين وكان أثراً عنده . ثم لابنه العزيز وبقيت له عنده منزلة التى كانت له عند أبيه ، ثم المنصور ، ولم يزل كذلك إلى أن دخل الملك العادل مصر فاتفق موت القاضى الفاضل يوم دخوله (٤) .

(١) ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) الشذرات ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٣) الوفيات ج ١ ص ٢٦٨ .

(٤) الوفيات ص ٢٨٥ .

وقد قالوا : إن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد ، وهو مجيد في أكثرها وستقرر بالتفصيل القول في طريقته التي عرفت به واتبعها الكتاب من بعده . مات سنة ٥٩٦ هـ .

(٤) عماد الدين الأصبهاني أبو عبد الله محمد بن صفي الدين . نشأ بأصبهان ثم رحل إلى بغداد ، وتلقى دروسه بالمدرسة النظامية وكان شافعي المذهب ، ثم رحل إلى الشام وخدم السلطان نور الدين وعرفه إذ ذاك صلاح الدين الأيوبي وقد مدحه العماد بقصائد عدة ، ثم كان القاضي الفاضل سبب اتصاله بخدمة صلاح الدين فكان ينوب عنه في خدمة السلطان إذا بقي القاضي الفاضل بمصر . وكان أول ما عمل في الكتابة متهيباً لها ولو أذ ، كان يجمع جميع أدواتها قال « بقيت متحيراً في الدخول فيما ليس من شأني ولا وظيفتي ولا تقدمت لي به دربة » (١) .

فلما باشرها هانت عليه وأجاد فيها وأتى بالغرائب . وكان ينشئ الرسائل باللغة العجمية (٢) . مات بدمشق سنة ٥٩٧ هـ .

(٥) الأسعد بن الخطير مذهب الدين بن مماتي : كان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، وكان كاتباً شاعراً . نظم سيرة صلاح الدين . وكتاب كليله ودمنة وله ديوان شعر . لقيه ابن خلكان بمصر وهو متولى ديوان الجيش للملك الناصر ، وكان هو وجماعته من النصاري فأسلموا في ابتداء الملك الصلاحي . ومماتي لقب جده غلب عليه لأنه كان محسناً إلى فقراء المسلمين فكانوا إذا رأوه قالوا له : مماتي أي يا أمي . مات سنة ٦٠٦ هـ .

(٦) هبة الله بن سناء الملك صاحب ديواني الشعر وقد تكلمنا عنهما في الحديث عن الشعراء .

كان أحد الفضلاء الرؤساء النبلاء كثير النعم وافر السعادة مخطوطاً من الدنيا . ولي ديوان الإنشاء بمصر مدة وله رسائل دارت بينه وبين القاضي الفاضل وغيره جمع منها شيئاً في كتاب سماه « فصوص الفصول » وهو مخطوط . (٣) مات سنة ٦٠٨ هـ .

(١) الوفيات ج ٢ ص ٧٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الأعلام للزركلي ج ٣ ص ١١٧ .

(٧) ابن بصافة ، فخر القضاة نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي الغفاري . كاتب الإنشاء كان أكتب أهل عصره بلا مدافع ، وأعرفهم بالقواعد الإنشائية وأجودهم ترسلا وأحسنهم عبارة وأطولهم باعا في الأدب . (١) مات سنة ٦٤٦ .

(٨) بهاء الدين زهير : من فضلاء مصر في عصره نظما ونثرا وخطا ، ومن أكبرهم مروءة اتصل بخدمة الملك الصالح وأقام على خدمته إلى أن خرجت عليه العساكر واعتقل بالكرك ، فأقام بهاء الدين لا يتصل بأحد حتى خرج الملك الصالح وملك الديار المصرية فخدمه بهاء ثانية ، وكان وافر الكرامة عنده وخدم بهذا الجاه كثيرين .

لقيه بالقاهرة القاضي ابن خلكان فرأى فوق ما سمع عنه من مكارم الأخلاق ومات البهاء بوباء فلم يستطع ابن خلكان الصلاة عليه لمرضه . فلما برئ زار قبره وترحم عليه وقرأ عند قبره شيئا من القرآن (٢) .

وكم كنا نود أن نطلع على شيء من كتابة البهاء لنوازنها بشعره فهل كان في كتابته كما هو في شعره متميزا عن رجال عصره بالسهولة التي تكاد تسيل ؟
وإن مما يؤسف له أن التاريخ لم يحفظ من الرسائل إلا رسائل المشهورين جدا فصار الحكم على عصرهم في الواقع حكما عليهم وحدهم . مات سنة ٦٥٦هـ .

(٩) السعيد أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك : هو الشاعر المشهور وقد تكلمنا عن ديوانه سابقا . كتب بديوان الإنشاء بمصر مدة (٣) ، وكان بارع الترسل وله تأليف منها اختصاره لكتاب الحيوان للجاحظ . مات سنة ٦٥٨هـ .

نماذج من كتابة الإنشاء

(١)

كتب القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى أخيه سيف الإسلام سلطان اليمن يستقدمه إليه معاونا له على قتال الفرنج ويبشره بفتح كوكب وصفد والكرك في سنة ٥٨٤ : (٤)

- | | |
|------------------------------|---------------------------|
| (١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٦ . | (٢) الوفيات ج ١ ص ١٩٥ . |
| (٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٥ . | (٤) صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٣ . |

«أصدرنا هذه المكاتبة إلى المجلس . ومما تجدد بحضرتنا فتوح « كوكب » وهى كرسى الاستبارية ودار كفرهم ومستقر صاحب أمرهم وموضع سلاحهم وذخرهم . وكان بمجمع الطرق قاعدة وملتقى السبل قاصدا فتعلقت بفتحته بلاد الفتح واستوطنت وسلكت الطرق فيها وأمنت وعمرت بلادها وسكنت . ولم يبق فى هذا الجانب إلا صور . ولولا أن البحر ينجدها والمراكب تردها لكان قيادها قد أمكن وجماحها قد أذعن . وما هم بحمد الله فى حصن يحميهم بل فى سجن يحويهم بل هم أسارى وإن كانوا طلقاء وأموات وإن كانوا أحياء قال الله عز وجل « فلا تعجل عليهم فإنما نعد لهم عدا » ولكل امرئ أجل لا بد أن يصدقه غائبه وأمل لا بد أن يكذبه خائبه .

وكان نزولنا على كوكب بعد أن فتحت صفد بلد الديوية ومقلهم ومشتغلهم وعملهم ومحلهم الأحصن ومترهم . وبعد أن فتحنا الكرك وحصونه والمجلس السنى (أسماه الله) أعلم بما كان على الإسلام من مئونته المثقلة وقضيته المشكلة وعلته المعضلة . وأن الفرنج (لعنهم الله) كانوا يقعدون منه مقاعد للسمع ويتبعون منه مواضع للنفع ويحولون بين قات وراكبها فيذلون الأرض بما كان منه ثقلا على مناكبها .

والآن ما أمن بلاد الحرمين بأشد من أمن بلاد الحرمين . فكلها كان مشتركا فى نصرة المسلمين بهذه القلعة التى كانت ترمى ولا ترام وتسمى ولا تسام ، وطالما استفرغنا عليها بيوت الأموال ، وأنفقنا فيها أعمار الرجال ، وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن ضجت النصال من النصال . والله المشكور على ما انطوى من كلمة الكفر وانتشر من كلمة الإسلام .

وإن بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغوا ولا تأثيا إلا قبلا سلاما سلاما . وكان نزولنا على كوكب والثناء فى كوكبه ، وقد طلع يمين الأنواء فى موكبه والثلوج تنشر على البلاد ملاءها الفضيض وتكسو الجبال عائمها البيض . والأودية قد عجت بمائها وفاضت عند امتلائها وشمخت أنوفها سيولا ، فخرقت الأرض وبلغت الجبال طولا . والأحوال قد اعتقلت الطرقات ومشى المطلق فيها مشية الأسير فى الحلقات . فتجشمتنا العناء نحن ورجال العساكر وكأثرنا العدو والزمان وقد محرز الحظ المكاثر . وعلم الله النية فأنجدها بفضلها وضمير الأمانة فأعان على حملها . ونزلنا من رءوس الجبال بمنازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها ، والوقوف بساحتها أهون من ثقلها . وأما بنعمة ربك فحدث . ومنها يقول فى استنجاد :

« فالبدار إلى النجدة البدار والمسارة إلى الجنة فإنها لاتنال ، إلا بإيقاد نار الحرب على أهل النار . والهمة الهمة فإن البحار لاتلقى إلا بالبحار والملوك الكبار لايقف في وجوها إلا الملوك الكبار .

وما هي إلا نهضة تورث العلا ليومك ماحث روازم نيئب »
والكتاب بعد ذلك طويل نكتفي منه بهذا .

(٢)

نسخة كتاب كتب به القاضي الفاضل عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب إلى بعض أمراء الشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود وهي : (١)
« كتابنا هذا إلى الأمير معز في الرزء الذي كملت أقسامه ونمت ، ورمت أحداثه القلوب فأصمت ، وطرقت أحاديثه الأسماع فأصمت . وأبى أن تغفو كلومه ، وكاد لأجله الأفق تنكسف بدوره وتتكدس نجومه ، وثلم جانب الدين لفقد من لولاه لدرست أعلامه ولم تدرس علومه . وفجأ فاستولى على كل قلب وجيبه وعلى كل خاطر وجومه ، بانتقال المولى « نور الدين » إلى سكنى دار السلام ، وقدمه على ما أعد الله له من جزاء ذبه عن الإسلام . وبكى أهله على فقد عزائمه التي بها حفظت وحرست . وشكت الممالك وحشة بعده ، وإن ابتهجت الملائكة بقربه وأنست . فله هو من مصاب أغرى العيون بفيضها والنفوس بغيظها ، ونقل الأولياء من ظل المسرة ونعيمها إلى هجير المساء وقبظها ، وأوجب تناجي الكفار بالنجاة من تلك السطوة التي لم تزل تزيدها غما وتردها بغيظها .

مهئين بما أسا الكلم وداواه ، وحوى الحق إلى الجانب الأيمن وآواه ، من جلوس ولده « الملك الصالح » ذى التصويب والتسديد مشمولاً منا بالعرف العميم والطول الجسيم . جارياً على سننه المعهودة وعادته المحموده ، في رفع صالح أدعيته عن صفاء سريرته ، وخلوص عقيدته مستمرا على جميل تحيته . في إمدادنا ببركته إن شاء الله تعالى .

(٣)

ولد للعزیز بن صلاح الدين ولد بالقاهرة وصلاح الدين أبوه إذ ذاك بالشام فكتب إليه القاضي الفاضل يهنئه بميلاد حفيده قال : (٢)

(١) صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٧ .

« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر دام رشدته وإرشاده، وزاد سعده وإسعاده، وكثر أوليائه وعبيده، وأحفاده واشتد بأعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده حتى يقال آدم المملوك وهذه أولاده . وينهى أن الله تعالى (وله الحمد) رزق الملك العزيز (عز نصره) ولدا مباركا عليا ، ذكراً سوريا برآ زكيا نقيا تقيا ، من ورثة كريمة بعضها من بعض . وببيت شريف كادت ملوكه تكون ملائكة في السماء ومماليكه ملوكا في الأرض » .

(٤)

كان القاضي الفاضل قد حجج من مصر سنة ٥٧٤ هـ وركب البحر في طريقه فكتب إليه العماد الأصبهاني : (١) « طوبى للحجر والحجون من ذى الحجر والحجا ، منيل الجدا ومنير الدجا ولندى الكعبة من كعبة الندى ، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى ولل مقام الكريم من مقام الكريم ومن حاطم فقار الفقر للعظيم . ومتى روى هرم في الحرم وحاتم ماتح زمزم . ومتى ركب البحر البحر ، وسلك البر البر . لقد عاد قس إلى عكاظه ، وعاد قيس لحفاظه . وياعجبا لكعبة يقصدها كعبة الفضل والإفضال ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال . والسلام .

(٥)

لعماد الأصفهاني من كتابه « الفتح القسى في الفتح القدسى » يذكر فتح عكا : « ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على أهل التثليث ، مديلا للطيب مزىلا للخبيث . وسار عسكره وثار عثيره ، وظهرت راياته وبهرت آياته ، ونعرت كوساته وصاحت بوقاته ، وجالت خيوله وسالت سيوله ، وطلعت في سماء العجاج نجوم خرصانه وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه ، وحفرت حوافر الصلادم أصلاب الصلاد والصلاب وفصحت بإعراب الحماحم صواهل الجياد العراب . والأسنة مشرعة والأعنة مسرعة ، وبحور السوايح متموجة مترجرة ، وبوارق البيارق متبوجة ، وأوضاع الجرد وعزرها كأوضاع النصر وعزره متبلجة ، ونزل عشية بأرض لوبية لداعي الفتح مليبا ولجيش النصر معبيا ؛ ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا ، وبات بها معرسا بانبا على

(١) الوفيات ج ٢ ص ٧٥ .

عروس الظفر البكر جانبا ثمار الأمانى من غروس البيض والسمر ، وأصبح وقد أصبح
جماح الدهر وصح نجاح الأمر .

تفسير ما ورد بهذه القطعة من الفاظ .

الكوس : الطبل (معرب) . الخرصان (بالضم والكسر) : جمع خرص (مثلثة)
وهو الرمح . القلاقع لعلها جمع قلاع وهى جمع قلعة وهى الحصن فى الجبل . الصلادم :
جمع صلدم وهو الفرس الشديد الحافر . الصلاد : جمع صلد وهو الصلب الأملس
(يريد الحجرة الشديدة) . الحماحم : جمع حمحة وهى صوت الفرس حين
يقصر فى الصهيل . تبوج البرق : تكشف

طريقة القاضى الفاضل :

نشأ القاضى الفاضل بعسقلان وفيها تلقى أوائل علومه على أبيه وغيره ثم قدم إلى
مصر وحصل بالقاهرة فاتصل بخدمة ديوان الإنشاء ثم توجه إلى الاسكندرية للخدمة فى
ديوان ابن حديد قاضيا . فكانت الكتب التى ترد عنه إلى القاهرة بقلم القاضى الفاضل ،
وكانت بليغة عرفت فى القاهرة مقدرة القاضى الفاضل فاستقدم إليها أيام الخليفة الظافر
ودخل فى اعداد كتاب الإنشاء ، غير أنه لازم التحصيل والاستفادة ولم يقنع بما وصل
إليه ، وكان يكتب بديوان الإنشاء حين قدم إليه القاضى الفاضل كافى الكفاة محمود
ابن القاضى الموفق أسعد بن قادوس وكان شيخا جليلا فى فنه فاستفاد من القاضى الفاضل
كثيرا واعتز بفضله عليه حتى إنه كان يسميه ذا البلاغتين .

ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفق بن الخلال قرب زمن وفاته سنة ٥٦٦ هـ
فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين فاستفاد من ذلك وبه تخرج (١) .

كان اتصال القاضى الفاضل بهذين المنشئين الكبيرين سببا فى نبوغه مضافا ذلك
إلى ماله من طبع موات وسليقة سليمة واجتهاد فى التحصيل . فوصل إلى ما وصل
إليه من فضل .

أما الطريقة التى اختطها لنفسه وعرفت به ثم شاعت وأعجب بها الناس فقلدوها
وسرت روحها فى أزمان متعاقبة بعد صاحبها فهى طريقة أول ما يقال فيها أنها عويصة
لاتطاول كل محاول ولا تسلس لكل سائس .

ذلك أنها بنيت على السجع الملتزم والاستعارة والطباق ومراعاة النظير والتلميح والجناس . ثم ظهر فيها أكثر من ذلك نوعان من البديع عويصان جدا هما التورية والاستخدام .

هذه المجموعة من البديعيات متمثلة في رسائل القاضى الفاضل لاتكاد تخلو رسالة منها أو من بعضها ، فالسجع الملتزم أمر يثقل على الكاتب وينبوعه سمع السامع ، فهو يكدر خاطرهما إلا إذا كانت المقدرة البلاغية تسره في أغلب أحيانه فإن تكلفه تختفى حين ذاك . أما الاستعارة فلإنها كانت تعهد كثيرا في الشعر فهي من أساليبه التي كانت خاصة به إلى حين ثم أغار عليها الكتاب فأدخلوها في رسائلهم . ولا يقال إن القاضى الفاضل أول من فعل ذلك فإن العهد يبدخل الاستعارات في الترسل بعيد .

أما الأنواع البديعية وهي الطباق ومراعاة النظير والتلميح والجناس فلإنها تساقو الطبع أحيانا ولا ينبوعها الذوق كثيرا إذا روعى فيها الإقلال وعدم التكلف لها خصوصا الجناس .

بقى النوعان العويصان جدا وهما التورية والاستخدام فهذان إن سلما مرة لمتعمدهما لا يسلمان أخرى فكيف بمن عول أن يلتزمهما في كل مناسبة .

إن ذلك يخرج بالكلام إلى التكلف الممقوت . وقد كان ذلك ممكن الحصول في منشآت القاضى الفاضل فتبدو نابية عن الذوق ظاهرة التكلف لولا أن الرجل بمهارته الفنية استطاع ستر تكلف هذين النوعين إلى حد ما .

فكانت النتيجة أنه حمل كتابه بكل ما يتوقع به التعثر في طريق البلاغة لولا أن الذى كان يقود الموكب ماهر فاستطاع أن يتجنب كل اصطدام ويتفادى كل وعورة قدر المستطاع .

ولكن طريقة القاضى الفاضل أعجبت الناس ورأوا أن شهرته إنما جاءت من ناحيتها فعملوا على محاكاته فيها ولم يستموا أدواته فظهر التكلف في كل قول جاء به صاحبه محاكيا لقول القاضى الفاضل .

وفيما نقلناه من الأمثلة وما لم نقله ويمكنك تتبعه في صبح الأعشى وغيره ، نجد طريقة القاضى الفاضل متمثلة ينطبق عليها ما ذكرناه لها من حدود وأوصاف .

العلوم في الدولة الأيوبية

لقد مر بك من القول في فضل الأيوبيين في أنفسهم ؛ أدبا وعلماء وخفاة لله . وإقبالا على إعلاء كلمة الإسلام بالعمل الصالح وخضد شوكة الصليبيين وأنهم في سبيل كل ذلك لم يدخروا جهدا ولا مالا ، وأنهم أول من أنشأ المدارس بمصر على نهج المدرسة النظامية ببغداد وحسبوا عليها الأوقاف الكافية الضامنة لوظائف متوليها ومدرسيها وجرايات طلابها .

كما مر بك ما كان من تعرفهم لفضل العلماء وإدنائهم لهم وترغيبهم في صحبتهم والحضور إلى مصر إن كانوا نازلين بغيرها . قالوا : إن صلاح الدين كان يقرب علماء الحديث فكان إذا بلغه عن شيخ رواية عالية وكان ممن يحضر عنده سمع منه وأسمع وأولاده ومما ليكه ، ويأمرهم بالقيود عند سماع الحديث لإجلاله ، وإن لم يكن الحديث ممن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه (١) .

ومن أمثلة ترغيب العلماء في الحضور إلى مصر ما فعله العزيز بن صلاح الدين بالحسن ابن الخطير النعماني وما كان من لإجرائه عليه ستين دينار أو مائة رطل خبز في الشهر وخروفا وشمعة كل يوم (٢) وكذلك حديث تاج الدين أبي اليمن واختصاصه بفرخ شاه بعد أن عرف فضله في مجلس القاضي الفاضل ، فإنه ألزم صحبتته إلى أن مات فاتصل بعده بتقى الدين أخى فرخ شاه فكثرت أمواله (٣) .

والحيوشاني الذي كان بمصر على أيام الفاطميين منكسر الحال لا يتاله من الدولة شيء ولا يعرفه رجالها مع فضله العظيم ومقداره الكبير ، لم يلبث صلاح الدين بعد قبضه على الأمور بمصر أن قربه إليه لما يفتقده فيه من العلم والدين فكان يعمل بإشارته ، وهو الذي أشار عليه بعمارة المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي فلما عمرها فوض إليها تدريسها (٤) .

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩ .

(٢) البنية ص ٢١٩ .

(٣) كتاب الروضين ج ٢ ص ٣٣ .

(٤) الوفيات ج ١ ص ٤٢١ .

وكان الملك الكامل محبا للحديث وأهله حريصا على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف . خرج له أبو القاسم الصفرى أربعين حديثا وسمعها جماعة واستجاز له أبوه الحافظ السلفى فأجازه (١) .

وقالوا عنه أيضا إنه كان معظما للسنة النبوية وأهلها راغبا في نشرها والتسك بها مؤثر الاجتماع بالعلماء والكلام معهم حضرا وسفرا (٢) .

وهاك فاسمع حديث ابن غنم الأنصارى المعروف بابن نجية الفقيه الحنبلى الواعظ المفسر نزيل مصر الذى اقتنى أموالا طائلة، وكان يتنعم تنعما زائدا حتى كان ما يعمل فى داره من ألوان الطعام لا يعمل مثله فى دور الملوك وكان مع كثرة ما يأخذ من الخلفاء والملوك لا يبتى على شيء، وقد عرف عنه العزيز بن صلاح الدين سلطان مصر أنه قد أصابه ضيق بسبب دين ركبه فأعطاه ما يزيد على أربعة آلاف دينار (٣) .

والشهاب الطوسى نزيل مصر أيضا كان يركب فى الغاشية والسيوف المسلوقة، وبين يديه من ينادى هذا ملك العلماء ، فكان ملوك مصر يرضون عن هذا ولا يعارضون على حين أنه لما فعل ذلك ببغداد منع منه، وقد بنى له الملك عمر بن شاهنشاه المدرسة المعروفة بمنال العز .

وقد وعظ الشهاب بجامع مصر و كان معظما عند الخاص والعام طويلا مهيبا مقداما يرتاع منه كل أحد ويرتاع هو من الخبوشانى (٤) والأمثلة لإكرام الأيوبيين للعلماء لا تكاد تنتهى فلنكتف بما ذكرنا .

أما أنواع العلوم بمصر على أيام الأيوبيين فهى علوم الشرع واللغة وكل ما كان معروفا فى أيامهم من العلم فى نواحي الممالك الإسلامية، اللهم إلا الفلسفة التى رحب بها الفاطميون أيام خلافتهم بمصر، فإن الأيوبيين كانوا يكرهونها ويحاربونها ويحاربون رجالها ، فقد كان صلاح الدين على قدر حبه لرجال الحديث والدين عامة وسعيه للقائهم، يبغض كتب الفلسفة وأرباب المنطق وكل من يعاند الشريعة، ولما بلغه عن السهروردى مامر بك مر الملك الظاهر بالشام فقتله (٥) .

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣٠ .

(٣) الشذرات ج ٤ ص ٣٤١ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٢٨ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩ .

والشأن في بقية ملوك هذه الدولة هو شأن عاهلها، وقد عرفت آراءهم في رجال الحديث والسنة وتعلقهم بهم ولاكرامهم لهم .
وأخيراً فإن الفلسفة والمنطق وكل ما يجبر إلى الإلحاد أو يكون منه بسبب لم تلق بمصر تشجيعاً أيام الأيوبيين ، بل لقيت كل محاربة .

علماء الدولة الأيوبية

- ١ — الحافظ السلفي (أحمد بن محمد) : طارئ ، (٥٧٦-) ، محدث جاب البلاد في طلب الحديث ثم استقر بالإسكندرية منذ سنة ٥١١ إلى أن توفي بها . قصده الناس من الأماكن البعيدة وبني له ابن السلار مدرسة وفوضها إليه (١)
- ٢ — الخبوشاني نجم الدين (محمد) : طارئ ، (٥٨٧-) ، سنفرد له ترجمة بعد هذا .
- ٣ — إبراهيم بن منصور : أصيل ، (٥٩٠-) ، مصرى رحل إلى بغداد فعرف بالمصري ثم عاد إلى مصر فعرف بالعراقي . كان فقيهاً شافعيّاً شرح « المهذب » لأبي إسحاق الشيرازي في عشرة أجزاء وكان خطيباً بجامع مصر (جامع عمرو)
- ٤ — الاشكيدباني (محمد بن عبد الله) : طارئ ، (٥٩٠-) ، حنبلي سمع بمصر من أبي الطاهر الزيات وبالإسكندرية من الحافظ السلفي ، وحدث بهما ونزل مكة في أواخر عمره فكان عظيم الحنابلة بها . (٢)
- ٥ — محمد بن بنان الأنباري : أصيل (٥٩٦-) ، أهله من الأنبار . كان شيخاً جليلاً عالماً أديباً كاملاً بليغاً يكتب الخط الحسن ويقول الشعر الجيد تولى ديوان النظر في الدولة المصرية ، وتقلبت به الخدم في الأيام الصلاحية . وكان القاضي الفاضل محمد يغشى مجلسه ويمدحه ويفتخر بالوصول إليه (٣) .
- ٦ — الشهاب الطوسي (محمد بن محمود) : طارئ ، (٥٩٦-) ، شيخ الشافعية درس وأفتى ووعظ . وكان يركب بمصر بالغاثة وأنسيوف المسلولة وبين يديه

(١) ترجمته في الوفيات ج ١ ص ٣١

(٢) الشذرات ج ٤ ص ٣٠٤

(٣) الفوات ج ٢ ص ١٩٣

من ينادى : هذا ملك العلماء ، وبني له الملك عمر بن شاهنشاه المدرسة المعروفة بمنال العز وانتفع به كثيرون (١) .

٧ — الحسن بن الخطير النعماني : طارئ ، (٥٩٨) ، سنفرد له ترجمة بعد هذا .

٨ — ابن الحاج القناوى : أصيل (٥٩٨) ، كان قيميا بالعربية وله فيها تصانيف ، حسن العبارة لم يرق ضاحكاً ولا هازلاً ، وكان ملوك مصر يناطونه ويرفعون قدره مع كثرة طعنه عليهم وعدم مبالاته بهم سمع من السلفى ، وحدث (٢)

٩ — ابن غنيم (على بن إبراهيم) المعروف بابن نجية : طارئ ، (٥٩٩) ، تعلم بدمشق وسمع بها وببغداد ودخل مصر بزوجه فاطمة بنت شيخة ببغداد وسعد بن الخير . اقتنى أموالاً عظيمة وتنعم تنعماً زائداً وكان بداره عشرون جارية كل جارية بألف دينار وكان يعمل بداره من ألوان الطعام مالا يعمل بدور الملوك . وطالما أعطاه الملوك والخلفاء أموالاً ومع ذلك مات فقيراً . اتصل بالعزیز ابن صلاح الدين أنه في ضيق من دين ركب فاعطاه ما يزيد على أربعة آلاف دينار (٣) .

١٠ — ابن درباس (عثمان) : طارئ (٦٠٢) ، كان من أعلم الفقهاء في وقته بمذهب الشافعى وهو أخو القاضى صدر الدين الحاكم بالديار المصرية ، نائب عن أخيه فى الحكم . وكان صلاح الدين الأيوبي قد فوض إليه القضاء بالديار المصرية بعد أن كان قاضى الغربية .

وقف عليه الأمير جمال الدين الهكاري مدرسته وفوض إليه تدريسها ولم يزل بها إلى أن توفى (٤) .

١١ — ابن الأنجب (على) : أصيل (٦١١) ، ولد بالإسكندرية وكان فقيهاً فاضلاً فى مذهب الإمام مالك ومن أكابر الحفاظ ، صحب الحافظ السلفى نزيرل الإسكندرية وانتفع به ، وكان ينوب فى الحكم بالإسكندرية وبها درس

(١) الشذرات ج ٤ ص ٣٢٧

(٢) البنية ٢٦٧ .

(٣) الشذرات ج ٤ ص ٣٤٠

(٤) الوفيات ج ١ ص ٣١١

وانتقل إلى القاهرة ودرس بها بالمدرسة الصحابية وهي مدرسة الوزير صفي الدين المعروف بابن شاذان (١) .

١٢ - عبد الحكيم بن إبراهيم بن منصور : أصيل ، (٦١٣) ، تولى الخطابة بجامع مصر بعد أبيه ، وكان شاعراً له أشعار حسنة نادرة (٢)

١٣ - صالح الأموي : طارئ ، (٦١٤) ، مكى قدم مصر فسمع من الأرتاحي والسلفي وجماعة من المصريين ولازم ابن برى حتى برع في الفقه وكان مفيداً مصر في زمانه (٣) .

١٤ - سليمان الدقيقي : أصيل ، (٦١٤) ، لازم ابن برى مدة في النحو وسمع منه وصنف في العروض والنحو والرفائق وقد ذكر السيوطي من كتبه أربعة وثلاثين أغلبها في النحو والعروض والبلاغة (٤) .

١٥ - أبو طاهر العقيلي : أصيل ، (٦٢٣) ، كان من سادات المصريين وعلمائهم ونبلائهم وكان عالماً بالقراءات والعربية مع دين متين وزهد وورع (٥) .

١٦ - البلنسي الحافظ (عمر) : طارئ ، (٦٣٣) ، من أعيان العلماء متقن لعلم الحديث وما يتعلق به ، طلبه في أغلب بلاد الأندلس . عارف بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها ، مات بالقاهرة (٦)

١٧ - ابن الحاجب (عثمان بن عيسى) : أصيل ، (٦٤٦) ، سنفرد له ترجمة بعد هذا .

١٨ - سليمان الخلي : طارئ ، (٦٥٠) ، كان من كبار النحاة . سكن مصر ودرس بالفقهاء وحكم بها وأقرأ الكتاب (كتاب سيبويه) إقراء جيداً واختص بالملك الكامل (٧) .

(١) الوفيات ج ١ ص ٣٢٩

(٢) الوفيات ج ١ ص ٥ (في ترجمة ابن إبراهيم بن منصور)

(٣) البقية ص ٢٦٩

(٤) البقية ص ٢٦١

(٥) البقية ص ١٩٦

(٦) الوفيات ج ١ ص ٣٨١ .

(٧) البقية ص ٦٣٢

- ١٩ - شرف الدين النحوى (محمد) : طارئ ، (٦٥٥-) ، سنفرده له ترجمة بعد هذا .
- ٢٠ - ابن القضاى (محمد بن عبد القوى) : أصيل (٦٦٧) نحوى لقب بالأخفش وتصدر بالجامع الظافرى (١) .
- ٢١ - ابن الظهير المراكشى (محمد) : طارئ ، (٦٧٦-) ، ولد بإربل وسمع بها وببغداد وروى عن الحافظ الدمياطى وكان فقيهاً فاضلاً وأديباً شاعراً له النظم والمعرفة بالنحو واللغة . درس بدمشق وقدم مصر وحدث بها (٢) .
- ٢٢ - سلامة بن سليمان : طارئ ، (٦٨٠-) ، من كبار أئمة العربية أقرأ جماعة بمصر ، وكان من أجل تلاميذ الجمال بن مالك ، وكان الجمال يعظمه جداً ويثنى عليه ويصفه بالفضل . حضر جماعة تصريف ابن الحاجب على الضياء الفارقى فحضرته الوفاة فأوصاهم أن يتموه على بهاء الدين هذا وقال : هو بقية المشايخ (٣) .
- ٢٣ - ابن عنان الميديمى : أصيل ، (٦٨٣-) ، ولد بالقاهرة سنة ٦١١ ، وكان عارفاً بالقراءات والنحو والحديث سليم الباطن على سميت السلف وهو مخضرم الدولتين (٤) .
- ٢٤ - ناصر الدين الجذامى : أصيل ، (٦٨٣-) ، ولد بالإسكندرية سنة ٦٢٠ وكان إماماً فى النحو والأدب والأصول والتفسير وله يد طولى فى علم البيان والإنشاء . خطب بالإسكندرية ودرس بجامعة الجيوشى وندب بها فى الحكم ثم اشتغل بالقضاء سئل عنه ابن دقيق العيد فقال ما يقف فى البحث عند حد . صنف كتباً كثيرة منها الانتصاف صاحب الكشاف (٥) .
- ٢٥ - الشاطبى القاسم بن فيره : طارئ ، (٥٩٠-) ، سنفرده له ترجمة فيما بعد .

(١) البغية ص ٥٨

(٢) البغية ص ١٥

(٣) البغية ص ٢٥٩

(٤) البغية ص ٥

(٥) البغية ص ٢٠٥

٢٦ - رضى الدين القسطنطينى : طارئ ، (٦٩٥) ، نشأ بالقدس وأخذ العربية عن ابن معط وابن الحاجب وتزوج ابنة ابن معط ، صار من أكابر أئمة العربية بالقاهرة وكان إلى جانب فضله بالعربية له معرفة تامة بالفقه ومشاركة في الحديث (١) .

٢٧ - ابن النحاس الحلبي (محمد) : طارئ ، (٦٩٨) .

٢٨ - أبو الطاهر إسماعيل الزهرى : أصيل ، (٥٨١) ، تفقه على أبي بكر الطرطوشى وبرع في مذهب مالك وقصده صلاح الدين وسمع منه الموطأ (٢)
٢٩ - مخلوف بن على : أصيل ، (٥٨٣) ، مالكي أحد الأئمة الكبار تفقه به أهل نجر الإيسكندرية زماناً (٣)

٣٠ - التاج المسعودى البنجديسى : طارئ ، (٥٨٤) ، أملئ بمصر مجالس حديث ، وكان من الفضلاء في كل فن : في الفقه والحديث والأدب (٤)

٣١ - أبو الحسن شعاع بن المدبلى : أصيل ، (٥٩١) ، فقيه مالكي نحوى قرأ القراءات على بن الخطبة وتصدر بجامع مصر (٥) .

٣٢ - علم الدين السخاوى على بن محمد : أصيل ، (٦٤٣) ، اشتغل بالقاهرة على الشاطبى وأتقن عليه علم القراءات والنحو واللغة ، وسمع بالإسكندرية عن السلفى وبمصر من البوصيرى وابن ياسين شرح المفصل والشاطبية وكان قد قرأها على صاحبها ، وكان يسمع لقارئين أو ثلاثة وكل يقرأ في موضع بخلاف موضع الآخر فيرد على الجميع أغلاطهم (٦) .

-
- (١) الشذرات ج ٤ ص ٢٦٨
 - (٢) المرجع السابق ص ٣٠٦
 - (٣) الشذرات ج ٤ ص ٢٧٦
 - (٤) المرجع السابق ص ٢٨٠
 - (٥) المرجع السابق ص ٣٠٦
 - (٦) الوفيات ج ١ ص ٣٤٥ .

تراجم بعض علماء الدولة الأيوبية

١ - الخبوشاني

هو أبو البركات محمد بن الموفق الخبوشاني الملقب بنجم الدين ، الفقيه الشافعي . كان فقيهاً فاضلاً كثير الورع ، تفقه على ابن ذكي الدمشقي (قاضي دمشق الذي كانت له عند صلاح الدين الأيوبي المنزلة العالية والمكانة المكيئة حتى إنه لما فتح بيت المقدس تناول العلماء إلى الخطابة يوم الجمعة وأعد كل منهم خطبة بليغة فخرج المرسوم إلى القاضي ابن ذكي هذا .

وكان الخبوشاني قوى الحفظ حتى إنه كان يستحضر كتابه « المحيط في شرح الوسيط » ونقل عنه أنه عدم الكتاب فأملاه من خاطره . وذكر ابن خلكان أنه رأى له كتاباً يسمى تحقيق المحيط وهو كبير في ستة عشر مجلداً .

وذكروا أن العاضد آخر خلفاء الفاطميين رأى في منامه أن عقرباً خرجت إليه من مسجد بمصر (هو يعرفه) فلدغته فلما استيقظ ارتاع لذلك وطلب بعض معبري الرؤيا وقص عليهم الحلم فقال له : ينالك مكروه من شخص يقيم في المسجد الذي رأيته في المنام فطلب العاضد والى مصر وقال له : اكشف لي عن من هو مقيم بهذا المسجد فمضى الوالي إليه فرأى رجلاً صوفياً (هو نجم الدين الخبوشاني هذا) فأخذه ودخل به إلى الخليفة فسأله من هو ومن أين قدم البلاد وفي أي شيء قدم فأجابه على كل سؤال . فلما ظهر له منه ضعف الحال والصدق والعجز عن إيصال المكروه إليه ، أعطاه شيئاً وقال له يا شيخ ادع لنا وأطلق سبيله فنهض من عنده وعاد إلى المسجد .

فلما استولى صلاح الدين على مصر وعزم على القبض على العاضد وأشياعه واستفتى الفقهاء في قتله فأفتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد وأتباعه من انحلال العقيدة وكثرة الوقوع في الصحابة والاستهتار بذلك وكان أكثرهم مبالغة في الفتيا هذا الصوفي المقيم في المسجد فإنه عد مساوئ هؤلاء القوم وسلب عنهم الإيمان وأطال الكلام في ذلك ، فصحت بذلك رؤية العاضد .

ولما ملك صلاح الدين مصر قرب الخبوشاني وأكرمه ، لما يعتقد في علمه ودينه ويقال إنه هو الذي أشار على صلاح الدين بعمارة المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي فلما عمرها فوض إليه تدريسيها والخبوشاني : نسبة إلى خبوشان وهي بلدة بناحية تيسايور ، ولما توفي رحمه الله دفن تحت رجل الشافعي وبينهما شباك . مات سنة ٥٨٧ هـ .

٢ - الشاطبي إمام القراء (١)

هو أبو محمد القاسم بن فيره الشاطبي الضرير المقرئ ، كان أوحده زمانه في علم النحو واللغة عارفاً لعلم الرؤيا حسن المقاصد فيما يقوله ويفعل . قرأ القرآن الكريم بالقراءات على النفرى المقرئ وابن هذيل بالأندلس وسمع الحديث من كثيرين ، وكان أكثر دهره ساكناً يتجنب الفضول من الكلام ولا ينطق إلا بما تدعو إليه الضرورة ، وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكى ولا يتأوه ، وإذا سئل عن حاله قال : بعافية . لا يزيد على ذلك .

دخل القاهرة سنة ٥٧٢ هـ وكان يقول عند دخوله أنه يحفظ وقر بعير من العلوم بحيث لو نزل عليه ورقة ما احتملها ، وكان نزيل القاضي الفاضل . وقد رتبته في مدرسته بالقاهرة فتصدر فيها لإقراء القرآن الكريم وقراءته والنحو واللغة .

وقد نظم القصيدة التي سماها (حرز الأمانى ووجه التهاني) في القراءات وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتاً . وقد أبدع فيها وظلت عمدة القراء منذ ألفها إلى اليوم ، وقل من يشتغل بالقراءات من غير أن يقدم لذلك بحفظها ومعرفة رموزها وإشاراتها ، وما يظن أنه سبق إلى أسلوبها .

وقد روى عنه أنه كان يقول : ما يقرأ أحد قصيدتي هذه إلا نفعه الله بها لأننى نظمتها لله تعالى مخلصاً في ذلك ، وهي مطبوعة متداولة .

ونظم قصيدة دالية في خمسمائة بيت من حفظها فقد أحاط علماً بكتاب « التمهيد » لابن عبد البر واسم الكتاب (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) والكتاب كبير جداً من أجزاء مخطوطة . وابن عبد البر أندلسي قرطبي مات سنة ٤٦٣ هـ .

وكان الشاطبي عالماً بكتاب الله قراءة وتفسيراً وبحديث رسول الله مبرزاً فيه . وكان إذا قرئ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ تصحيح النسخ من حفظه ، ويملى النكت

(١) ما في هذه الترجمة منقول عن البغية ص ٣٧٩ والوفيات ج ١ ص ٤٢٢ .

على المواضع التي تحتاج إليها. والشاطبي : نسبة إلى شاطبة من بلاد الأندلس وبها كان ميلاده .

وفيره : (بكسر الفاء وسكون الياء وتشديد الراء مع الضم وسكون الهاء بعدها لفظ أعجمي باللغة اللاتينية ومعناه بالعربية الحديد .

مات سنة ٥٩٠ هـ ودفن بالقراة الصغرى وذكر ابن خلكان أنه زار قبره مراراً .

٣ - الحسن بن الخطير النعماني : (١)

هو أبو علي المعروف بالظهير والنعماني أيضاً سئل عن هذه فقال أنا من ولد النعمان ابن المنذر ومولدى بقرية تعرف بالنعمانية ومنها ارتحلت إلى شيراز فتفقهت بها فليل إلى الفارس .

كان عالماً بفنون من العلم وقارئاً للقرآن بالعشر والشواذ عالماً بتفسير القرآن وناسخه ومنسوخه والفقه والخلاف والكلام والمنطق والحساب والهيئة والطب مبرزاً في اللغة والنحو والعروض والقوافي ورواية أشعار العرب وأيامها وأخبار الملوك من العرب والعجم . وكان يحفظ في كل فن من هذه العلوم كتاباً ، وكان يسرد هذه الكتب كما يسرد القارئ الفاتحة ، وحدث عن نفسه أنه كان يكتب منها ألواحاً ويحفظها كما حفظ القرآن فحفظها في مدة أربع عشرة سنة . وكان عارفاً باللغة العبرية وينظر أهلها بها حتى قال بعض رؤساء اليهود لو حلفت أن سيدنا كان حبراً من أحبار اليهود لحلفت .

وكان الغالب عليه علم الأدب حتى إن الشيخ عثمان بن عيسى النحوى البلطى وهو شيخ الناس بالديار المصرية أيام كان بها النعماني كان يسأله سؤال المستفيد عن حروف من الحوشى ، وسأله يوماً عما وقع في ألفاظ العرب على مثال شقحطب فقال : هذا يسمى في كلامهم المنحوت وهذه منحوتة من شق وحطب فسأله البلطى أن يثبت ما وقع من هذا المثال في كلامهم فأمل عليه في نحو عشرين ورقة من حفظه .

دخل الشام وأقام بالقدس مدة فاجتاز به العزيز بن صلاح الدين الأيوبي فراه عند الصخرة يدرس فسأل عنه فعرف منزلته فأحضره ورغبه في المصير إلى مصر ليقمع به الشهاب الطوسى ، فورد معه وأجرى له كل شهر ستين ديناراً ومائة رطل خبز ، وكل يوم خروفاً وشمعة .

(١) هذه الترجمة ملخصة عن معجم الأدباء ولياقوت ج ٨ ص ١٠٠ وبغية الرعاة ص ٢١٩ .

وقد ناظر الطوسي في حضرة العزيز فغلبه الطوسي فانزوى الظهير في مدرسة الأمير الأسدي يدرس بها مذهب أبي حنيفة إلى أن مات .

أما المناظرة فقد بدأ الظهير الكلام بقوله للعزيز أنت يا مولانا من أهل الجنة فوجد الطوسي السبيل إلى مقتله فقال له : وما يدريك أنه من أهل الجنة وكيف تزكى على الله ومن أخبرك بهذا ؟ ما أنت إلا كاذب زعموا أن خلدة وقعت في دن خمر فشربت وسكرت فقالت : أين القطاط !! فلاح لها هر فقالت : لا تؤاخذ السكارى بما يقولون وأنت شربت من خمر دن هذا الملك فسكرت فصرت تقول خالياً أين العلماء.

فبهت الظهير ولم يجر جواباً وانكسرت حرمة عند العزيز مات سنة ٥٩٨ هـ .

٤ - ابن الحاجب (١)

أبو عمر عثمان بن أبي بكر بن يونس الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين . كان والده حاجباً للأمير عز الدين قوسك الصلاحى ، وكان كردياً . واشتغل عثمان ابنه بالقاهرة من صغره بحفظ القرآن الكريم ثم بدراسة الفقه على مذهب الإمام مالك ، ثم بالعربية والقراءات وأخذها عن الشاطبي وابن الجود وبرع في علومه وأتقنها غاية الإتقان .

ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها في زاوية المالكية وأكسب الخلق على الاشتغال عليه والترم لهم الدروس .

تبحر في العلوم وكان الأغلب عليه علم العربية ، وقد صنف مختصراً في مذهبه اسمه « مختصر منتهى السؤل والأمل » وهو مخطوط ، ومقدمة وجيزة في النحو سماها الكافية ، وأخرى مثلها في الصرف سماها الشافية وشرح المقدمتين ، وكل ذلك مطبوع . وشرح المفصل للزحشرى بشرح سماه الإيضاح وهو مفقود وله الأمل في النحو في مجلد ضخيم في غاية التدقيق وهو مخطوط وله « جامع الأمهات » في فقه المالكية وهو مخطوط أيضاً . وكذلك صنف في أصول الفقه .

وله « المقصد الجليل » وهي قصيدة في العروض مخطوطة .

وكل تصانيفه في غاية الحسن والإفادة .

(١) هذه الترجمة مستفادة من الوفيات ج ١ ص ٣١٤ والبغية ص ٢٢٣ والأعلام للزركلي

وقد خالف النحاة في مواضع وأورد عليهم إشكالات والتزامات تصعب الإجابة عنها . وكان من أذكياء العلم .

قال ابن خلكان حضر إلى مراراً بسبب إسهادات وسألته عن مواضع في العربية مشكلة فأجاب أبلغ إجابة بسكون كثير وثبت تام . ومن جملة ما سألته مسألة اعتراض الشرط في قولهم إن أكلت إن شربت فأنت طالق لم تعين تقديم الشرب على الأكل لوقوع الطلاق ، حتى لو أكلت ثم شربت لم تطلق .

وسألته عن بيت المتنبي وهو قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم

ما السبب في خفض مصطبر ومقتحم ولات ليست من أدوات الجر ؟

فأطال الكلام في ذلك وأحسن الجواب عن المسألتين .

عاد من دمشق فأقام بالقاهرة واشتغل عليه الناس بالمدرسة الفاضلية ثم انتقل إلى الإسكندرية فلم تطل مدته بها فمات سنة ٦٤٦ .

وهو مولود باسنا من صعيد مصر ونشأ كما عرفت بالقاهرة وانتقل إلى دمشق ثم عاد إلى القاهرة ثم مات بالإسكندرية .

٥ - شرف الدين النحوى (١)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الفضل المرسى .

قال عنه ياقوت في معجمه : أحد أدباء عصرنا ومن أخذ من النحو والشعر بأوافر نصيب وضرب فيه بالسهم المصيب ، تكلم على المفصل للزنجشري وأخذ عليه عدة مواضع بلغت سبعين أقام البرهان على خطئها . .

أندلسي من مرسية رحل إلى خراسان ووصل إلى مرو الشاهجان وقدم وقدم بغداد وأقام بحلب ودمشق وزار الموصل وحج وزار المدينة ثم انتقل إلى مصر وقد لقيه بها ياقوت سنة ٦٢٤ .

كان نبيلاً ضريراً يحل بعض إقليدس ويحفظ صحيح مسلم مجرداً عن السند .

(١) هذه الترجمة ملخصة عن معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٠٩ والنبغة ص ٦٠

قال عنه ابن النجار في تاريخ بغداد : هو من الأئمة الفضلاء في فنون العلم والحديث والقراءات والفقه والخلاف والأصول (أصل الفقه وأصل التوحيد) والنحو واللغة وله قريحة حسنة وذهن ثاقب وتدقيق في المعاني ومصنفات في جميع ما عرف من علوم وله إلى جانب ذلك النثر الحسن والنظم الفائق، وكان زاهداً متورعاً حسن الطريقة كثير العبادة .

ولم يزل يقرئ ويدرس حيث حل ويقر له بالعلم والفضل كل مخالط سمع منه الحفاظ والأعوان من العلماء وبالغوا في الثناء عليه .

ومن شعره :

من كان يرغب في النجاة فما له	غير اتباع المصطفى فيما أتى
ذاك السبيل المستقيم وغيره	سبل الغواية والضلالة والردى
فاتبع كتاب الله والسنة التي	صحت فذاك إذا اتبعت هو الهدى
ودع السؤال بكم وكيف فإنه	باب يحجر ذوى البصيرة للعمى
والدين ما قال النبي وصحبه	والتابعون ومن مناهجهم قفا

مات سنة ٦٥٥ هـ خارجاً من مصر إلى الشام بن العريش والزعفا .

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

- ٧١ -

التأليف (٥٠)

الأدب [٤١]

المتاهرة

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

